الفصل الثالث

القصيم

١- منطقة العوشزية

٢- الانطباعات الأولية عن عنيزة

٣- الطريق إلى بريدة

٤- بريدة

٥- رحلة إلى الجنوب

٦- الحياة في عنيزة

٧- أول أزهار التفوق العربي

٨- السير ليلاً إلى بريدة

٩- شمال القصيم

الفصل الثالث

القصيم[١]

١ـ منطقة العوشزية

بعد قناة شعيب الضبة، كان لا يزال أمامنا نحو ثلاثة أميال ونصف الميل لنسيرها عبر منحدر متموج من الطفل الرملي الذي تتخلله بقع من صخور رملية قبل وصولنا إلى منطقة العوشزية. وهناك تل صغير منخفض مخروطي الشكل قريب من حافة المملحة يقف كعلامة بارزة على البقعة التي يؤخذ منها الملح في معظم الأحيان، بينما بعد هذا الامتداد الأبيض كالثلج تجد جبل الخرطم الذي يبدو أنه مشقوق بشكل قطري برقعة فسيحة من رمال النفود. ومن الصعب تحديد ما إذا كان هذا الشريط الرملي يخترق حقاً المنطقة الصخرية أو كما ظهر ذلك أشد ترجيحاً واحتمالاً أنه يغطي الجبل فقط. وإذا ما كان الأخير هو الصحيح فهل هذا الرمل قد حملته الرياح من النفود وراءها أم أنه ناتج عن تحلل الصخور وتفككها والذي يكون على الأرجح سبب تكوين جميع صحاري النفود في الجزيرة العربية؟ ولقد أغرانا على التفكير في هذا الاتجاه أن جبل الخرطم بأنساقه غير العادية من خطوط الرمل العظيمة التي تتخلل كتلته الصخرية أمامنا كان مثالاً حياً على نفود في طور التكوين.

---

(١) للمزيد عن تاريخ وجغرافية منطقة القصيم، انظر: محمد العبود، بلاد القصيم. (٦ مجلدات)، عبدالرحمن الشريف. منطقة عنيزة: دراسة إقليمية (القاهرة: مطبعة النهضة المصرية، ١٩٦٩م) ص ١٥ وما بعدها؛ عبدالرحمن السويداء. نجد في الأمس القريب (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ) ص ٣٦ وما بعدها، محمد السلمان. الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدولة السعودية الثانية (م.ت: ١٤٠٨هـ) ص ٣٦ وما بعدها. (ابن جريس).

يعبر الطريق قناة شعيب أبو طليحة[١]، وهي بالطبع رافدٌ من المملحة، بالقرب من بئر وحيدة مشيدة ببناء قوي ومبطن بالحجارة تسمى أم الشق فيها ماء صاف ولكن مذاقه معدني. والبئر دائرية تقريباً وعمقها أربع قامات وقطرها اثنا عشر قدماً، ومحاطة ببقعة من زراعة الحنطة، بني فيها برج للحراسة وهو مستدق الطرف من نوع البناء الضعيف من الحجر والطين، وبه مدخل لا يزيد ارتفاعه عن قدمين. وكانت عدة البئر قد فككت تبعاً للعادة المحلية، والماءُ قريب المنال عن طريق فوهة منحدرة انحداراً خفيفاً ينتهي عند فتحة منخفضة في بناء البئر فوق مستوى الماء مباشرة، وهناك قصر واحد بلا اسم يقف وسط حقل الحنطة على بُعد ميل ونصف الميل إلى الغرب، وكانت البئر، حسب جهاز قياس الارتفاعات الذي أحمله ترتفع فوق مستوى سطح البحر بنحو (٢٣٠٠) قدم. وأظن أن المملحة مقابل هذه النقطة أخفض من ذلك بحوالي ثلاثين أو أربعين قدماً، وربما تكون أخفض نقطة في المنطقة كلها الواقعة بين الطرف الجنوبي من السر ووادي الرمة.

وكلما تقدمنا في سيرنا كانت الأرض تكتسي بصفات مالحة بقوة، ويظهر فيها أنواع كثيرة مختلفة من النباتات يظنها الأعراب أنها من عائلة نباتات الحمض[٢] والآن كنا نمر عبر منحدر في جبل من الحجر الرملي ذي لون باهت، يميل إلى السواد ثم عبرنا قاع شعيب مشاري الذي يتدفق في حوض الملح بجوار التل المخروطي المذكور آنفاً، والذي لم يكن يبعد الآن إلا ربع ميل عن يميننا. والشعيب يجري فوق ألواح من الحجر الرملي بها قشرة بيضاء صلبة بين ضفتين تختلفان في الارتفاع من أربعة إلى عشرة أقدام. وفي عكس اتجاه التيار في انبعاج من القناة تقع

(١) شعيب أبو طليحة يوازي شعيب الضبة وتنتهي جميعها في سبخة العوشزية شمال روضة أبو خشبة التي تعتبر أكثر جهات منطقة المذنب انخفاضاً. انظر: الغنايم، المذنب، ص ٧٣، ٧٤. (ابن جريس).

(٢) مثل الشنان والعجيرمان والعرض والسواد والرمث. (فيلبي). لمزيد من التفصيلات عن النباتات والأشجار في منطقة المذنب، انظر: الغنايم، ص ٧٥ - ٧٧. (ابن جريس).

بقعة من زراعة الحنطة فيها قصران يحملان اسماً غير ملائم على الإطلاق، وهو روضة الجنة أي حديقة النعيم[١].

إن العربي لا يُعدم أحياناً روح الدعابة والفكاهة، ولكنه كان نادراً ما يستطيع أن يختار بقعة مجهولة ليسخر منها بمثل هذا الاسم. ويلتقي شعيب صغير يحمل الاسم نفسه بالألسنة السفلى من شعيب مشاري. وبعد جبل آخر مشوه الألوان من الحجر الرملي جئنا قريباً من العوشزية، والتي لكي نصلها كان علينا أن نعبر مجريين[٢] ضحلين مصممين لتوصيل مياه المطر إلى المنطقة المزروعة، وأخيراً شعيب القصيعي[٣] الذي صادفنا بجوار ضفته اليسرى جدول ماء ضعيف يجري متدفقاً من نبع.

بعد ذلك أنخنا إبلنا على باب قصر وحيد يقوم عند الطرف الغربي من أقصى بستان نخيل في شرق العوشزية. هنا صادفنا قطيعاً من حوالي ستمائة رأس من الغنم يرعاها ثلاثة من الرعاة يسقون من جدول الماء[٤]، واتضح لاحقاً أن القطيع من ممتلكات ابن سعود الخاصة، ويشق طريقه مباشرة إلى بريدة[٥]. وصاحب القصر الذي كان عبارة عن مبنى متواضع طوله سبعون خطوة وعرضه خمسون، قد ذهب لسوء الحظ إلى عنيزة، حسبما علمنا على الفور من حشد صغير من الناس المتعطلين الذين تجمعوا حولنا، وبدا من المرجح أن آمالنا في الحصول على ما

(١) ربما أطلق هذا الاسم على هذا المكان لما يتمتع به من مياه ومزروعات. (ابن جريس).

(٢) مثل هذا المجرى يسمى السيل وجمعه مسائل (فيلبي).

(٣) شعيب القصيعي وذكره فيلبي (شعيب القصيبي. للمزيد انظر: الغنايم، المذنب، ص ٧٢. (ابن جريس).

(٤) لمزيد من الإيضاح عن الحيوانات في منطقة المذنب، انظر: الغنايم، ص ٧٧ - ٧٨. (ابن جريس).

(٥) للاطلاع على تاريخ وجغرافية بريدة انظر: محمد بن صالح الربدي. بريدة: دراسة في الخصائص الطبيعية والسكانية، (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ط٢ جـ١، ص ٢١ وما بعدها، وللمؤلف نفسه. بريدة: نموها الحضاري وعلاقتها الإقليمية، جـ٢، ص ٢٣ وما بعدها، إبراهيم المعارك. بريدة ماضي مجيد، ص ٢٩ وما بعدها، الهويمل، بريدة ص ٢٩ وما بعدها. (ابن جريس).

ينعشنا قد ذهبت أدراج الرياح إلى أن ظهر ولد صغير في العاشرة من عمره على مسرح الأحداث. ولأنه كان ابن صاحب القصر وسمع أننا ـ بعد أن ركبنا طول النهار ـ كنا مرهقين، فقد دعانا للدخول وقادنا إلى واحد من أشد المجالس قذارة رأيته على الإطلاق، فقد كان غرفة صغيرة مساحتها (١٢ × ٧) أقدام، تطل من شرفة صغيرة وشديدة القذارة على مدخل المبنى. وكم كنا سعداء بالراحة هنا ريثما تُعد القهوة. كانت الجدران ملوثة بآثار الدخان، الذي لم يكن له مخرج إلا فتحة غير مشذبة في السقف عند طرف الغرفة البعيد جداً عن الموقد، ولكن لم يُقدّر لنا أن نترك وشأننا، فالرعاة، عندما شموا رائحة القهوة، سرعان ما انضموا إلينا، بينما سار درزن[١] من الناس المحليين، كلهم صبيان لا يتجاوز عمرهم الخامسة عشرة، سير الهوينى داخلين علينا ليشاهدوا الغريب الذي ظهر فجأة في وسطهم[٢].

وعلى الرغم من ذلك، كانوا في منتهى الود والترحاب، وأعطوني الكثير من المعلومات عن حوض الملح الذي ذكرته آنفاً، وأضافوا قائلين: إن كل الماء في العوشزية شديد الملوحة ولا يمكن شربه، حتى إنهم يضطرون إلى قطع ما لا يقل عن خمسة أميال نحو الشمال، ربما نحو واحدة من الآبار الموجودة في منخفض الزغيبية ليحضروا ماء الشرب. لقد كانوا بحق في تلك اللحظة يعانون من شح شديد في المياه لدرجة أنهم اضطروا إلى أخذ بعض ما معنا من ماء لتحضير دورة ثانية من القهوة. وبعد فترة قصيرة دخل علينا ابن صاحب البيت، وهو طفل رائع ذو أخلاق رفيعة التهذيب وليس بغافل عن الشرف الممنوح له بدور المضيف المؤقت، ومعه حصير من سعف النخيل وسلطانية من التمور الطازجة، وهي مع القهوة، التي صُبّت

(١) درزن: يقصد بذلك اثني عشر شخصاً، وأي شيء عند العد يصل إلى رقم اثني عشر يطلق عليه كلمة (درزن). (ابن جريس).

(٢) يقصد بالغريب هنا، أي شخص فيلبي، لأنه فعلاً يعتبر غريباً بينهم. (ابن جريس).

للضيوف فقط، صنعنا وجبتنا التي أكلناها بشهية وتلذذ. وعلمنا أن صاحب القصر كان رجلاً يُدعى علي الطرودي[١].

ينبع جدول الماء الذي ذكرناه آنفاً من عين على بُعد ربع ميل إلى الغرب تماماً من القصر، ويتدفق منها الماء محدثاً خريراً في فوهة بعمق اثني عشر قدماً مع نخلة تنمو بالقرب منها. من هذه العين يدخل وشلٌ[٢] هزيلٌ في القناة، التي يبلغ عرضها ثلاثة أقدام في القاع وخمسة أقدام عند الحواف العليا، منحوتة في الحجر الرملي. مقابل القصر يكون مستوى الماء محاذياً للسطح، وبعد أن يواصل جدول الماء سيره لمئات قليلة من الياردات يدخل في بستان النخيل الشرقي، ومن هناك يسيل هزيلاً رقيقاً في النهاية إلى حوض الملح.

تتكون الواحة من كتلة وسطى صلبة من النخيل الممتد بمتوسط عرض قدره ثلاثمائة ياردة لنصف ميل نحو الشمال من حدود مئة ياردة من العين. هذه الكتلة تنقسم إلى قسمين منفصلين على كلا جانبي الدرب العريض المؤدي إلى بريدة، الذي ينحرف عنه درب عنيزة نحو الغرب بعد طرف الواحة مباشرة[٣]. وكتلة النخيل الشرقية التي توقفنا فيها تمتد ربع ميل من الغرب إلى الشرق نزولاً حتى حدود حوض المملحة. وأخيراً توجد كتلة نخيل ثالثة على مسافة حوالي ربع ميل جنوب غرب العين. بالإضافة إلى القصور العادية المتناثرة توجد قرية صغيرة غير مسورة على الجهة الشرقية من القسم الجنوبي من الكتلة الوسطى. ويتألف سكانها من نحو مائة وخمسين شخصاً من فخذ بني خالد يسمى المطرودي[٤]، وكان شيخه

(١) ذكر فيلبي اسم الطرودي) عدة مرات. وهذا غير صحيح، فالاسم الصحيح هو (المطرودي)، وقد نوه إلى ذلك في إحدى الحواشي التالية. (ابن جريس).

(٢) الوشل: هو نبع أو ينبوع الماء. (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن المواصلات والطرق التجارية في كل من بريدة وعنيزة، انظر: المعارك، بريدة، ص ١٢٨، الريدي، بريدة، جـ٢، ص ٢٣٨، الهويمل، بريدة، ص ١٢٥، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٤) لقد سمعت اسم هذا الفخذ ينطق أيضاً المطرودي، يقال إنهم كانوا في السابق يتمتعون بالشهرة والثروة على الرغم من أنهم الآن من العائلات الضعيفة في عنيزة. (فيلبي).

رجلاً يعرف باسم عبد الله الطرودي. ويقال: إن القرية تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، على الرغم من أنني لم أشاهد شيئاً يبرر هذا الادعاء، وهي تعتمد إدارياً على عنيزة. والتمور الأكثر رواجاً وشهرة يسمى عبود كبيرة، وطرية وبنية اللون عندما يكون ناضجاً، وشديد الحلاوة، ونوع آخر وجدناه هنا يسمى مختومية الذي تتميز به منطقة السر. وتوجد زراعة فرعية كبيرة من الدخن، ونبات الفصفصة، القرع والقمح، لا سيما في القطاع الأوسط، حيث يكون النخيل متناثراً إلى حد ما. وكان ارتفاع العين حسب قراءة جهاز قياس الارتفاع يبلغ (٢٣٤٠) قدماً.

وعلى بُعد ميل تقريباً نحو الشمال تماماً من العين يقع بروزٌ من جبل الخرطم الذي يقف علامة واضحة على الطرف الشمالي من المملحة، وبعدها يمتد منخفض الزغيبية في اتساع مستمر باتجاه الشمال ويشكل وادياً واسعاً بين الخرطم والصفراء. وطرفه الشمالي يقترب من وادي الرمة، الذي ينفصل عنه بصورة جزئية بشريط رملي ضيق مستعرض يسمى الطعميات[١]، طوله أربعة أميال وعرضه ربع ميل فقط. وهذا بوضعه المذكور يشكل قاعدة لمثلث يمتد منه منخفض الزغيبية نحو الجنوب حتى رأس المثلث تقريباً في الطرف الشمالي من حوض الملح. هذا المنخفض يمثل منطقة رعي محمية تخص أهل عنيزة[٢]، وتتناثر فيه القصور التي قيل إنها لا تقل عن عشرين، على الرغم من أنني لم أر بنفسي إلا ستة منها على مسافة منا خلال سيرنا في فترة العصر. وفي الحقيقة يشكل المنخفض نوعاً من المصرف أو المخرج لوادي الرمة عندما يمتلئ عن آخره بماء الفيضان على عكس نظيره الجنوبي، وادي الدواسر[٣]، فيقال: إن الرمة يأتي بفيضان خمس أو ست مرات في

(١) الطعميات أو الطعيمية: ذكرها فيلبي باسم (الطعمية). (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن الحياة الرعوية في بلاد عنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣، ١٤١ - ١٤٥. (ابن جريس).

(٣) وادي الدواسر: من أهم وديان شبه الجزيرة العربية، ويقع في جنوب نجد، ويتجه باتجاه الشرق فيشق هضبة طويق ويخترقها إلى أن ينتهي عند بداية الربع الخالي من هذه الجهة. انظر: عبدالرحمن الشريف. جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٩. (ابن جريس).

العام العادي، في حين أنه في مواسم الأمطار الغزيرة يشتهر بأنه يحافظ على تدفقه المنتظم دون انقطاع لمدة تصل حتى أربعين أو خمسين يوماً.

يسير طريق بريدة تقريباً إلى الشمال الغربي واستدرنا منه نحو الغرب فوراً بعد تجاوز القرية. وامتد دربنا على لسان منبسط واسع أجرد من الصحراء المتموجة برفق، وعندما عبرنا منخفضاً ضحلاً يسمى القوارة وهو أحد رافد القصيعي، لاحظت، عندما التفت للخلف، بقعة صغيرة من النخيل، يقال إنها ليست تحت رعاية أحد، تسمى القويطير تمتد نحو الخلف في صدع من جبل الخرطم قرب الطرف الجنوبي من منخفض الزغيبية، الذي يمكن رؤيته من الأرض المرتفعة التي كنا عليها، بطوله كله حتى حاجز الطعميات المكون من جبل رملي. وهناك منحدر الصفراء نحو الشرق.

على بُعد حوالي ميلين خارج العوشزية نزلنا بانحدار حاد قصير يهبط إلى جرف واضح قدره أربعون قدماً في منخفض شعيب مكوزه وفيه على بُعد ربع ميل عكس اتجاه التيار يوجد مشاش أي مروى صغير. وسرعان ما لحقنا بالدرب المستقيم المؤدي من المذنب إلى عنيزة دون ملامسة العوشزية، بينما على مسافة بعيدة شيء ما نحو الغرب يقع طريقٌ أقصر من الأول[1] والذي سلكه البيرق.

ينحرف الدرب بشكل تدريجي في اتجاه شمال غرب عند زوايا قائمة إلى محاور سلسلة من الجبال التي مع أودية متداخلة تشكل الصفراء. وبعدما عبرنا القاع الصخري لشعيب معيذر[2] وهو رافد من الزغيبية، وارتفعنا بصورة تدريجية ولكن بثبات إلى جبل حيث سجل جهاز قياس الارتفاع ارتفاعاً بمقدار (٢٦٤٠) قدماً.

---

(١) يبدو أن هذا هو الطريق الذي سلكه شكسبير في ترحاله، بيد أنني لم أستطع أن أحصل على أي معلومات عن شعيب لضا الذي ذكره، إلا إذا كان يعني شعيب وضى الذي يسير في الطريق محل التساؤل حتى النقطة التي يدخل عندها حوض عنيزة جنوب شرق بستان نخيل الجهيمية البارز. (فيلبي).

(٢) شعيب معيزر الذي ذكره فيلبي يسمى أيضاً (شعيب أبو عاذر) (ابن جريس).

وراء المجرى الضحل لوادي عمران الذي يمتد نحو الشمال ويدخل في وادي الرمة، صعدنا فوق قمة جبل يوفر لنا مشاهدة رمال نفود الشقيقة وراء عنيزة وأيضاً، على مسافة بعيدة نحو الشمال، نفود بريدة. كان المنظر شاسعاً وممتداً، ولكنه موحش كئيب، لا يوحي بأي شيء يدل على أنه قريبٌ من هنا تقع واحدة من المدن الكبرى في الجزيرة العربية. بيد أن قمة الجبل المجاور لنا كانت تطل على مشهد مختلف تمام الاختلاف. فلأبعد مسافة نستطيع رؤيتها نحو الغرب كان هناك بحر ملتف من الرمل المتموج، وعند أقدامنا في منخفض عميق بين هاتيك الرمال والجرف الحاد الذي تنتهي عند الصفراء فجأة تقع واحة واسعة. تلك هي عنيزة في النهاية[1]، لكن الشمس قد مالت بالفعل نحو الغروب، واختفى المنظر عن عيوننا جزئياً بضباب كثيف. وعلى كل حال فالتعب والإرهاق قد بلغ منا مداه حتى إننا لا نستطيع التوقف، ودون لغط كثير نزلنا على الدرب الوعر ولكنه معتدل حتى وجه الجرف إلى أن وصلنا مستوى المنخفض. ثم بأقصى سرعة نستطيعها ـ كنا نستحث ركائبنا المرهقة نحو المخيم ـ حيث كانت خيمتي قد نصبت على بُعد ربع ميل تقريباً خارج البوابة الجنوبية في السور الدائري الكبير الذي يطوق الواحة والمدينة. ولم أعف من مقابلة ابن سعود، لكن لحسن الحظ كانت مقابلة قصيرة، وبعدها أسلمت نفسي من منتهى التعب إلى ترف الراحة الكاملة، تاركاً كتابة المذكرات والملاحظات والأشياء المضايقة المصاحبة للسفر إلى الغد، سعيداً بمعرفتي أن المخيم سيظل حيثما هو لأيام قلائل على الأقل. لقد قطعنا نحو سبعة أميال من العوشزية وما مجموعه ثلاثون ميلاً تقريباً خلال النهار. وعلاوة على ذلك كنا في حركة دائمة دائبة لما يقرب من أسبوع، دونما شيء من الراحة أو المهلة، ومثل هذا التنقل يمكن أن يكون أشد تعباً وإرهاقاً، خاصة في شهر أغسطس.

(١) للمزيد عن منطقة عنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٣ وما بعدها. (ابن جريس).

٢ـ الانطباعات الأولية عن عنيزة

في الصباح التالي، الثالث والعشرين من أغسطس، استيقظت لأجد نفسي في عالم جديد؛ ولأنني معتاد على الانفراد والاستقلالية وسط التعصب الأعمى الذي لا يرحم في نجد، فقد عزمت عندما استيقظت على أن أقوم بالقليل من التجول لرؤية المشاهد العامة قبل أن أدخل المدينة للسلام على الأمير والأشخاص الآخرين الذين قد يتوقعون أن أزورهم. ومع أن الوقت كان مبكراً، بعد السادسة صباحاً بقليل فقد وجدت أن خططي قد أحبطت بواسطة الأمير نفسه، الذي كان رسوله ينتظرني بالفعل ليدعوني على الفطور. ولقد غفلت عن المصاعب والاعتبارات المهمة، وكان قدري في ذلك اليوم ألا أرى من عنيزة إلا القليل خارج الجدران الداخلية لبيوتها المضيافة الكريمة. وقد سمعت كثيراً من قبل عن الفرق بين عنيزة وباقي نجد، وعن كرم أهلها وأياديهم السخية وعن خلوها التام من أي نوع من التعصب الديني أو المذهبي الأعمى[١]، إلا أنني يجب أن أقر بأني تجاربي الحقيقية قد أذهلتني وروعتني. ولقد بدا لي أنني خطوت فجأة خارج الهمجية والتخلف ودخلت في مجتمع شديد التحضر بل رفيع الثقافة[٢]، حيث كان الغريب داخل المدينة، بمنأى عن أن يكون موضع شك ومقت شديد، يعتبر ضيفاً عادياً على المجتمع من الواجب استضافته بلا رحمة أحياناً وبلا اعتبار لمشاعره الشخصية، من قبل كل أهل بيت يعدون من ذوي الشأن في النظام لتقدير الأمور. ولقد حالفني الحظ بمشاهدة وتجربة كل منطقة تقريباً في نجد قبل المجيء إلى القصيم، وذقت المر بكأس مترعه

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن الأحوال الاجتماعية في عنيزة، انظر: عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٢٣١، ٢٣٢، ٢٦٨، ٢٧٠، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) ربما بلاد الرياض وما حولها كانت تميل إلى البداوة والتخلف الثقافي والفكري بعكس القصيم التي كانت تقع على الطريق التجاري الرئيس بين الحجاز والعراق، بالإضافة إلى أن سكانها كانوا من القدم على صلات حضارية وتجارية مع أهل الشام والطرق. انظر الحربي. كتاب المناسك، ص ٥٨٨، ٥٨٩، سيد عبدالحميد بكر. الملامح الجغرافية لدروب الحج (جدة: تهامة للنشر والطباعة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص ١٨. (ابن جريس).

قبل الحلوة، وكان حظي مضاعفاً في ذلك، إلا أن بريدة قد ذكرتني بأن شقيقتها المدينة هذه رائعة بشكل فذ واستثنائي على الإطلاق، فآخر ذكرياتي عن وسط الجزيرة العربية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأيام إقامتي المؤقتة في هذه الجوهرة بين المدن العربية[١].

بعد أن احتسيت شاي الصباح، الذي أحضروا معه لي التين والخوخ والتمور الطازجة، اصطحبت رسول الأمير، واسمه بالتحديد عبدالله بن راشد، إلى البوابة الجنوبية، ومن هناك، واصلنا سيرنا على طول أزقة ضيقة بين بساتين النخيل المسورة التي كان نخلها ـ كما قيل لي ـ يحمل هذا العام حمولة استثنائية من الفاكهة، ووصلنا المدينة التي وجدتها غير مسورة ومتناثرة. وأدت متاهة من الشوارع الملتوية ذات المناظر البهية، المقنطرة من فوق هنا وهناك بالطوابق العلوية من البيوت على كلا الجانبين، إلى أن وصلنا المجلس، وهو مساحة مفتوحة غير منتظمة على شكل معين تقريباً مع المسجد الكبير عن يسارنا وهو منمق بمئذنة عالية مستدقة الطرف بشكل غريب، وبرج مربع أقصر منها في الزاوية الأخرى. هنا اعتاد الأمير على الجلوس في مجلس عام للحكم في الأمور البلدية أو القضائية بعد صلاة الجماعة، وعلى جميع الجوانب توجد محلات ودكاكين، وفي كل اتجاه تتفرع حارات وأزقة ملتوية من السوق الكبير، وأحد هذه الشوارع يمتد من هنا متخللاً طول المدينة كله حتى طرفها الشرقي. في عهد إقامة داوتي المؤقتة بعنيزة كان بيت الأمير متاخماً للمجلس[٢]، بيد أننا سلكنا واحداً من الشوارع الجانبية لنصل إلى مقر إقامة

---

(١) سعود، تاريخ عنيزة السياسي الحضاري إلى عام (٤٩٤هـ/١١٠٠م)، فهي تعد من أقدم مدن القصيم نشأة، يليها الرس عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م)، ثم بريدة عام (٩٤٨هـ/١٥٤١م)(١١٨٠هـ/١٧٦٦م)، ثم البكيرية، عثمان القاضي. روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين (القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) (جزءان)، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٤٨ (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن رحلة الرحالة دواني في بعض أجزاء نجد، انظر كتابه:

Traveles In Arabia Deserta (London, 1936) (Vol.2) pp.379/404.(ابن جريس)

الحاكم الحالي. وتبدو أبواب معظم البيوت مزودة إما بمطارق[١] عادية لقرع الباب أو بسلاسل[٢] مزدوجة غريبة الشكل، طولها نحو ست بوصات من حلقات معدنية متدلية بعد تثبيتها في الضلفة الخشبية[٣]. وبعد لأي وصلنا البيت الذي كنا نبحث عنه وسرنا عبر مجلس القهوة العادي، الذي يوجد فيه الموقد، ويبدو أنه لا يُستخدم إلا أثناء حر النهار وفي الشتاء، إلى أن وصلنا فناءً مفتوحاً محاطاً بجدران عالية حيث تقدم القهوة المعدة في الداخل، بشكل اعتيادي خلال الصيف عندما يكون الجو بارداً بدرجة كافية في ساعات الصباح والمساء بحيث يمكن الجلوس في العراء.

هذا التنظيم يبدو أنه ملمحٌ شائع في عنيزة، وهو تحسنٌ وتطور كبير عن عادة نجد في الجلوس طول الوقت في غرف تشتد فيها الحرارة حتى الاختناق، بيد أن الارتفاع الشاهق للجدران المحيطة ـ تبنى البيوت عادة لما يصل إلى ثلاثة بل حتى أربعة طوابق ـ قد حرم المرء من الاستفادة من حركة الرياح[٤].

استقبلنا عبد العزيز بن عبد الله السليم[٥]، وهو رجل بهي الطلعة طاعن في السن يبلغ الستين من عمره تقريباً، ذو عود طويل وهزيل، يتمتع بروح الدعابة اللطيفة في تعبيره عن ملامحه النحيلة، الذابلة تقريباً، وذلك بالنيابة عن ابن أخيه،

---

(١) مطارق: أي مطقة (فيلبي).

(٢) أي سلسلة أو مرسن (فيلبي). ومثل هذه الأدوات الحديدية توضع على وجه الباب الخشبي من الخارج، كي يسحب بها الباب إذا رغبو إغلاقه، وكذلك تحريكه لتصدر بعض الأصوات حتى يسمعه الذي في المنزل فيسعى إلى فتح الباب (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن الجوانب العمرانية والأبنية وأنواعها في عنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٧ – ٢٢٠، حافظ وهبة جزيرة العرب، ص ٤٦ وما بعدها. عبدالرحمن الشريف. منطقة عنيزة، ص ٢٠٢. (ابن جريس).

(٤) للاطلاع على معلومات أكثر عن عادات السكان والطعام والشراب في عنيزة، انظر: حافظ وهبة، ص ٤٦ وما بعدها، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٧٠، ٢٠٣ Doughty, Vol.2.pp404 (ابن جريس).

(٥) عبدالعزيز السليم ولاه الملك عبدالعزيز إمارة عنيزة في المحرم عام (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م)، واستمر في عمله حتى تنازل عن الإمارة لابن أخيه عبدالله بن خالد السليم في عام (١٣٥١هـ/١٩٣٢م) انظر: عبدالعزيز محمد القاضي. قصيدة تضم مختصر تاريخ عنيزة منذ تأسيسها حتى وقتنا الحاضر (بغداد: مطبعة الصباح، ١٣٦٧هـ) ص ٣١. (ابن جريس).

عبد الله بن خالد السليم، الذي تنازل له منذ حوالي عام مضى وبمحض إرادته الخالصة عن وظيفة الأمير بكل ما فيها من مزايا ومتاعب. وسرعان ما حضر عبدالله نفسه، رجل في حوالي الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره، بلحية سوداء أنيقة، ووجه باسم، وناضر، وانضم إلى المجلس زوار آخرون، الذين يدل مظهرهم العام يدل على أنهم أشخاص ذوو أهمية. ودار الحوار بالطبع على من سبقوني في المجيء إلى عنيزة.

كان عبد العزيز غائباً في غزوة مع ابن سعود في وقت زيارة شكسبير[١]، وعندها كان صالح بن زامل يعمل في غيابه كنائب للأمير، والذي قُدّر له مثل ضيفه أن يسقط في معركة جراب بعد ذلك بأقل من سنة. ولكن عبد العزيز لم ينس عندما كان صبياً في العاشرة أو نحوها أنه قد رأى داوتي (Doughty) وقد كانوا شديدي الاهتمام بسماع أنه لا يزال على قيد الحياة. وهم يعتقدون أن مثل هذا الرجل لا بد بحق أن يضع بصمته الواضحة ربما في أحد الوظائف الدبلوماسية[٢]. أما عن تشارلز هوبر (Charles Huber)، فقد كانت الذكريات لا تزال حية، وعن موته في الحجاز على أيدي مرافقه العربي. ومن يومها ـ كما قالوا ـ لا يستطيع الأجانب أن يتقربوا إلى العربي إلا من خلال كيس دراهمهم؛ لأنه مبذر ينفق بغير حساب. وفي يوليو (١٨٨٤م)، وافته منيته ودفن في مقبرة صغيرة بجدة، وقد أقرت الحكومة الفرنسية بخدماته من أجل قضايا الإنسانية وخلدت ذكراه بنصب تذكاري من الجرانيت مقام على نفقة الدولة عند قبره محفور عليه عبارة إشادة لا يستحقها إلا القليل تقول : مات من أجل العلم[٣].

---

(١) للمزيد عن رحلة شكسبير في نجد، انظر: الغنايم، المذنب، ص ٤٠، كما انظر: مصادر تاريخ الجزيرة العربية (المنشور في جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) جـ١، ص ٧٢ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن رحلة داوتي في بلاد نجد، انظر: كتابه: Traveles In Arabia, Vol. 2.PP. 287 ff (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن مغامرات الرحالة الأجانب في جزيرة العرب، انظر: جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ص ٢٦ وما بعدها، روبن بدول، الرحالة الغربيون في جزيرة العرب، ص ٢٢ وما بعدها.

وكان واحداً من صحبة المجلس شيخ كبير يقترب من الثمانين، ذو لحية بيضاء قليل السمع، وهو كما علمت بعد ذلك يدعي يحيى بن ذكير، اعترف بأنه يتذكر رحالة أوروبي أقدم بكثير من داوتي، بيد أنني لم أستطع أن أكتشف هويته[١]. أما عن المعاملة التي لاقاها داوتي في عنيزة فقد أدى مرور السنين الطويلة إلى تبرئة وعيهم عنها، فالواقع أنه قد طُرد من المدينة لمدة قصيرة إلى الملقى في وادي الرمة[٢]، وقد حدث ذلك لأن مجيئه قد تصادف مع بداية وباء الجدري، ولم يستطيعوا أن يقفوا ضد الطلبات الملحة لكبار الشيوخ المحليين وعلماء الدين أن يزيلوا السبب الواضح أو المناسبة البينة لهذا البلاء[٣]، ومع ذلك ـ على كل حال ـ فقد قاموا بتعويضه وترضيته بتقديم المزيد من السخاء والكرم. وبيت الخنيني الذي سكن فيه لا يزال موجوداً، ولكن للأسف أنقاضاً، على الرغم من أن أسطورة داوتي لا تزال باقية مبجلة في ذاكرة التاريخ المحلي[٤].

وهكذا تواصل الحديث بيننا إلى أن نهض عبد العزيز فجأة، مطالباً بحق استمراره في استضافتي، وقادني خارجاً إلى بيته، وهو مبنى عالٍ مكون من أربعة طوابق، تحاذيه حديقة رائعة، وتستطيع أن تراها عبر النوافذ المفتوحة في الممر الذي سرنا فيه حتى فناء مفتوح، حيث جلسنا على الأرائك. وفي غرفة استقبال

(١) الرحالة الأجانب ارتادوا جزيرة العرب من وقت مبكر، وبعضهم لا تزال أسماؤهم مجهولة عندنا حتى الآن، انظر: جاكلين بيرين، ص ٣٣ وما بعدها، روبن بدول، ص ٢٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) وادي الرمة من أهم أودية شبه الجزيرة العربية، ويبدأ من مشارف المدينة المنورة، وذلك من السفوح الشرقية بجبال منطقة المدينة وسفوح الحرات المجاورة لها، ويتجه نحو الشرق، ومع ذلك فهو يستقبل أكثر من (٣٠٠) رافد تغذيه بالمياه، وطوله مع وادي الباطن الذي يتصل به بعد رمال الدهنا حوالي (١٢٢٥) كم. للمزيد انظر: عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٧ - ٨٨. (ابن جريس).

(٣) لقد ذكر داوتي هذا الوباء، ولكن عزاه إلى سبب مختلف. (فيلبي). كان الناس في القديم يعانون من أمراض عديدة مثل: الجدري، والطاعون، والجوع وغيرها. وقد يسقط في بعض الأزمان والأماكن أعداد كثيرة من البشر بسبب هذه الآفات. (ابن جريس).

(٤) للمزيد عن رحلة داوتي إلى منطقة القصيم وأجزاء عديدة من الجزيرة العربية انظر: كتابه باللغة الإنجليزية (Travels In Arabia Deserta) (جزءان). (ابن فيلبي).

عبدالله كنا قد جلسنا على سجاد عليه مساند لنتكئ عليها. أما هنا فهناك جدار منخفض يفصلنا عن الحديقة، ولكن، بعد الدورات المعتادة من القهوة، أدخلنا في مجلس[١] صغير محدود المساحة بالطابق الأرضي حيث قدمت السجائر علي وعلى آخرين في الصحبة ممن يدخنون، وهذا يحدث لي للمرة الأولى في نجد. وكان الرجل الذي يصب القهوة يدور علينا ويشغل السيجارة قبل أن يسلمها لي[٢].

بعد فترة قصيرة من هذا الانغماس في الأهواء والشهوات مشينا جماعة عائدين إلى بيت الأمير لتناول الفطور، فبُسطت حصيرة هائلة من سعف النخيل على الأرض، وجرى تغطيتها بأعداد لا حصر لها من أطباق الأرز المبهر، والخضروات والفواكه التي التهمناها التهاماً. لم نكد ننتهي من هذا الطعام إلا وطالب محمد بن سليمان سكرتير ابن سعود وأحد المقيمين في عنيزة، باصطحابنا إلى القهوة في بيته. أخذنا ممراً طويلاً، مزخرفاً حتى ارتفاع خمسة أقدام تقريباً بأسطح من الجبس الخالي من الرسومات الذي وضع في مربعات متدرجة حتى قمتها إلى فناء صغير مفتوح مجاور لمجلس القهوة (انظر الشكل ٦).

والجدران الطينية في هذا المجلس الأخير مكسية حتى ارتفاع خمسة عشر قدماً بلياسة من الجبس الأبيض، ومزينة بتصاميم زخرفية بسيطة تعكس ذوقاً رفيعاً، والغرفة مفروشة بترف، يفوق كثيراً ما هو في غرف الأمير وعمه، بسجاد ومخدات فاخرة[٣].

كان النهار الآن قد انقضى معظمه وسُمح لي أن أعود إلى المخيم لآخذ ساعات قليلة من الراحة. ولكن ليس دون أن ألزم نفسي بعدد من الارتباطات الاجتماعية

(١) ختصر. (فيلبي). ويطلق هذا الاسم حتى اليوم، على المجالس الصغيرة في داخل المنازل والعمائر الكبيرة. (ابن جريس).
(٢) تقديم السجائر وإشعالها لفيلبي لأول مرة في نجد يعدها من الوعي والحضارة الاجتماعية. (ابن جريس).
(٣) لمزيد من الإيضاح عن بعض الجوانب الاجتماعية في عنيزة مثل: الأطعمة والأشربة، والنواحي العمرانية من منازل وقصور وغيرها، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٧٠، ١٩٧ - ٢١٨. (ابن جريس).

فيما تبقى من اليوم. وأول المستضيفين لي في أواخر فترة العصر عبدالرحمن بن عبدالعزيز بن زامل، سليل مباشر من الزامل الكبير الذي كان موجوداً أيام داوتي[١]، الرجل الذي أصبحت إدارته لعنيزة في العصور المضطربة منذ نصف قرن مضى مُزدانة بهالة أسطورية مبجلة.

وكان حفيده شاباً في حوالي الخامسة والعشرين ذا وجه شاحب ضعيف نسبياً ولحية في بدايتها، يُذكرنا بصورة غامضة بالرجل الكبير نفسه، الذي وصفه داوتي بأنه «رجل صغير، ناضج ذو طلعة دقيقة وبهية وعينين تومأن بفهم عميق»[٢]. وهناك ابن عبدالرحمن، رجل حسن المظهر، حليق اللحية تماماً وأكبر نسبياً من عبد الرحمن نفسه يُدعى سليم، يساعده في ضيافتنا بالجو الخانق نسبياً في مجلسه الصغير المريح. وكنت قد أحضرت غليوني معي وشرعت في التدخين بلا حرج، بينما انهمك الآخرون في تدخين السجائر. لا تهاون مع التدخين في عنيزة في العلن أما ما عدا ذلك فهو لا يعتبر قذرا ولا غير شرعي[٣].

بعدما غادرنا منزل الزامل، الذي يقع في الطرف الغربي من المدينة الذي يبدو عليه مظهر الإنشاء الحديث، نسبياً، لاحظت أن الزوار الذين يصلون عند الباب

---

(١) زامل بن عبدالله الليم كان والياً على عنيزة خلال عهد الدولة السعودية الثانية، وقد بقي في ولايته من عام (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م)، إلى أن قتل في معركة المليدا في جمادى الآخرة عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)، والتي هزم فيها أهل القصيم واستولى ابن رشيد على نجد وأخرج الإمام عبدالرحمن الفيصل من الرياض عام (١٣٠٩هـ/١٨٩١م) وانتهت الدولة السعودية الثانية أما عبدالرحمن ووالده عبدالعزيز فكانا من المهتمين بالعلوم الشرعية والفقهية، ويعدان من علماء عنيزة. وكانت وفاة عبدالعزيز الزامل في مكة المكرمة عام (١٣١٠هـ/١٨٩٢م)، ووفاة ابنه عبدالرحمن في عام (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م). انظر: محمد القاضي. روضة الناظرين، جـ١، ص ٢٧٠، محمد السلمان. مدينة عنيزة، ص ٥٧، ٨٦. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن منطقة عنيزة أثناء زيارة داوتي انظر: كتابه (Travels In Arabia) (الجزء الثاني) ص ٣٥٦ - ٥٤٦. (ابن جريس).

(٣) ربما كانت القصيم أقل تشدداً من غيرها في بلاد نجد، وبخاصة في بعض التصرفات الاجتماعية كشرب الدخان وما شابهه، وذلك بسبب اختلاطهم الحضاري مع المسافرين والحجاج الذين يجوبون بلادهم ما بين الحجاز وبلاد الطرق وفارس وما حولها. (ابن جريس).

ويقرعونه ينادون دائماً صاحبه باسم الزامل، لقبه التاريخي المبجل. شققنا طريقنا عبر السوق حتى بيت سليمان الذكير، حيث قُدّم لنا بالإضافة للقهوة مزيجاً غثاً إلى حد ما من الشربات. إن عائلة الذكير، مثل كثير من عائلات عنيزة، قد انتشرت في كافة الأرجاء من موطنها الأصلي، وفي الوقت الحالي لها ممثلون في البصرة والعمارة والبحرين، والفرع الرئيس من العائلة في البحرين تحت رئاسة أخو يحيى، مقبل[١]. ولقد كان لي في أثناء وجودي بالعمارة خلال الشهور الأولى من ١٩١٧ قدر كبير من التعامل مع حمد بن محمد الذكير، وعلى أساس صداقتي مع ابن عمه قام سليمان ـ الموجود بين الصحبة في بيت الأمير خلال فترة الصباح ـ بدعوتي على القهوة في الغد. وبسبب خطأ من جانب رشيد اعتقدنا أن الدعوة كانت في عصر اليوم نفسه، وكنا في طريقنا إلى بيته عندما قابلنا مضيفنا في السوق، غير مدرك كما يبدو بوضوح بالميعاد الذي كنا نسرع خطانا للمحافظة عليه. ومن الواضح أننا أخطأنا، ومع ذلك فقد أصر على اصطحابنا إلى بيته، وهناك استضافنا وأقسم، لو كان الخطأ خطأه، لكان عليه تبعاً للعادة المحلية أن يولم وليمة في عشاء عام على شرفنا ليكفر عن مثل هذا الخرق للآداب العامة[٢]. وقد أكدنا له أنه بريء لا يُلام، ولكن عندما غادرنا قرب وقت صلاة المغرب أصر على أننا في الغد يجب أن نشرفه بالمحافظة على موعدنا الأصلي. ولقد كانت بنت أخ مقبل في ذلك الوقت واحدة من زوجات ابن سعود الأربع، الذي ولدت منه قبل ستة شهور مضت بنتاً. ولقد ظلت بعد الزواج مقيمة بين أهلها في عنيزة، وهكذا لم تر زوجها منذ زمن طويل، وكانت هذه أول مرة تقع فيها عين هذا الأخير على ابنته الصغيرة.

---

(١) مقبل عبدالعزيز الذكير المتوفى عام (١٣٦٣هـ/١٩٤٣م) في البحرين. وهو من أهالي عنيزة، وله كتاب في التاريخ لم يقرر له اسماً، ويعرف بـ (تاريخ نجد). مع أنه يشتمل على تاريخ غيرها من مناطق الجزيرة العربية وبلدانها ومازال محفوظاً. وقد تولى مقبل مالية الأحساء بعد ضمها من قبل الملك عبدالعزيز عام (١٣٣١هـ/١٩١٢م). للمزيد انظر محمد السلمان. مدينة عنيزة، ص ٨٨ - ٨٩. (ابن جريس).

(٢) الكرم واحترام المواعيد من الصفات الجيدة التي كان يتصف بها ذلك الجيل الذي يتحدث عنه فيلبي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الماضي). (ابن جريس).

والآن عدت إلى المخيم وانطلقت إلى قمة دليمة الرملية غير البعيدة لأنال نظرة جيدة على ما يحيط بنا. وحتى هنا لم يكن لي أن أترك وشأني، فقد هرع رجل ذو لحية رمادية كبير في السن، يدعى إبراهيم القاضي، يلهث وهو يصعد المنحدر ليرى ماذا كنت أعمل. وسألني أسئلة كثيرة عن موضوع التصوير الفوتوغرافي، وكم كان مسروراً مثل طفل عندما سمحت له أن يأخذ الكاميرا بين يديه وينظر من خلال العدسة. ثم مثلما جاء فجأة نهض وتركني، ولما جاء رسول من ابن سعود ومعه خطابات وصلت من الكويت، فقد رجعت إلى المخيم، حيث بالكاد نلت وقتاً للنظر على عجل في مراسلاتي إلا وجاء عبدالله بن رشيد ليستدعيني على العشاء في بيت الأمير. قُدمّت الوجبة في غرفة بالطابق الأول تطل على الفناء الذي شربنا فيه القهوة، وكان الطعام يتكون من الأرز والخضروات ولحم ضأن طبخ بصورة ممتازة، إضافة للأنواع المعتادة من الفاكهة. وفور أن انتهت الوجبة قمنا، وبعد الاستئذان عدنا للمخيم نقول في أنفسنا أخيراً انتهت جولات الضيافة لهذا اليوم. على أن الحال لم يكن كذلك، فبعد صلاة المغرب ذهبت للمدينة تارة أخرى لأحل ضيفاً على فهد بن عبد الله البسام، وهو رجل بهي الطلعة ولكنه شيخ هرم قليلاً ويتمتع بوضوح بالأثاث والتجهيزات الفاخرة في قصره، وهو أحد أفضل البيوت في المدينة[1]. وقال لي: إنه قد رأى أحياناً داوتي يشرب القهوة في هذه الغرفة نفسها في أيام والده، عبدالله. والحق أن داوتي قد أشار إلى شاب من أهل البيت، ولكن لابد أن إشارته كانت إلى أخ أكبر؛ لأن فهد في تلك الأيام ـ كما يقول ـ كان صبياً صغيراً في الثامنة أو التاسعة، واعتاد على أن يكلفه معشر النساء بمراقبة داوتي وهو يأكل ليضع علامة على الجزء الدقيق من الطبق المشترك الذي أكل منه، هذا الجزء، مع هامش

(١) بيت آل البسام في عنيزة من البيوت المعروفة والكبيرة في المكانة الاجتماعية والعلمية. ومنهم عبدالله بن محمد البسام المتوفى عام (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) له كتاب في التاريخ أسماه: تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق. ولا يزال مخطوطاً. كما منهم الشيخ عبدالله البسام، أحد أعضاء هيئة كبار علماء المملكة العربية السعودية اليوم. انظر: محمد السلمان. مدينة عنيزة، ص ٨٦، ٨٧. (ابن جريس).

معقول على كلا الجانبين كان على ما يبدو يُحتفظ به لقطط البيت؛ لأن النساء لا تأكل إلا من الباقي فقط[١]. وبكثير من السرور والاحتفال قدّم علبة من السجائر المصرية لي وحدي، في حين قُدّم للدكتور عبدالله النوع العادي الذي يسود استخدامه محلياً مما أثار غيظه وحنقه كثيراً. وعلاوة على ذلك، أصر فهد على احتفاظي بالعلبة، التي سلمتها لعناية رشيد، وبالطبع، لم أرها أبداً مرة أخرى.

أخيراً جاءت نهاية اليوم، وكم كانت سعادتي بالخلود إلى الراحة. طبقاً للحساب المحلي كان هذا أول يوم في الخريف أي فصل الخريف البارد، الذي دخل بظهور سهيل عند الفجر[٢].

وفي الواقع هناك انخفاض ملحوظ في درجة الحرارة، وأعلى درجة خلال النهار كانت أقل من (٩٧) درجة. وعند السادسة صباحاً في اليوم التالي انخفضت إلى أربع وستين درجة .

إن كرم الضيافة في عنيزة ليس مترفاً فقط ولكنه منظم تنظيماً جيداً أيضاً. فعبء ضيافتنا ـ بخلاف شرب القهوة ـ قد وقع في اليوم الأول من إقامتنا المؤقتة على عاتق الأمير نفسه، الذي قدّم كلاً من الفطور والعشاء، والآن خلص من التزاماته تجاهنا.

---

(١) من العادات الاجتماعية عند سكان الجزيرة العربية قديماً أن الرجال يردون على الطعام أولاً، ثم يأتي من بعدهم النساء. وهذه العادة ما زالت سارية عند كثير من أسر مجتمع المملكة. (ابن جريس).

(٢) سهيل: هو كوكب أحمر يماني، قال عمر بن أبي ربيعة في الثريا التي كان شبب بها، وكان تزوج بها سهيل بن عبدالرحمن بن عوف:

أيها المنكح الثريا سهيلاً
عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا اشتعلت
وسهيل إذا استقل يمان

هذا يقال له سهيل اليمن ومعه نجم يقال له (بلقين) وسهيل اليمن يقرب من الأفق، منفرد عن الكواكب، لا يقطع إلى الغرب كما يقطع غيره، ولكنه يغيب في مطلعه. للمزيد انظر: ابن قتيبة، كتاب الأنواء، ص ١٥٢ ومابعدها. (ابن جريس).

وقام عمه، عبدالعزيز، باتخاذ ترتيبات فطورنا في اليوم الثاني، ولما تمكنت من الانفلات بعيداً قبله في جولة راكباً، فقد كنت عند وصولي في بيت مضيفي في حالة أشكره فيها على الوليمة التي أعدها. فكان هناك الأرز والدجاج، والبيض المقلي والطماطم المحشوة باللحم المفروم والبامية، والتين، والخوخ وثلاثة أنواع من التمور. وكل الفاكهة مجلوبة من الحديقة المجاورة التي تمتعنا فيها، بعد أن ساعدنا ازدراد هذه الوجبة بلبن الأبقار المخيض[١]. ومشينا للنزهة في الظل البارد لأوراق الأشجار اليانعة. وفي بيت صيفي صغير أو تعريشة من أغصان النخل وجدنا الأمير والشاب عبدالرحمن الزامل، الذين ناقشنا معهما أمور الزراعة. كما ذكرت من قبل، فإن محصول التمر في هذا العام غزيراً بصورة استثنائية، وقال لي الأمير: إنه أنه في نخلة واحدة بحديقته يظن أنها تحمل مائة صاع (بين ٢٥٠ و ٣٠٠ كيلو) تُقدّر بقيمة أربعين ريالاً.

من العادات الشائعة هنا لأهل المدينة الذين لا يملكون نخلاً إلاّ يشتروا ما يحتاجونه من التمر في السوق، ولكن يشترون محصول نخلة واحدة أو أكثر كما هو في الشجرة، وأن يتناولوا ما يشاؤون من الفاكهة الطازجة خلال الموسم. يبدو أن هذا النظام يسير بصورة مرضية ومقبولة، لأن عنيزة تتباهى بالمعايير العالية في الأمانة التجارية[٢].

ولقد دُعينا على القهوة من شخص يدعى صالح الفضل[٣]، رجل كبير السن،

---

(١) لمزيد من المعلومات عن الأطعمة والأشربة في عنيزة وعموم بلاد القصيم. انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٧٠، حسن الهويمل بريدة، ص ١٦٧ - عبدالله الرشيد، الرس، ص ١١٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن النشاطات التجارية في بلدة غنيزة منذ القدم. انظر: عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٣٣، عبدالرحمن الشريف، منطقة عنيزة، ص ٩٠، عبدالرحمن الغنايم، المذنب، ص ٩١، ١١٩، ١٣٢ - ١٥٠، مديرية الزراعة والمياه بمنطقة عنيزة، التقرير السنوي لعام (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص ٥١، سيد عبدالحميد بكر، ص ١٨ أبو علية، الدولة السعودية الثانية، ص ٢٨٣، ويقول سادلر الذي مر بعنيزة عام (١٢٣٥هـ/١٨٢٠م): «عنيزة قصبة الجزيرة العربية جغرافياً وسياسياً وتجارياً فهي منطقة وصل بين الخليج العربي والبحر الأحمر وتلتقي عندها عدة طرق»، انظر:

Forster Sadlier. Diary of Journey Across Arabia From Elkhat.f to yabo (Bombay, 1866)

(٣) في (١٩١٩م) هاجر صالح إلى كراتشي ليتولى مسؤولية فرع مهم من العمل التجاري لأسرته في تلك المدينة، حيث التأم بعد ذلك بسنوات قليلة مع آبائه فخوراً الشرف والعمر وهذه العائلة لها أيضاً تمثيل في بومباي، ونالت شرفاً سامياً في الحجاز تحت الحكم الوهابي الجديد. (فيلبي).

نبيل ومدهش وكنت قد قابلته من قبل في الرياض. كان في ذلك الوقت في زيارة لها يلتمس من ابن سعود التدخل لصالح ابنه وابن أخيه، اللذين ألقيا في غياهب السجن بجدة على يد الملك حسين لا لسبب ظاهري إلا أن صالحاً نفسه كان في ذلك الوقت بالمدينة، حيث ظل بحق يسكن فيها لسنوات عديدة قبل الحرب، بعد أن تزوج سيدة من تلك المدينة والتي لم يكن لها رغبة في ترك مباهج الحياة وأسباب الراحة التي توجد هناك تحت الحكم التركي وتذهب للمنفى، كما يبدو لها، في صحاري الجزيرة العربية. ولم يضيع صالح الوقت سدى، بعدما أدرك المأزق الذي كان فيه ابنه وابن أخيه في العودة إلى عنيزة، ولكن على الرغم من تدخل السلطات البريطانية بجدة، فلم يكن بالإمكان إقناع الملك حسين بالإفراج عن الشابين إلا بعد الهدنة. وبدا صالح على حسب وصفهم في كرب عظيم خلال ذلك الوقت، على الرغم من أن زوجته المدينية قد رافقته، وبأعمالها المنزلية البارعة جعلت مائدة زوجها موضع حسد من ربات البيوت في القصيم[1]. من روائعها التي لا تبارى سنحت لي فرصة تذوقها والحكم عليها في ذلك المساء نفسه عندما أصر صالح على تناولنا العشاء معه. فقد وضعت صينية معدنية مرفوعة في وسط حصيرة كبيرة تحمل كوماً طيباً من الأرز ولحم الضأن المتبل بصورة رائعة بالبهارات الشهية، وحولها نشر عدد غزير من الأطباق الصغيرة من اللحم المفروم والخضروات المحشية التي تتناوب أماكنها مع أطباق من الفاكهة اللذيذة ومنها أفخر أنواع التين والخوخ وأنواع كثيرة من التمور. وجاءت القهوة بعد الطعام، وبعد ذلك رافقت الدكتور عبد الله في زيارة شبه مهنية لأحد أقارب مضيفنا الذي كان طاعناً في السن ويعاني من شلل نصفي، فقد كان جنبه الأيسر مصاباً بالضمور تماماً نتيجة ـ حسب ما قال عبد الله ـ عدوى الزهري

(١) إبداع زوجة صالح الفضل الحجازية التي يصف فيلبي إبداعها في عمل أطعمة جيدة قد لا تكون موجودة في بلدة عنيزة آنذاك، وهذا مما يدل على ثقافة أهل الحجاز المتقدمة في طهي الأطعمة والأشربة، وكذلك اللباس والزينة وربما تأثيث المنازل. وهذا ناتج من الخليط السكاني الذي تعيشه بلاد الحجاز منذ عهود قديمة جداً. للمزيد. دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص ١٥ وما بعدها (ابن جريس).

(السفلس) منذ زمن طويل خلال زيارة للبصرة، وهو أحد الحالات النادرة من هذا المرض التي تنمو إلى علمي خلال السنة التي قضيتها في نجد[١].

ولقد كان من حظي أن أبقى حراً بصورة كافية خلال النهار لأرى شيئاً من الواحة العظيمة، التي تمكنت أن أسير حولها دورة كاملة. إنها تقع في حوض رملي كبير يحده من الشرق جرف الصفراء، ومن الجهات الأخرى شبه دائرة من النفود الواسعة، التي تبدأ بقمم عيادة الشاهقة قرب خشم وداي في الجنوب ومروراً بالدليمية[٢]، وهي قمة مماثلة في وسط جبال عالية، إلى الغرب من الواحة، حيث تنخفض تدريجياً إلى مستوى أقل حتى تصل إلى القمم الرملية الشاهقة إلى الشمال من المدينة. وفي الجهة الجنوبية تتلقى الواحة المياه من قناة شعيب وداي، التي تدخل المنخفض بين النفود والجرف تحت رأس مرتفعة تعرف باسم خشم وداي ويبدو أن هذا هو الرافد الوحيد للحوض، يضاف إلى ذلك قدر عظيم من مياه الأمطار الذي يأتي من المنحدر الحاد للهضبة، الذي ليس لانحداره الغربي من قمة الصفراء مدى كبير. وإلى الشمال من أرض وداي المرتفعة يبرز نتوءان جبليان آخران قليلاً عن خط الهضبة ويدخلان في الحوض[٣]، وهما على وجه التحديد خشم السلوم وخشم رفاع، وعلى كل واحد منهما يقوم برج حراسة دائري من بناء صلب، مشيدان من الحجارة والأسمنت. ولا توجد بهما فتحات سوى نافذة واحدة ضيقة تحت مستوى السقف مباشرة، يمكن الوصول إليها بصورة عادية في حالة الحاجة إلى ذلك بحبل وخطاف حديد[٤]. والأخير يرتفع في نقطة مقابلة لمركز الواحة حيث يتحكم عليها برؤية

(١) لمزيد من الإيضاح عن الحياة الصحية في نجد وعموم البلاد السعودية خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: محمد رفعت المحامي، أسد الجزيرة قال لي، ص ١٠٩ - ١١١.

(٢) على بُعد حوالي ربع ميل واحد جنوب الدليمية وفي النفود يقع على التوالي بئر كحلان والنخلة الوحيدة، والقصور وزراعة الحنطة الخاصة بالنقيلية. (فيلبي).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن مدينة عنيزة وتضاريسها، انظر: محمد السلمان، ص ١٩ - ٢٣. (ابن جريس).

(٤) للاطلاع على أنواع الأبنية والتشييد في عنيزة وعموم نجد، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٤٨، ١٩٧ - ٢١٢، النويصر، خصائص التراث العمراني في المملكة، ص ٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

رائعة، وكذلك على المدينة في وسطها. وقد استطعت أن أقوم بمسح المدينة أيضاً من قمة مصابح الرملية الشاهقة الواقعة وراء طرفها الشرقي وقمة دليمة المذكورة آنفاً، في جهة الجنوب الغربي.

تقع الواحة كلها تقريباً داخل سور بيضاوي ارتفاعه اثنا عشر إلى خمسة عشر قدماً، وبه حافة على هيئة سن سمك القرش على طول قمته وذو محيط عظيم. لقد تهدم السور كثيراً نتيجة الإهمال، في أماكن كثيرة مثلما كان في زمن داوتي، وعلى الرغم من أن الأخير قدّر أن الثغرات يمكن ترميمها بسرعة في حالة الحاجة إلى ذلك، إلا أنه فيما بدا لي أن الواحة تستطيع بالكاد أن تقف في وجه هجوم مباغت، والمباغتة هي الصفة التي تتميز بها حرب العرب. ونسب هؤلاء الذين سألتهم عن الموضوع إهمال الأسوار إلى الفترة الطويلة من الأمن في الماضي القريب، على أن هذا التفسير لا يبدو مرضياً تماماً في حالة بلدة لها تجارب على مدى قرن أو أقل من الزمان، الكثير من تقلبات الأقدار مثل عنيزة[1].

خلال الفترة الطويلة من الفوضى التي أعقبت قضاء إبراهيم باشا على القوة الوهابية في عام (١٨١٨) ولم تنته إلا بالجلوس النهائي لفيصل على عرش الرياض منذ حوالي ثلاثة عقود بعد ذلك، تبدو عنيزة أنها تحافظ على ما يشبه الاستقلال تحت حكم تركي غير قابض، وظلت لبعض السنين خاضعة لاحتلال جيش خورشيد باشا، الذي كانت إقامته المؤقتة عند بوابات الواحة طويلة بصورة كافية بكل المقاييس لتبرر بناء ثكنات من الحجر، التي لا تزال أنقاضها وأنقاض قصر من الطين (داخل البوابة مباشرة،) يعرف باسم قصر الخرشت تتناثر في منطقة كبيرة خارج البوابة الشرقية. ثم مرة أخرى خلال عهد فيصل، في حوالي (١٨٦٢م)، تجد

(١) عن تاريخ عنيزة وجميع بلاد القصيم، وما مر عليها من التقلبات السياسية خلال القرون الماضية، انظر: محمد السلمان، الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدولة السعودية الثانية، ص ٢٣ وما بعدها، للمؤلف نفسه، مدينة عنيزة، ص ٣٧ وما بعدها، العثيمين، تاريخ، جـ٢، ص ٧١ وما بعدها. (ابن جريس).

عنيزة نفسها بين نارين خلال بداية الصراعات بين ابن الرشيد والوهابيين التي ذكر بلجريف (Palgrave) بعضاً منها، ولأنها حوصرت لمدة أربعة عشر شهراً بصورة شديدة بقدر ما يمكن تحقيقه بوسائل الحصار العربية[١]، وقد أغلقت أبوابها في وجه ابن الرشيد ولم تجد صعوبة في مقاومة هجماته، فالمدينة كانت تنتج ولا تزال تنتج اليوم جميع أنواع الطعام الذي يحتاجه سكانها داخل دائرة السور. على أن الظروف قد تغيرت بعد ذلك بثلاثين سنة أو أكثر عندما وقعت عنيزة[٢]، مثل باقي القصيم ونجد كلها، تحت الاحتلال من قبل ابن الرشيد إلى أن استرد الحاكم الوهابي الحالي المنطقة كلها في ١٩٠٦.

ولقد كان ابن سعود في هذا الوقت يتحدث دائماً بحماس عن ولاء وإخلاص أهل عنيزة وكبار العائلات فيها له. وأنا بنفسي لم ألاحظ أبداً أقل إشارة إلى أي توتر ناجم عن قيادتهم. وعلينا أن نتذكر ـ بالطبع ـ أن سياسته توفيقية واسترضائية إلى حد بعيد، ولا أحد يعلم أفضل منه متى يستخدم القوة عندما تكون ضرورية في وجه التمرد، بيد أن السر في نجاحه يكمن في حقيقة أنه يستطيع أن يداوي جراح النار والسيف بالسخاء والكرم لأعدائه والتسامح معهم[٣].

---

(١) للاطلاع على الصراعات بين ابن الرشيد وآل سعود في عهد الدولة السعودية الثانية، انظر: أبو علية. تاريخ الدولة السعودية الثانية، ص ٢١٨. (ابن جريس).

(٢) كان يحيى بن سليم هو الأمير في ذلك الوقت ويقال في عنيزة إن الاحتلال الرشيدي للمدينة قد دام فقط من (١٣٠٨ حتى ١٣٢٢ هجرية) (١٨٩٠ - ١٩٠٤م). وعلى كل حال فقد بقيت المدينة تحت السيطرة العامة لابن الرشيد. (فيلبي) لقد أخطأ فيلبي في ذكر يحيى بن سليم أميراً لعنيزة عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)، وإنما كان عبدالله يحيى الصالح اليحيى من آل زهري بن جراح من سبيع، ولاه محمد بن عبدالله بن رشيد أمير نجد حينئذ إمارة عنيزة بعد انتصاره في المليدا عام (١٣٠٨هـ). واستمر عبدالله اليحيى أميراً على عنيزة حتى توفي عام (١٣١٢هـ/١٨٩٤م) فولى ابن رشيد بعده أخاه صالح اليحيى. انظر: محمد السلمان. مدينة عنيزة، ص ٥٧. (ابن جريس).

(٣) سياسة الملك عبدالعزيز في استخدام القوة عندما تكون ضرورية، والتسامح والعفو عن أعدائه عندما يتغلب عليهم من صفاته الرئيسة التي امتاز بها. وفي نجد في التاريخ الإسلامي نماذج كثيرة يتصفون بمثل هذه الصفات الحميدة. (ابن جريس).

إن أهل عنيزة ليسوا بأولئك الذين يستهينون بأي انتهاك لاستقلالهم التقليدي، ولكن عندهم يأتي العمل التجاري دائماً في المقام الأول[١]، ولا يستعصي على فهمهم إدراك مزايا الخضوع لحاكم متسامح على الاستقلال الزائف دائماً تحت رحمة جيران متقاتلين. وهكذا لا يوجد في هذا الوقت ولا منذ ذلك الحين أي مدعاة للشك في ولاء عنيزة ـ التي على أي حال وقعت ـ في السنوات الأخيرة، فريسة للقلق والاضطراب بسبب وجود توتر في العلاقات بين ابن سعود وحكام الكويت قاعدة التموين لتجارة القصيم[٢]. وعلى الرغم من ذلك يمكن بالكاد أن يتوقع من ابن سعود أن يتسامح بسهولة مع الإجراءات التي تؤدي إلى قيام دولة الكويت بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع المتجهة للقصيم، وهي من حقه شرعاً[٣]. وستكون أخباراً سارة لتجار القصيم عندما يتم التفاوض على اتفاقية الجمارك، التي تأخرت طويلاً، والتوقيع عليها واعتمادها، ولن يفعل رجال الدولة البريطانية شراً إذا ما عجلوا بتسوية عادلة لمشكلة شائكة[٤].

ولقد كان ابن سعود حكيماً في جيله، وقد يتساءل المرء ما إذا كان على الإطلاق قد تأثر نفسياً من وقع سياسته التسامحية بالقصيم، وفي الأحساء، واللين الذي أبداه لا يمكن أن يكون مناسباً في مكان آخر دون الإساءة إلى قواعد حكمه الأساسية. لقد ركب منذ ذلك الحين الموجة بمهارة كافية في حائل، وهو الآن على

(١) تعد بلاد القصيم، وبخاصة أهل عنيزة وبريدة من أهم لمناطق التجارية في الجزيرة العربية، انظر: عبدالرحمن الشريف. منطقة عنيزة، ص ٩٠ وما بعدها، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥ وما بعدها، الهويمل، بريدة، ص ١٢٥، محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ٣٣٨. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن العلاقات السياسية بين الكويت ونجد، انظر: السعدون، ١١٠ وما بعدها، خزعل، جـ٢، ص ١٨٦، الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٢٠٩ وما بعدها، الريحاني، نجد وملحقاتها، ص ١٥٦، لوريمر، ص ٥٢٧ – ٥٢٩. (ابن جريس).

(٣) عن أحوال التجارة بين الكويت ونجد في بداية تأسيس الدولة السعودية الحالية، انظر: السعدون، ص ١٨٨ – ١٩٠. (ابن جريس).

(٤) انظر: السعدون، ص ١٨٨ وما بعدها، لوريمر، ص ٥٢٩ وما بعدها. (ابن جريس).

المحك بالاختبار الأشد أهمية وخطورة لحنكته السياسية في الحجاز، حيث انطلق مركبه الشراعي الضعيف من مخبئه في الخلجان الصغيرة بالجزيرة العربية إلى وسط التيارات الخطيرة في بحر الإسلام الهائج.

على أن هذه الأشياء لم تقع بعد، ونذر صعوبات المستقبل تبدو فقط بصورة غامضة مثل نسائم نادرة ومتقطعة تمر فوق السطح الهادئ لمياه الوطن، لا تلحظها تقريباً إلا العيون اليقظة للرجل الجالس خلف الدفة، الذي يرى ولكن لا يرتجف من المخاطر المحدقة بالمغامرة التي شرع فيها. من أجل النجاح لابد أن يكون على ثقة بطاقمه، ولكي يضمن ذلك ويحافظ عليه لابد أن يُعودّهم على المناورات الجريئة، ولا ينبغي لهم أن يهمسوا بعدم فهمها، حتى هزيمتهم النهائية نفسها.

وهكذا كانت تعاملاته في القصيم، التي ينسبها البعض إلى الاضطراب من السخط المحتمل في تلك المنطقة، بيد أن ابن سعود كان ينظر إلى المستقبل البعيد، وكلما سنحت الظروف، يعلّم رعاياه البسطاء بعض الدروس الجوهرية في فن الحكم وإدارة شؤون الدولة[١] ـ وأقلها على الإطلاق كان ـ أنه ما دام الرعايا أحراراً بكل ما تعني الكلمة في توجيه النقد وتقديم المشورة، فليس من شأنهم أن يتولوا مسؤوليات الحكومة بأيديهم. ولقد سنحت الظروف لمثل هذا الشيء مؤخراً. فقد انطلقت جماعة من القصمان[٢] ـ حوالي عشرة منهم ـ في رحلة، وعندما توقفوا لنوم القيلولة، كانوا بكل هدوء يتمتعون بسجائرهم عندما مرّ عليهم ستة من الإخوان وقد

(١) لمزيد من الإيضاح عن عبقرية الملك عبدالعزيز في الإدارة وفنون الحكم، انظر: إيف بيسون، ابن سعود، ص ٨٣ وما بعدها، محمد رفعت المحامي، أسد الجزيرة قال لي ص ٦٠ وما بعدها، درمولين، الملك ابن سعود، ص ٤١ وما بعدها، العقاد، مع عاهل الجزيرة العربية، ص ١٩ وما بعدها، التركي، الملك عبدالعزيز آل سعود: أمة في رجل، ص ٥١ وما بعدها، إبراهيم السماري، الملك عبدالعزيز الشخصية والقيادة، ص ٣١ وما بعدها، الكيلاني، عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر، ٦٥ وما بعدها، الخميس، عناية الملك عبدالعزيز بالعقيدة السلفية ص ١٥ وما بعدها.)ابن جريس).

(٢) القصمان: جمع قصيمي، أي من أهل القصيم (فيلبي + ابن جريس).

غضبوا غضباً شديداً من السلوك الأثيم لأهل القصيم، ونتيجة لذلك فقد أخذ ممثلو المختارين من الله على عاتقهم توبيخهم بقسوة على ارتدادهم عن الطريق القويم إلى طريق الكفار[١]. ومثل هذا التوبيخ المهين لا يتحمله الناس بسهولة، الذين بكل ما لديهم من معرفة وتنوير، يكونون مؤمنين معتصمين بالدين الحق الواحد. والقصمان في نوبة غضبهم الشديد انكبوا على منتقديهم وذبحوهم. وقدّم أقارب الرجال "الشهداء" شكواهم إلى "قيصر"[٢]، الذي ذكرهم بحدة وصرامة أن أقاربهم الموتى كانوا مخطئين بارتكاب خطأ شنيع، وذلك بالتعدي على الامتيازات الملكية في الحكم. وأعيدوا من حيث أتوا دون التعويض النقدي الذي كانوا يطلبونه من الآثمين. وقال لي حمد، وهو دليل من البرّه الذي أخبرني بالقصة أن الوضع كان يمكن أن يكون مختلفاً لو كان المتهمون من مكان آخر غير المنطقة المفضلة[٣]، على أنني حافظت على صمتي، مدركاً بصورة ولكنها أن ابن سعود ربما كان ينظر للحركة الوهابية كوسيلة نحو غاية متصورة بالفعل، ولكنها لم تصغ حتى في أعماق فكره.

هناك ثلاث بوابات رئيسة مؤدية إلى الدخول في الواحة، هي على التوالي في الطرفين الشمالي والجنوبي من السور الدائري وعند النقطة الوسطى تقريباً من الجهة الشرقية. بالإضافة إلى تلك يوجد باب خلفي يؤدي إلى منطقة مغلقة بسياج قريبة من الركن الجنوبي الغربي، حيث يقوم برج حراسة دائري صلب أو ما يسمى سنقر على نتوء من الرمل، بينما تؤدي بوابتان في السور الغربي إلى الخارج للسير

(١) هذا الأسلوب في الدعوة لا يجيزه الإسلام، وإنما يحتاج الداعية إلى الصبر والحلم، ومعالجة الأمور بنوع من الهدوء وعدم العنف. أما معاقبة الآثم أو المذنب فتكون بيد ولي الأمر، والمؤسسات الإدارية المسؤولة عن ذلك (ابن جريس).

(٢) يقصد بكلمة (قيصر) أي الملك عبدالعزيز، وهذا مصطلح خاطئ فلا يطلق إلاّ على حكام الروم ومن شابههم. (ابن جريس).

(٣) ربما الملك عبدالعزيز نظر إلى قتل القصمان للإخوان الذين اعتدوا عليهم نظرة إنصاف وعدل فالقصمان لم يعتدوا على الإخوان، وإنما الذي تجاوز في تطبيق العقاب هم الإخوان أنفسهم دون أن يصبروا ويتريثوا حتى ترسخ مبادئ الدين الإسلامي الصحيح في نفوس الناس. (ابن جريس).

على الطرق المتجهة نحو الخبراء الخط الذي يقطع المنطقة المسورة من البوابة الشمالية حتى تلك الموجودة في الجنوب يقسم الواحة إلى جزأين لهما صفات مختلفة، فالذي في ناحية الغرب والممتد حتى حافة النفود يشكل بقعة كثيفة من بساتين النخيل الرائعة كثيرة العدد، بينما في جهة الشرق تكون الأرض أشد رحابة، وتتناثر فيها بقع النخيل ومساحات شاسعة من حقول الحنطة، وحدائق الخضروات، وحقول البرسيم وما شابهها. وقد امتدت الزراعة أيضاً خارج السور الشرقي[١] على نطاق واسع، بينما في الجنوب توجد بساتين نخيل الجهيمية والخريجية المعزولة، والمطمورة في بقعة من التلال الرملية المنخفضة بين الطرف الجنوبي للواحة والنفود المرتفعة.

يتكون الأول من قصر ومجموعة كثيفة نسبياً من النخيل العالية، بينما الأخير يضم رقعة صغيرة من النخيل مع انتشار طيب لأشجار الفاكهة (التين والخوخ)، ناهيك عن رقع البطيخ والخضروات فيها[٢]. هذه الحديقة تتباهى أيضاً بأفضل ماء شرب في الواحة كلها والوصول إليها سهل؛ لأنها لا تبعد أكثر من ربع ميل خارج البوابة الجنوبية. كانت خيامي قد نصبت في منتصف المسافة بين النقطتين. وهناك حديقة معزولة أخرى تسمى المزيرعة تقع في منخفض رملي شمال الواحة بين الصفراء وقمتي مصبح وحُلبان الرمليتين أعلى نقطتين في أرض عنيزة، ويطلان على منظر واسع في المنطقة المحيطة بهما حتى مسافة بعيدة تصل إلى نخيل وادي الرمة.

وتوجد توسعات أخرى في الزراعة من عهد قريب نسبياً قد تجمعت مع بعضها حول المناطق الشمالية والشمالية الغربية من السور الدائري، وقد شّيدت أسوار

---

(١) أي بستان نخيل الحويطة المصور عند الزاوية الجنوبية الشرقية من الواحة مع رقعة من الزراعة تسمى المغيرة إلى الجنوب منه، وبئر شقيرة إضافة للأرض المزروعة خارج الدروازة الشرقية أي البوابة الشرقية، وبعد هذه، نحو الشمال، توجد بساتين نخيل ورقعة زراعة ثم بئر عويسة عند الزاوية الشمالية الشرقية. (فيلبي). للمزيد من الإيضاح عن الزراعة والزروعات في عنيزة، انظر: محمد السلمان، ص ١٢٣ وما بعدها، العبودي، بلاد القصيم، جـ١، ص ١٠٥، الشريف، منطقة عنيزة، ص ١١٩. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على أنواع النخيل في مدينة عنيزة، انظر: السويداء، ص ٢٤٦، العبودي، جـ١، ص ١٠٥، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

فرعية منخفضة خارج السور الرئيس لتحيط بهذه الإضافات النامية في حالة مناطق النخيل الجديدة، بينما مساحات الخضروات والبطيخ المتمركزة حول الآبار المحفورة حديثاً خارج الواحة تحمى فقط بأسوار من أغصان الشجر أو جريد النخل. ويحتوي الكثير من مناطق التوسع هذه على قصر واحد لسكن العمال، ولكن المجموعة الوحيدة من المباني التي تستحق أن يُطلق عليها لقب قرية خارج السور الرئيس كانت السفيله على بُعد (٢٠٠) ياردة تقريباً خارج البوابة الشمالية.

كما شوهدت من سنقر خشم رافع تبدو مدينة عنيزة أنها تحتل موقعاً وسطاً في الواحة مع ميلها إلى التضخم جهة الجنوب، حيث تقع واحتا ضليعة وأم الحمار. الأولى عبارة عن مجموعة متناثرة من المباني الممتدة طولياً من حافة المدينة في الجهة الجنوبية الشرقية، وتضم تقريباً ألف نسمة من السكان، بينما الأخيرة تتكون من نخيل يقترب من الزاوية الجنوبية الغربية للمدينة. وعلى بعد حوالي ثلاث مئة أو أربع مئة ياردة نحو الشرق تماماً من منطقة المدينة الرئيسة تقع قرية صغيرة تسمى شعيبي، يسكنها مائة نسمة في بقعة مفتوحة من الحقول، بينما توجد قرية كبيرة فيها نحو خمس مئة نسمة، تدعى ملح بالتحديد، وتمتد كضاحية لمسافة ما على طول الطريق الشمالي. وتقع ضبة وهي قرية أصغر من سابقتيها وفيها ثلاث مئة نسمة على بُعد ربع ميل تقريباً خارج المدينة نحو الشمال الشرقي. هذه القرى مع مجموعة ليس لها اسم واضح من المباني خارج البوابة الجنوبية تشكل مع المدينة الرئيسة نفسها ما يمكن أن يعتبر مدينة عنيزة. وعلى مسافة بعيدة منها وخارج البوابة الشمالية على يسار طريق بريدة تقع سفيلة المذكورة آنفاً، بها مئة نسمة، بينما جناة التي ليس فيها أكثر من مئتي نسمة تقبع داخل الحزام الكثيف من النخيل بالقرب من الزاوية الشمالية الغربية من السور الدائري. هذه القرية بكل ما يبدو فيها من نقص الرخاء والازدهار في الوقت الحالي تزعم أنها كانت أصل منشأ عنيزة[1].

(١) عن نشأة مدينة عنيزة وتاريخها، انظر: ياقوت الحموي. معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، جـ٤، ص ١٦٣، محمد العبودي، بلاد القصيم جـ١، ص ٥٢ محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٤١ وما بعدها. Doughty, Travela In Arabia, Vol.2,pp. 420 ff (ابن جريس).

إن سكان واحة عنيزة ـ التي تشمل المدينة الرئيسة ـ والضواحي والقصور المتناثرة، لا يمكن بأي حال أن يقلوا عن خمسة عشر ألف نسمة في هذا الوقت[١]. فقد كانت المدينة الرئيسة مأهولة بالكامل وسكانها يتكدسون. وهناك ما لا يقل عن مئة دكان، قيل إنها كلها في السوق الرئيس والأسواق الفرعية المختلفة. وأهم صفة تميز المدينة هي عدم التناسق، مما يشكل صعوبة شديدة في أن يعرف المرء طريقه أثناء التجول، أو أن يحصل على أي فكرة دقيقة عن طبيعتها الطبوغرافية وتصميمها. والمعلم الوحيد البارز فيها هي المئذنة الطويلة المستدقة الطرف في المسجد الكبير[٢]، كما يوجد على الأقل اثنتا عشرة مئذنة أخرى ذات العمارة المماثلة، ولكنها أقل ارتفاعاً، وتتناثر حول المدينة والضواحي، التي تتصب شامخة في الأفق لترى من كل ناحية. وأخيراً هناك المقبرة الكبرى التي تمتد منفرجة الساقين على الطريق الشمالي الرئيس وراء ضاحية الملح، وتشغل مساحة واسعة. وفي أجزائها القديمة كانت حجارة شواهد القبور أكبر بشكل ملحوظ عما هو معتاد في ظل الشروط الوهابية، ألواح من الصخر الرملي غير المصقولة ومستطيلة الشكل، ارتفاع الواحد منها قدمان أو قدمان ونصف. بينما يظهر في القبور الأحدث ميلاً إلى الالتزام بمعتقدات المذهب الجديد[٣]، في هذه الحالة كانت حجارة الشواهد مصنوعة من نفس المواد، ولا يزيد ارتفاعها عن قدم واحد.

---

(١) هناك بعض المصادر تشير إلى عدد سكان عنيزة من أوائل القرن الثالث عشر الهجري، فيذكر أن عددهم في عام (١٢٣٢هـ/١٨١٧م) يقدرون بـ (٨٠٠٠) ألف نسمة، وفي عام (١٢٨٢هـ/١٨٧٥م) قدرهم الرحالة الأوربي داوتي بـ (١٥٠٠٠ ألف نسمة. وفي عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) يقدرهم لوريمر في كتابه دليل الخليج بأنهم يتراوحون من (١٠ – ١٥) ألف نسمة، وفي عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م) يقدرهم أمين الريحاني بـ (٣٠,٠٠٠) ألف نسمة، وفي عام ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) قدرتهم مصلحة الإحصاء العامة في المملكة بـ (٢٣,٤٥٥) ألف نسمة. للمزيد انظر منير العجلان، ص ٩١، أمين الريحاني، ملوك العرب، ص ٦٠٧، عبدالرحمن الشريف، منطقة عنيزة، ص١٨٣، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٢١٤ – ٢١٥، Doughty, Vol, 2.pp.386 (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن المسجد الجامع الكبير في عنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٢٠١ – ٢٠٢. (ابن جريس).

(٣) دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانت تسعى إلى ترسيخ مفاهيم الإسلام الصحيحة، ومحاربة البدع والخرافات وما يتعارض مع الكتاب والسنة. (ابن جريس).

٣ـ الطريق إلى بريدة[١]

لم يمكث ابن سعود سوى ليلة واحدة في عنيزة، وانطلق منها إلى بريدة في الصباح الباكر من اليوم الثاني، على أنه بكل لطف اقترح أنني ربما أفضل البقاء يوماً أو يومين لأرى شيئاً من المكان والمجتمع الذي سمعت عنه كثيراً. وبكل سرور استفدت مما سمح لي به، ولم يأت صباح السادس والعشرين من أغسطس ـ بعد أن أمضيت يومين كاملين في الجو الاجتماعي البهيج بعنيزة ـ إلا وكنت مرة أخرى في الهودج لألحق بالعاهل الوهابي. تقع بريدة على مسافة خمسة عشر ميلاً تقريباً نحو الشمال تماماً من شقيقتها مدينة عنيزة. والمنطقة الفاصلة بينهما تتكون من بقعة من التلال الرملية المنخفضة المتحركة من نوع النفود الحقيقية، والتي يشق عبرها وادي الرمة المهم طريقه، بعدما يرتفع في قفر الحمم البركانية بجبال خيبر لمسافة أربعة أميال تقريباً. وبينما هو يكافح بحثاً عن ممر له ويجد نفسه في النهاية مسدوداً بحاجز الدهناء الرملي العظيم.

إن الحزام الأوسط من منطقة القصيم يدين بالفضل في شهرته الزراعية بصورة رئيسة إلى حقيقة أن فيضانات الوادي تسير كل هذه المسافة خلال سنوات الأمطار الغزيرة، على أنه لم يُعرف عنها حسبما تمتد إليه ذاكرة الأحياء أنها قد تجاوزت أكثر من ذلك نحو الشرق. وفي الوادي نفسه يكون مستوى الماء تحت التربة قريباً دائماً من السطح، على الرغم من أن عمق الآبار يكون كبير نسبياً في كل من عنيزة وبريدة[٢].

إن الطريق الرئيس إلى بريدة يخرج من عنيزة ببوابتها الشمالية. وهناك مجال

---

(١) للاطلاع على معلومات أكثر من مدينة بريدة انظر: الربيدي، بريدة، جزءان، الهويمل، بريدة، ص ١٩ وما بعدها، العبودي، بلاد القصيم جـ١ ص ٢٩ (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن مصادر المياه في بلاد القصيم، انظر: عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٤ وما بعدها، الهويمل، بريدة، ص ١٢٩ - ١٤٠، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٢٧ - ٢٨، ١٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

كاف للتنويع الذي يكسر حدة الملل في السفر بين هاتين المدينتين[١]. وفي الحقيقة لم يكن هو الطريق الرئيسي الذي اخترناه في رحلتي الأولى. وكما كنا نصبنا خيامنا في الطرف الجنوبي الغربي من الواحة، فقد سرنا على طول طريق الملقى الذي يطوف حول الحافة الغربية من بساتين النخيل، ويقاطعه في مرحلة مبكرة الطريق الرئيس إلى الرس[٢]. والطريق الأخير يبدأ من بقعة من الأثل عند نهاية الواحة ويمتد نحو الغرب فوق التلال المنخفضة لنفود الشقيقة، بينما كان دربنا نحو الشمال الغربي تقريباً. كانت الكتل الرملية المرتفعة جرداء تماماً وتحت رحمة الرياح، بيد أن الأجزاء المنخفضة منها مكسوة بصورة طيبة بشجيرات الرمض والأضر، وأحد هذين النوعين ربما يكون هو عشب الورد البري، الذي أشار إليه داوتي على أنه طعام مؤذٍ للإبل، وهو ربما يكون النوع الأول، على الرغم من أنه في الحقيقة تأكله إبل بريدة. ولقد قال مترك ـ الذي كان معي وهو من وجهة النظر البدوية ـ مرجع معترف به في المعرفة بالإبل ومسائلها: إن الأظير لا تأكله أبداً إبل الرعي إلا في الدهناء[٣]، حيث لا تكون البراعم الغضة من فصل الربيع مكروهة. أما بالنسبة الرمض فهو يؤكل قليلاً كجزء منتظم من طعام الإبل. وعند وصولي إلى عنيزة قمت بجمع كمية من هذا النبات من البقعة المجاورة القريبة ذات الأعشاب المزدهرة لأطعم ذلولي[٤]، التي لم يكن علفها المعتاد قد وصل بعد. ولقد وبخني مترك على عملي المتهور بحجة أن الرمض عندما يكون ناضجاً وكبيراً فإنه يؤذي الأجهزة الداخلية للإبل، ولكنني حتى

(١) هناك طرق عديدة تربط بين بريدة وعنيزة ومن أجزاء عديدة في الجزيرة العربية، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٧، سيد عبدالحميد بكر، ص ١٨ وما بعدها، الغنايم، المذنب، ص ١٣٢ وما بعدها. (ابن جريس) Sadlier, pp.87 - 88

(٢) الرس: تأتي المدينة الثالثة في القصيم بعد عنيزة وبريدة للمزيد عن موقعها وتاريخها، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان جـ٣، ص ٤٣ – ٤٤، عبدالله الرشيد، الرس، ص ١٦ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) لمزيد من المعلومات عن الإبل، أنواعها، فوائدها، انظر: جواد علي المفصل، جـ٥، ص ٣٣٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٤) الذلول: هو الحيوان الذي يستخدم للركوب، وبخاصة من الإبل (ابن جريس).

الآن لم أستطع أن ألاحظ أن ذلولي قد عانت من أي اضطرابات، وعلى الرغم من أنها قد أكلت منه بنهم إلى أن شبعت من ملوحته.

على مسافة بعيدة نحو الشرق ظهر تل ساق الوحيد شامخاً فوق قفر الرمل، وبعد أن قطعنا نحو ميل ونصف بدا نخيل الملقى أمامنا. وعندما سرنا ميلاً آخر وصلنا إلى بقعة من الأطلال، بعض القصور من العصور السابقة التي سويت الآن بالأرض، وهي تعرف باسم العمارة ولم يستطع رجل يدعى صالحاً ـ الذي كنت قد اخترته ليعمل دليلاً قبل أن ننطلق في الرحلة والذي ركب على وسادة من ورائي[١] ـ أن يلقي إلا قليلاً من الضوء على تاريخ هذه الآثار، التي عثرت بينها على عدد من كسر الفخار وشظايا الأسمنت الجبسي. وطبقاً لما قاله فقد ازدهرت العمارة قبل أن تنشأ عنيزة، ويمكن أن تُنسب إلى فترة بني هلال الغامضة التي تحيل إليها الذاكرة الشعبية جميع الأطلال التي لا يوجد عنها فهم دقيق[٢].

تقع القرية على حافة منخفض واد قصير يعرف باسم شعيب الملقى الذي يبدأ عند ربع ميل نحو الغرب من هذه النقطة، ويجري نازلاً بين جبال رملية باتجاه الشمال الشرقي، ويدخل في وادي الرمة. وتوجد على بُعد نصف ميل عكس اتجاه التيار بئر واحدة ورقعة صغيرة من الزراعة تسمى قليب منصور، حيث يقال: إن عمق الماء يبلغ خمس قامات. وبعدها عند رأس المنخفض تقع وحلان (وهلان) وهي أرض واسعة من أشجار الأثل فيها بئر واحدة في وسطها. وتقع ملقة نفسها قريباً منا نحو الشرق ووصلناها بعد ذلك بدقائق قليلة. في البداية توجد أرض مزروعة مساحتها مئتا ياردة مربعة تقريباً، مقسمة إلى حقول من بقايا جذور القمح والدخن النامي ومزينة بالكثير من أشجار الأثل. ومن ورائها يقع بستان نخيل مستطيل، مساحته

(١) المقصود بذلك (رديف). (فيلبي).

(٢) للمزيد عن قبائل بني هلال في الجزيرة العربية انظر: الظاهري، بنو هلال، ص ١٨ وما بعدها. (ابن جريس).

حـوالي (٢٠٠ × ١٠٠) ياردة، به عـدة مـبـان مـثل: الأبراج فـي طرفـه الغـربـي. وهـذا بستـان يخص عـائلة البسـام، وهـو قـد بدا مـهـجـوراً بشكل أو بـآخـر، وأشـجـار النخـيل تحمل القليل من التمور. والمباني والنخيل محاطة بسور متهدم فيه حافة على شكل سن سمك القرش، وهي كلها مع بعضها تثير ذكرى حزينة لبعض أيام إقامة داوتي المؤقتة في الجزيرة العربية؛ لأنه قد طرد إلى هذه البقعة من أجل المحافظة على سلامته الشخصية بسبب التذمر من وجوده عقب انتشار وباء الجدري[١].

هناك جبل منخفض من الرمل يعزل الملقى عن قصر القويع[٢] الوحيد، الذي يقوم وسط بستان الأثل بجوار رقعة من مزروعة بطيخاً وخضروات، التي تمتد نحو ربع ميل على طول الحافة الرملية للشعيب. ويوجد بستان صغير وغير مزدهر فيه ثلاثون نخلة على مسافة قصيرة نحو الشمال، إضافة إلى بعض حقول فيها بقايا جذور القمح الذي تم حصاده. وتكتمل قصة هذا المكان بذكر حوالي أربع أو ثلاث آبار بها ماء على عمق أربع قامات تقريباً.

كنا نقترب الآن سريعاً من ملتقى منخفض ملقى مع وادي الرمة، الذي يبدو من هذه النقطة أنه واحة ضخمة من النخيل المكتظ، يعطي منظراً رائعاً لكنه مخادع؛ لأن فحصه عن كثب قد أظهر البؤس والقذارة والإهمال في العديد من البساتين التي يضمها الوادي، كما تسمى هذه المنطقة كلها. يوجد فم شعيب ملقى على بُعد نصف ميل على الجانب الآخر، ويقابله على امتداد عرضه كله تقريباً بستان نخيل العيارية، وهو قرية تتكون من قصر واحد، وأربع أو خمس آبار بعمق أربع قامات تقريباً، والنخل وحقل كبير من الدخن النامي بصورة طيبة. وهناك شاب يقف بحراسته من الطيور بطرقعة شيء يشبه السوط على فترات متقطعة[٣].

---

(١) لمزيد من المعلومات عن رحلة داوتي في بلاد القصيم انظر: كتابه: The Travels In Arabia Vol.2.pp.320 (ابن جريس).

(٢) تتطق الجويع. (فيلبي).

(٣) هذه الأدوات تكاد تكون منتشرة في عموم الجزيرة العربية، وتستخدم بواسطة حارس الزروع من الطيور والقرود وما شابهها، وقد يطلق عليها بعض المصطلحات المحلية مثل: مطراق، مصقاع وغيرها. (ابن جريس).

في هذه النقطة يجري وادي الرمة[١] نحو الغرب والشرق تقريباً، ويبدو أنه لا يزيد على نصف ميل في العرض. وتقع مزرعة نخيل تسمى أثامر على طول جانبنا الأيمن عندما كنا نمشي الآن صاعدين في الوادي فوق أرض من الطفل الرملي الذي تتخلله ذرات الملح البيضاء. هنا وهناك، في أثناء سيرنا، لاحظت مزرعة جديدة من النخل. كان سطح أرض السبخة المالح قد حُفر إلى عمق حوالي ثلاثة أقدام، وفوهات الحفر قد نزلت تحت السطح لقدمين أو ثلاثة أقدام إضافية مخترقة الطبقة السفلى ذات المظهر الجبسي إلى أن يستخرج الماء المالح قليلاً من تحت التربة. بعد ذلك نجد شجيرات النخل الصغيرة قد زرعت في خليط من الماء المالح والطين في قاع الحفرة، وهناك تضرب جذورها وتنمو مزدهرة على ما يبدو إلى أن يبلغ ـ النخل ذو المنظر البائس ـ سن الإنتاج.

في الطرف الغربي من نخيل أثامر ـ وهي جذوع بائسة قذرة متناثرة وضئيلة الحجم، وفيها سبائط صغيرة من التمر يحميها سور متهدم هنا وهناك، وجدت بئراً مالحة محفورة حتى عمق أربع قامات، ولكن دون أي تبطين. وعلى بعد ميل تقريباً نحو الغرب تظهر مزرعة قصير بن جبر الصغيرة مع البقعة المحيطة بها من زراعة الخضروات والقمح، التي بعدها اختفى مسار الوادي؛ لأنه ينثني منحنياً إلى الجنوب الغربي.

انتهينا الآن من واحة الوادي كلها ـ كما تسمى ـ باتجاه مجرى التيار هنا، واستدرنا نحو الشرق لنزور بعضاً من الأجزاء المكونة لها. وعلى يسارنا تقع التلال المنخفضة لمنطقة بريدة، التي كان حدها الجنوبي هو الضفة اليسرى للوادي. وواحة الوادي تعد جزءاً من منطقة عنيزة، التي كانت كتلها الرملية، نفود الشقيقة تحيط

(١) للمزيد عن وادي الرمة وفروعه، انظر:- عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، ص ٨٧ - ٨٨. (ابن جريس).

بالضفة اليمنى. ولقد امتد مسارنا على طول قناة مجرى مياه غير منتظم أقرب نسبياً إلى الضفة اليسرى أكثر منه لليمنى، وسرعان ما وصلنا بعد أن غادرنا بستان أثامر إلى بستان نزيعة، وهو مزرعة متناثرة فيها أعداد كثيرة من النخيل عند طرفها الشرقي. بعد ذلك مباشرة اتسع الوادي لنحو ميل، وقطعناه عبر ثنية شمالية شرقية منه عائدين إلى الضفة اليمنى، حيث بعد أن مررنا بين مزارع أشد كثافة من تلك التي قابلناها حتى الآن، توقفنا عند قرية الجناح الصغيرة،[1] وهي قرية مأهولة بالكامل تقريباً بالعبيد المزارعين. وسكانها قد يكونون مئتين وخمسين نسمة من العبيد المملوكين لأهل عنيزة، التي يحتفظ مواطنوها الأحرار بجميع حقوق الملكية في مزارع الوادي. هنا مررنا عبر منطقة واسعة من مزارع الخضروات، ودخلنا في بقعة نخيل المسخ المتناثرة على طول الضفة اليمنى للوادي. وبين هذه المزرعة ولسان طويل من النخيل الذي يشكل الطرف الشرقي لنزيعة كان الوادي خالياً من المزروعات.

بعدما عدنا عبر هذه المساحة المفتوحة إلى الضفة اليسرى جئنا إلى بستان نخيل كثيف نسبياً، طوله أربعمئة ياردة وعرضه مائتان، يُعرف باسم عين مبرك على الرغم من أنه لا يتمتع بعين ماء كما يوحي اسمه. وعلى كل حال، فقد أتينا فعلاً، غير بعيد منه، على عين ماء بلا اسم يبدو من الواضح أنها لم تكتشف إلا حديثاً، وبجوارها ينتصب كوخ صغير وسط قليل من النخيل وأحواض مزروعة بالخضروات. هذه العين تتكون من بئر محفورة على شكل مربع، طول ضلعها ثلاثة أقدام، وعمقها نحو أربعة أقدام تحت سطح الوادي. وكانت النبع مملوءة تقريباً حتى حافته بماء قذر مع زبد من الطين الأخضر الذي اصفر قليلاً. وهناك قناة في طور الحفر قد وصلت الآن تقريباً إلى أعلى البئر، ومن ثم سيتدفق الماء فيها حتى تمتلئ

(١) قرية الجناح: نسبة إلى الجناح الذين هم بطن من بني خالد، وهم أول من سكن عنيزة، وبهم سمي هذا المكان (الجناح). للمزيد انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٤٩ - ٥٠. (ابن جريس).

عن آخرها، بيد أن ساكن الكوخ قال إنه ـ قبل بذل أي محاولة للري ـ يجب تحديد مكان الرأس الحقيقي للعين[١]، الذي يعتقد أنه ليس في البئر المذكورة آنفاً، وإنما على بعد مائتي ياردة عند حافة النفود. إنه لمن الضروري فتح العين الحقيقية لضمان تدفق قوي للماء.

ولقد استأنفنا سيرنا نازلين في الوادي باتجاه شمال شرق، ومررنا على بئر واحدة وكوخ قريب من الضفة اليمنى، ثم أتينا بعد ذلك على بستان نخيل يسمى الثيلة قرب الضفة المقابلة، حيث يوجد برج طيني عند حافته. وبعده مباشرة زرنا عين السحيباني وهي مثال رائع على العمل في الزراعة المحلية تحت ظروف مواتية. وكان هناك حوض مستطيل، أبعاده (٢٦×٤×٢) قدم، وهو مليء بالماء الصافي، الذي يميل لونه إلى الأخضر قليلاً، والذي يمكن أن يُرى وهو ينفجر متدفقاً خلال فتحتين دقيقتين في الأرض. ولم تُبذل أي محاولة لتبطين جوانبها بالبناء، على أن حافتها كانت مقواة من جميع جهاتها الدائرية بخشب الأثل. ومن خلاله فتحة في الجهة الشمالية منه كان تيار بطيء من الماء يتدفق في قناة كارز (Kariz) مبنية بشكل جيد. وقد بنيت جوانب وقاع هذه القناة الأخيرة بالحجر، ثم جرى سقفها بألواح صخرية ذات حجم كبير بفواصل منتظمة ويبلغ عرضها حوالي قدم.

وكان الحوض نفسه يقع عند رأس خندق عريض محفور حتى عمق خمسة أقدام تحت سطح الأرض، وقناة الكارز (Kariz) تمتد في منتصف هذا الخندق، وكانت ترتفع نحو ثلاثة أقدام تقريباً فوق قمة مستوى الحوض. وكانت المسافات بين قناة الكارز (Kariz) المرتفعة وضفاف الخندق على كلا الجانبين مملوءة بتربة طينية فيها أشجار النخيل، الذي يبلغ الآن حوالي عشر سنين، على فواصل منتظمة، وكانت

(١) طريقة تحديد مياه الآبار والعيون في باطن الأرض تحتاج إلى خبراء يعرفون موقع الماء في باطن الأرض، وقد يطلق عليهم بعض الأسماء مثل الشماسين، السماعين، وغيرها من المصطلحات. (ابن جريس).

شديدة الازدهار، والنمو حتى إن أعاليها الآن أطول بنحو قدمين عن قمة الخندق. وفي الفجوات بين أشجار النخيل ينمو البطيخ واليقطين. والماء، على الرغم من صفائه إلا أنه كان مالحاً وغير مستساغ الطعم تماماً، وهو على عمق بوصات قليلة فقط في القناة ويتدفق ببطء شديد، حتى إن حركته لا تكاد تُرى. وفي النهاية يصل إلى نخيل الثيلة حيث يروي جزءاً منه.

وفي أثناء انشغالنا بفحص العين فقد جذبنا انتباه مجموعة من النساء كن يجلسن في كوخ قريب منا، يرتدين ثياباً قرمزية فضفاضة، بهتت ألوانها البراقة بفعل الطين، ويغطين وجوههن بقماش قطني رفيع مثل نساء العارض، وخرجن، ووقفن على مسافة آمنة، وسألن بصوت عال عن هدفنا من فحص العين. ولقد رد مترك بطريقة ساخرة أن غرضنا كان شراء العين إذا راقت لنا. يبدو أن اللون القرمزي هو اللون المفضل للنساء في هذه الأصقاع على الرغم من أنني لاحظت هنا وهناك الثياب الفضفاضة السوداء في الجنوب، والأكثر ندرة الثياب ذات اللون المائل إلى الزرقة. إن الطبقات الأفضل حالاً في القصيم ـ كما قال دكتور عبدالله ـ تفضل بصورة عامة الثياب السوداء الهادئة أو ذات اللون الأزرق الداكن.

وعلى بعد مائتي ياردة نحو الشرق من عين السحيباني توجد عين أخرى، وهي عين الجنيني مماثلة للأولى تماماً من جميع النواحي، إلا أن حوضها أكبر بكثير، إذ يبلغ طوله خمسة عشر قدماً، وعرضه خمسة أقدام وعمقه ثلاثة. وماؤها أيضاً أشد صفاءً وخالٍ من الزبد المعتاد، ولنحو مائتي ياردة، كانت القناة المؤدية من العين جرداء من النخل. عند تلك النقطة يبدأ النخيل ويستمر الجدول في التدفق ليسقي بستان الجراية الذي يعد امتداداً شرقياً لمزرعة الثيلة، ويحتضن حافة النفود. وكان بناء قناة الكارز (Kariz) هذه يبدو أيضاً أقوى وأشد صلابة من الأخرى، ولا يزيد أي من القناتين كثيراً عن ربع ميل في الطول.

بالقرب من هنا على جهة الشمال الشرقي تقع عين أو بالأحرى بئر عين ابن سحيم، وهي قنطرة حجرية ممتازة تنزل إلى مستوى الماء على عمق ثلاث قامات، وأبعادها (١٥×٣×٦) قدم، وماؤها أخضر قليلاً، ويميل إلى الاصفرار، ومغطى تماماً بالطين المقرف. ومن تحته ينز الماء ببطء في جدول ضيق مفتوح مغطى بالكامل تماماً بالنخيل الذي يبلغ عمره من خمسة عشر إلى عشرين عاماً، حتى إن الجدول نفسه كان مختفياً عن النظر، وتنتهي تلقائياً عند امتداد لشرائط النخيل المذكورة آنفاً التي تعرف باسم المليحة. وحول البئر يوجد قليل من الأكواخ البائسة، بينما عن يميننا بعد فضاء مفتوح وفي وسط الوادي تقع بساتين نخيل مزدهرة تعرف باسم ثلث أبو علي، ومعها قرية صغيرة بالاسم نفسه يقطنها نحو ثلاث مئة من الزنوج[١].

وصلنا الطرف الشمالي الشرقي من هذه المزرعة في الوقت المناسب بعد تجاوزنا قناة مهجورة وحوض عين ابن سليمان "الميتة". كان قطر هذه الحفرة نحو خمسة عشر قدماً، بيد أن ماءها الراكد يقع على عمق ثلاث قامات أسفل بكثير الفتحة التي دخلت من خلالها سابقاً القناة. وعلى مقربة منها يوجد كوخان صغيران وبستان من النخيل المتناثر. وكانت مزرعة أبو علي الواقعة على الطريق الرئيس من عنيزة إلى بريدة من أكثر المزارع كثافة وازدهاراً في كل أرجاء الوادي، ومن بينها أيضاً كانت الأبعد باتجاه مجرى التيار، مع استثناء رقعة صغيرة فقط من النخيل المتناثر تسمى العدين في وسط الوادي نحو الشرق من الطريق الرئيس ومزرعة الجسر، وهي آخر البساتين وأبعدها في الامتداد الشرقي لبساتين حافة النفود المذكورة آنفاً[٢].

---

(١) جلب الزنوج إلى هذه المنطقة وغيرها من مناطق الجزيرة العربية لأجل القيام بالخدمة في المزارع ومنازل الأعيان والوجهاء في المجتمع. وكانوا يتواجدون بكثرة في عموم بلاد الجزيرة حتى ثم القضاء على ظاهرة الرق في القرن الهجري الماضي. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن الحياة الزراعية في كل من عنيزة وبريدة، انظر: محمد السلمان مدينة عنيزة، ص ١٢٣ - ١٤٥، عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٣٣، ٢٤٦، عبدالرحمن الشريف، منطقة عنيزة، ص ١١٩، الهويمل، بريدة، ص ١٢٩ - ١٤٠، المعارك، بريدة، ص ٨٨ - ٩٧، محمد الربدي، بريدة جـ٢، ص ٢٧١ - ٢٧٦. (ابن جريس).

إن الطريق الرئيس بعد أن يمر قريباً من قرية أبو علي يخترق الوادي ويمر خلال وسط منطقة الجسر، التي أخذت اسمها من نفق وبناء متهدم ومن فوقه يمر طريق قناة الفيضان الرئيسة في الوادي. هذه القناة تظل محاذية للضفة اليسرى عبر منطقة الواحة كلها، وهي عريضة نسبياً، وربما هي القناة وليس للوادي التي قد أشار داوتي إلى أنها على بُعد مرمى حجر من الطريق.

بدا أن وادي الرمة في هذه الأنحاء لا يقل أبداً عن ربع ميل في العرض، وهنا وهناك من المؤكد أن عرضه يصل إلى ميل. ربما لم يدرك داوتي أن المنخفض كله بين بقعتي النفود قد شكل وادي «النهر»، الذي اكتشف هو بنفسه منبعه بعيداً في جهة الغرب[1]. على كل حال فقد وجدت أنه من الصعب نسبياً أن أقبل بأية درجة من درجات التأكد وأرضي نفسي فيما يتعلق بالطريق الدقيق الذي سلكه داوتي عبر وادي الرمة.

إن الوشل الناز بالماء الذي وجده يتدفق تحت قدميه قد يكون قناة عين ابن سحيم أو قناة عين ابن سليمان، وهما اللتين لم يعودا مستخدمتين الآن. وبعد ذلك ربما يكون عبر إما إلى أبو علي وإما إلى الجناح، ولا أستطيع أن أحدد بالتأكيد أيهما. ومن المحتمل بالطبع أن التفاصيل الطوبوغرافية للوادي قد تبدلت إلى حد ما عما كان في عصره بسبب الزراعة. وهناك اثنتان من القنوات التي ذكرتها لم يكونا بالتأكيد موجودتين على عهده، إن حياة وموت العيون في هذه المنطقة الرملية لابد أن يلعب دوراً مستمراً في تشكيل أنشطة المزارع المحلي.

إن الجسر ـ المنفرجة الساقين عند مخرج الطريق الرئيس ـ تمتد نحو ميل على طول مسار قناة الفيضان، ويمكن دخولها من جهة الغرب من مساحة مفتوحة تكثر فيها قنوات الجداول المائية العديدة، بعضها لا يزال يتدفق، ولكن معظمها قد مات

(١) للمزيد عن رحلة داوتي في بلاد القصيم، انظر كتابه: Travels In Arabia, Vol.2.pp.320 ff.

منذ زمن طويل. والأكوام العالية من الطمي المستخرج من هذه القنوات في محاولة مملة للإبقاء عليها حية تدل على مسارها من العيون التي وهبتها أو تهبها الحياة. ويوجد ـ حسب اعتقادي ـ خمس منها. الأولى والثانية هما الأبعد غرباً، ويُعرفان معاً باسم السناني، ويقعان على بُعد خمسين ياردة تقريباً عن بعضهما، ويحتويان على ماء صاف حتى عمق قدمين في قاع حُفر لآبار مستطيلة عمقها أربع قامات، وامتدادها السطحي (٢٠×١٠ أقدام) قدم. يتدفق من كلٍ منهما تيار بطيء من الماء في قناة، والقناتان تلتقيان عند مسافة غير بعيدة ليسقيا القسم الموجود عكس اتجاه التيار من بساتين الجسر. وبقدر ما استطعت أن أتأكد فإن واحدة من هاتين القناتين إذا لم تكن ميتة فعلاً فقد كانت من الناحية العملية تحتضر وتساهم بقليل من الماء ـ إذا ساهمت أصلاً ـ في الجدول المشترك. وعلى بُعد حوالي مائة ياردة بعدهما نحو الشرق يقع زوج آخر من أحواض العيون، هما أم الجربوب والتي كان أحدهما ميتاً بالتأكيد، وتلتقي قناتهما عند نقطة على بُعد حوالي عشرين ياردة من أقصى قناة شرقية ليشكلاً مجرىً واحداً. وهنا مرة أخرى توجد العيون في حُفر آبار غير مبطنة من النوع المذكور آنفاً، على الرغم من أنه يجبُ عليّ أن أذكر علاوة على ذلك أن كل هذه الحُفر الأربع كانت مكسوة بطبقة رقيقة من البناء حول أجزائها العليا. وآخر هذه العيون الخمس ـ والمحاذية للطريق الرئيس، هي عين الجسر، وهي مجرى بئر ضيقة تهبط حتى مستوى الماء، الذي يتدفق في قناة من أنابيب تحت الطريق لتسقي القسم الشرقي أو الأسفل من البساتين القريبة من حوض الشعيب.

والآن كنا قد «انتهينا» بإتقان وجهد من واحة الوادي، وقد بلغ التعب منا مبلغاً. ويوجد فيه قليل من المبررات لا تكفي لإثبات المديح والثناء الكثير الذي يكيله مواطنو عنيزة الأغنياء على مزارعهم الخارجية، ولم أستطع أن أعثر على مبرر مقنع في البقع البائسة المتناثرة من الواحة يوحي بأن الوادي كان أكثر ثراءً وغنىً بالنخيل من

البساتين الكثيفة في المدينة[١]. إن محصول أحدهما لا يمكن على الأرجح أن يُقارن بمحصول الآخر، حتى لو كان صحيحاً وأشك في ذلك ـ أن عدد النخيل كان أكثر. وفوق هذا وذاك، فإن تربة الوادي من نوع رديء ومليئة بالملح. على أننا ـ على كل حال ـ كنا مُجهدين، وبكل سرور انتهزنا الفرصة للتوقف مدة في صحبة مجموعة صغيرة من الزنوج المنهمكين في إخراج الطمي من آخر قناة على دربنا.

بكل جود وكرم عرضوا علينا مشاركتهم في التمر الطازج الرديء، والقهوة اللذين يشكلان غداءهم، وبكل ترحيب وسرور قبلنا ضيافتهم المتواضعة. وفي أثناء استضافتهم لنا تحدثوا عن الظروف في الوادي. لا شيء مما رأيته، فلم يكن الشعيب إلا منخفضاً ضحلاً لا يزيد عرضه على أربعين ياردة، يوحي بانسياب فيضانات عظيمة على فترات غير متباعدة في الوادي العظيم. ومع ذلك لا يمكن الاستهانة بالكلام المحلي عن تكرار مثل هذه الفيضانات بكل خفة، حتى لو كان من الضروري أن نحسب حساب المبالغات التي تكون طبيعية بصورة كافية في قوم يعني الماء لهم الحياة، والذين يفرحون فرحاً عظيماً عندما يأتيهم.

إن وادي الرمة يختلف بالتأكيد عن نظيره الكبير في الجنوب، وادي الدواسر،[٢] فيما يتعلق بحجم مرور الفيضانات الحقيقية وفي المستوى العالي للرطوبة تحت التربة. وكلاهما يتشابهان في أنهما تحدهما التلال الرملية المنخفضة على كلا الجانبين، بيد أن الرمال الجنوبية بيضاء بينما رمال القصيم حمراء قليلاً وقرنفلية[٣]. وبعد عبور الطريق تتغير الضفة اليمنى للوادي من رمل النفود إلى

(١) تعد بلاد القصيم من أحسن المناطق في المملكة العربية السعودية بإنتاج التمور وأنواع كثيرة من الخضراوات والفواكه. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على معلومات أكثر عن وادي بني الرمة والدواسر، انظر: عبدالرحمن الشريف، جغرافية المملكة، جـ١، ص ٨٧ - ٩٠. (ابن جريس).

(٣) فيلبي جدير بذكر مقارنة بين نواحي الجزيرة العربية في عصره، لأنه زار معظمها قبل وبعد رحلته هذه. للمزيد عن حياته ونشاطاته، انظر: روبن بدول، الرحالة الغربيون، ص ٩٠ - ١٠٣. (ابن جريس).

الحجر الرملي، حيث يتاخم الطرف الشمالي لقفر الصفراء الممتد من وراء السر، ويفصل المذنب الوادي ومنخفض الزغيبية عن القناة الرئيسة. ونقطة التشعب أو التفرع واضحة وضوحاً بارزاً عند حاجز الطعيمة (الطعيمات) الرملي الطويل المعزول، ذي اللون الوردي.

بعد أن ملأنا بطوننا بالتمر والقهوة ودعنا مضيفينا الزنوج ونهضنا خارجين من الوادي مواصلين السير نحو نفود بريدة. ومن قمة أول جبل فيها نظرنا أمامنا إلى بحر متحرك بأمواج الرمل، ويطغى في الجزء الأعظم منه المظهر الرتيب والارتفاع المعتدل، على أنه كان يتنوع هنا وهناك بقمم وذرا أعلى، متآكلة بفعل الرياح. والطريق عبارة عن مطروق بصورة جيدة عبر الرمال، ويلتف برفق حول أكتاف الجبال ويتموج بمنحنيات يسيرة، بينما المنحدرات الرملية مكسوّة بصورة متناثرة بنباتات الأظير والرمث. وبعد نحو ميل من سيرنا أتينا على جبل يعتبر بوجهة النظر المحلية علامة منتصف الطريق بين المدينتين، والوادي نفسه، وعلى ما يبدو قرية أبو علي، كانت المحطة الأولى والخضر[1] المحطة الثانية من ثلاث محطات تقسّم الرحلة بشكل طبيعي.

وعندما سرنا هكذا فوق النفود المتموجة نحو اثنين أو ثلاثة أميال فقد وصلنا إلى مرتفع يصل بين جبلين شاهقين، حيث شاهدنا منظراً ذا جمال رائع. فالأمواج الرملية الصفراء واحدة تلو الأخرى تمتد حتى الأفق الأرجواني في قفر الصخور الرملية البعيدة وراء بريدة، وفي الطيات المتداخلة من الرمل ظهرت بقع من السواد الداكن المختلف عما حوله، بساتين نخيل أو أثل. وقريب جداً منا وبوضوح شديد لوقوعها في الظل مقابل مجموعة من التلال الرملية عند أقدامنا تظهر واحة

(١) الخضير: هكذا ذكرها فيلبي، مع أن الاسم الصحيح ربما الخضيراء، ولكن سوف نبقى مع الاسم الذي أورده فيلبي، لأنه ربما حصل بعض التحريف على اسم هذا المكان بعد عصر فيلبي. (ابن جريس).

الخضير بنخيلها داكن الخضرة، بينما على مسافة أبعد كان هناك هرم عالٍ من الرمل يقطع الخط الأسود الطويل الذي يمثل واحة بريدة[١]. من المدينة نفسها لم نستطع أن نرى شيئاً إلا بعد أن أصبحنا تقريباً على مرمى حجر من أسوارها العالية، ولرؤية بريدة من بعيد يجب على المرء أن يقترب منها من الشمال.

لم نستغرق الآن وقتاً طويلاً في وصولنا إلى الخضير، التي تقع واحتها بشكل كامل على يسار الطريق في قاع صلب من التربة الجبسية البيضاء قليلاً ذات النوعية الرديئة، غير المناسبة كما قالوا، للاستخدام كالأسمنت أو في اللياسة. وأول بستان نخيل كان رقعة كبيرة، حوالي مائتي ياردة بالطول ومائة بالعرض، ومليء بصورة كثيفة بجذوع النخيل، ناهيك عن الزروعات الغنية تحت النخيل من الخضروات ونبات الفصفصة (البرسيم)، وتتناثر حوله نحو ستة أو سبعة أكواخ طينية ذات مظهر متواضع، وبعدها توجد منطقة بها قدر ضئيل من أشجار الأثل الطيبة، النامية نمواً جيداً وتعلوها الأزهار ذات اللون الخمري التي رأيتها في وادي الدواسر. على أنه هنا فيما يبدو أن الزهرة لا تنضج بشكل كاف لاستخدامها في صنع الصبغات[٢]، ويقول طامي: إنه على مسافة أبعد نحو الشمال في حائل يتم تحقيق بعض الاستفادة منها. بعد ذلك بمسافة توجد بقعة أخرى من النخيل صغيرة ومتناثرة، ولكن فيها كثيراً من الأثل، وهي أشجار مزدهرة في هذه الأصقاع، وتوجد في كل مكان، وفي أي ثنية من التلال الرملية، بل وتزرع أيضاً على نطاق واسع فوق قمم الجبال لتكون بمثابة دفاع ضد العواصف الرملية. إن منخفض الخضير له شكل بيضاوي تقريباً ويتلقى المياه الجارية من المنحدرات

(١) للمزيد عن تاريخ وحضارة بريدة، انظر: محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ١١ وما بعدها، المعارك، بريدة، ص ٢٩ ومابعدها. (ابن جريس).

(٢) يوجد قديماً في الجزيرة العربية أشجار ونباتات عديدة تستخدم في صياغة الملابس، وكذلك في تزويق المنازل وتشكيلها من الداخل، ولمزيد من الاطلاع على هذه النباتات وغيرها في جزيرة العرب، انظر: كتاب النبات، للدينوري. (ابن جريس).

المجاورة له والأودية التي تتخللها، وسكانه الحاليون لا يمكن أن يتعدوا في مجموعهم عن ثلاثين شخصاً.

وراء ذلك بربع ميل دخلنا في منخفض بيضاوي مماثل، ذي تربة بيضاء هو خب العقيان، وبه يقع الأثل المعتادة وبستانان صغيران من النخيل، ثم عبرنا قاع خب العوشز لنصعد الجبل الواقع خلفه، وهذه الجبال الرملية تبدو بصورة عامة أنها تمتد جنوب غرب مع شمال ـ شرق[١]، ومن قمتها لمحنا عن بُعد واحة الروق على مسافة نصف ميل نحو اليمين على الطريق المباشر إلى المذنب، التي أوشكت الآن أن تلتقي بخط سيرنا.

ولقد وجدنا أنفسنا فوراً في قاع واد بين جبلين رمليين على بُعد نصف ميل من بعضهما، حيث واصلنا سيرنا نحو الشمال الغربي إلى أول بساتين واحة بريدة، المعروفة باسم الصباخ. وعند حافتها توجد قريتان أو ثلاث قرى صغيرة، وعند مرورنا بالقرب من إحداها سرنا في ممر رملي عرضه مائة ياردة، بين حزام النخيل من جهة والمنحدر المستدير للجبل الرملي من جهة أخرى والذي يلتوي برفق حول المدينة التي يمكننا الآن أن نلقي أول نظرة على سورها على الرغم من أنها كانت غير مكتملة. وهكذا كنا سعداء بانتهاء مشوار قصير استفدنا منه جيداً، وقد وصلنا في الختام إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من سور المدينة، وبعد ذلك فوراً دخلنا بريدة من باب القصر، أي بوابة الحصن.

٤ـ بريدة[٢]

ومن هنا بدا لنا مشهد كالحلم! مدينة طينية عظيمة، شيدت في هذا القفر الرملي، تطوقها أسوار وأبراج تحمي البيوت، وشوارعها بجوار غابة داكنة زرقاء قليلاً من أشجار الأثل على التلال العالية، هذه هي بريدة. وتلك هي المئذنة المربعة

(١) الأخرى تقع في اتجاه الشمال الغربي والجنوب الشرقي (فيلبي).

(٢) هناك تفسيرات كثيرة حول معنى بريدة، وأحد الباحثين المتأخرين أورد معظم هذه التفسيرات، وأخيراً قال: إنها سميت بريدة بسبب برودة مائها ووفرته. مع أنها عرفت بهذا الاسم فقط منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، انظر: محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ٢٣ – ٢٧، جاكلين بيرين، ص ٢٩٥. (ابن جريس).

للمسجد الكبير في المدينة. لقد شاهدت منظراً ـ كما لو كان ـ القدس في الصحراء! «عندما ننظر إلى أسفل من جبل الزيتون»[١].

هكذا كتب داوتي عن أول نظرة له، من الشمال الغربي، على مدينة عظيمة لم يتغير جمالها إلا قليلاً مثل ملامح مواطنيها الفلاحين البسطاء، وفيها قاسى أشد أنواع الاضطراب، وهو قبل ذلك كان قد خرت روحه الجسورة ومنها، بعدما هرب من الموت الذي تربص به في كل زاوية، طُرد للخارج في اليوم الثالث إلى كرم الضيافة في منافستها عنيزة، حيث ظلت ذكراه باقية إلى هذا اليوم في أوج مجدها[٢]. وفي بريدة لا يتحدثون عن خليل[٣]، وإذا ما حدث ـ في حضرة غرباء من بعيد ـ قد ذكّرهم ضميرهم بتلك القصة في تاريخهم، فإنهم لا يذكرونها والمسرور قد يستحي، إذا كانوا يستطيعون الاستحياء، من الخزي. وعلى الرغم من ذلك فلا الندم ولا التنوير الناتج عن السفر سوف يمنع على الإطلاق مواطني بريدة، عندما يكونون داخل وطنهم، عن التعصب الأعمى الذي كبرت فيه مدينتهم بشكل عظيم بين مدن الجزيرة العربية[٤]. وفي الخارج فهو ليس أقل لطفاً أو كرماً من غيره، ومن الصعب أن نعلل الآفة التي نزلت على روحه في نطاق أجزاء مدينته الأصلية. إنها مجرد الحقيقة التي قاسى منها كل زائر أوروبي لبريدة، وربما أكون أنا أقلهم جميعاً في ذلك؛ لأنني جئت إلى هناك في ركب ابن سعود[٥]. إنك تستطيع أن ترحل أينما

---

(١) الصحراء الغربية. مجلد (٢)، ص ٣١٤ (فيلبي).

(٢) للمزيد عن رحلة داوتي في بلاد القصيم، انظر، كتابه: Travel In Arabia, Vol.2.pp.320 ff (ابن جريس).

(٣) المقصود بـ (خليل) هنا، أي داوتي (ابن جريس).

(٤) ربما بالغ فيلبي أثناء حديثه عن تعصب أهل بريدة، بعكس أهل عنيزة الذين وصفهم بالانفتاح وعدم التعصب الأعمى. والشيء الذي نستطيع قوله أن العربي في جزيرة العرب في عصر فيلبي ربما كانوا متقاربين إلى حد ما في تعصبهم، وفي حالة الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد نتيجة فقدان الأمن والوعي الثقافي. (ابن جريس).

(٥) من يدرس ظروف، أحوال الرحالة الغربيين الذين وصلوا إلى الجزيرة العربية منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فإنه يجد الكثير من العقبات التي واجهها كل واحد منهم، ولكن بالدراسة والمقارنة نجد فيلبي كان أوفرهم حظاً لما حظي به من رعاية وحماية تحت حكم ابن سعود. وهو يعترف بذلك في معظم كتبه ودراساته. للمزيد عن الرحالة الذين قدموا إلى جزيرة العرب، انظر: جاكلين بيرين، ص ١٩ وما بعدها، روبن بدول ص ٨ وما بعدها. (ابن جريس).

شئت برفقة مواطن من بريدة في ود وصداقة وصحبة تامة، ولكن فور أن تدخل أبواب المدينة تنتهي الصداقة والود إلى أن تنتهي إقامتك المؤقتة فيها، وتنطلقا مرة أخرى معاً في أسفارك ورحلاتك، كما لو كان أي شيء قد حدث. ولقد تعرض العقيد هاملتون مؤخراً جداً لهذه الظاهرة الغريبة، فعند وصوله إلى بريدة قام رفاق رحلته، ومنهم عدد من مواطني شقراء البارزين الذين سوف يواصلون رحلتهم معه باتجاه الجنوب، بالاختفاء تماماً عن عينيه، ولم يظهروا مرة أخرى، كما قيل لي، إلا بعد بدء السير نحو الجنوب. إنها مشكلة نفسية يبدو أنه ليس لها علاج أو حل[١].

عندما استدرنا لندخل المدينة من باب القصر فقد تم توجيهنا عبر أرض التخييم المفتوحة التي تسمى الجروة ومروراً بالحصن الكبير حتى بيت الحاكم الذي ـ كما اكتشفت بعد ذلك ـ قد أخلاه الأمير لمصلحتي. ولم يكن هذا البيت مقر إقامة عائلته الخاص، الذي كان في مكان آخر من المدينة، ولكنه يضم على حاله ذاك الغرف التي يقوم فيها بالعمل الرسمي ومراسم الاستقبال التي توجبها وظيفته المهمة، وخارج المبنى مقابل القصر كان هناك مقعد طيني طويل يمتد بطول الجدار كله، وفي وسطه جزء مفصول عن الباقي بمسندين منخفضين للذراعين ليكونا بمثابة كرسي الحكم، وعليه يجلس الأمير في برد الصباح والمساء في مجلس عام، للقضاء بين الناس أو لمجرد تجاذب أطراف الحديث مع الزوار. ولم أكد أبدأ في استعمال الغرفة العلوية المريحة، المفروشة بالسجاد، التي تقرر أن تكون سكني في بريدة، إلا والحاكم نفسه، فهد بن معمر[٢]، يزورني زيارة رسمية تشريفية ليطمئن

(١) اختفاء أصحاب العقيد هاملتون عندما دخلوا معه بريدة، ربما لانشغالهم ببعض الأعمال الخاصة بهم، كزيارة بعض الأصدقاء، أو الذهاب في بعض الأعمال لإنجازها خلال إقامتهم القصيرة في هذه المدينة. (ابن جريس).

(٢) يذكر فيلبي أن فهد بن معمر كان حاكماً لبريدة عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، ومات مقتولاً عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م). مع أن بعض الدراسات المتأخرة عن بريدة تذكر أن فهد بن معمر كان أميراً لمقاطعة القصيم عام (١٣٣١هـ - ١٣٣٧هـ/١٩١٢ - ١٩١٨م). للمزيد انظر: الهويمل، ص ٦٧ - ٧٢، إبراهيم المعارك، ص ٢٦ - ٢٧. وإطلاق لقب أمير القصيم، أو أمير ناحية القصيم على عدد من أمراء بريدة يعود إلى فترة تزيد عن قرنين من الزمان. وهو =

بنفسه على راحة ضيفه. والحديث، كما يحدث دائماً في مثل هذه المناسبات، كان رسمياً تماماً، ولكنه ترك عندي انطباعاً عن شخص له بعض الامتياز والتفوق، ويشتكي من شيء ما يجعله غير واثق، وهو سحنة ماكرة، ربما بسبب المياه الزرقاء في إحدى عينيه، ولكنه على الرغم من ذلك في مظهره كما في شهرته بين الناس كان زعيماً في القضية الكبرى التي كان لها خادماً شديد الإخلاص، والتي من أجلها بعد ذلك بسنوات دفع حياته فداءً لها في ميدان القتال[1]. ولقد بدا لي بالتأكيد أن باركلي راونكير (Barclay Raunkiaer)، الذي زار بريدة في (١٩١٢م) ولم يُقابل بترحاب على وجه الخصوص هناك، قد سمح لتحيزه الشخصي أن يُلون صورته عن الرجل، على كل حال فقد صوره بألوان شنيعة ليست ضرورية تماماً. لقد كان دائماً أكثر من مهذب، بل وأحياناً ودوداً معي، وبين قومه كان معتدلاً في الحسم في الأمور. ففي أحد الأيام خلال العصر نظرت من نافذتي على إجراءات سير إحدى القضايا في مجلسه للعدل، حيث كان الطرفان المتنازعان اثنين من البدو، باع أحدهما للآخر مقابل سبعين دولاراً جملاً مات في اليوم التالي. وبعد أن أنصت بكل ما لديه من صبر للجدل الذي أصبح عالياً ومحتداً أكثر فأكثر أصدر فهد حكماً منقسماً حيث قضى على البائع بأن يعيد ثلاثين دولاراً ترضية جزئية للمشتري الذي خاب أمله.

وعند مغادرته بت حراً في أخذ حمام، وتغيير ملابسي وتناول الفطور على مهل. ولقد سررت بدرجة كافية من العذر الذي وفرته لي هذه الأشغال بصورة معقولة

= لقب لم يكن لغيره من أمراء المدن الأخرى في القصيم. وأول من تسمى بلقب أمير على عموم القصيم هو: حجيلان بن أحمد في الفترة الواقعة بين عامي (١١٩٦ - ١٢٣٤هـ/١٧٨١ - ١٨١٨م). للمزيد انظر: عثمان بن بشر. عنوان المجد في تاريخ نجد (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د. ت)، جـ١، ص ١٣١، محمد الربدي، جـ٢، ٢٨٦ - ٢٨٧. (ابن جريس).

(١) لقد قتل في أثناء قيادته لهجوم من الفرسان خلال الحملة العسكرية النهائية على حائل في (١٩٢١م). (فيلبي).

لكي أرفض دعوة لزيارة ابن سعود خلال فترة العصر. وفي الحقيقة كان هو الذي جاء لزيارتي بعد ذلك بقليل في سكني الخاص ليتحدث عن التقدم في ترتيباته للحملة العسكرية القادمة. وبعد مغادرته، زارني الشيخ أحمد بن جابر[١]، الابن الأكبر لحاكم الكويت الراحل وابن أخ الشيخ الحالي، سالم بن مبارك.

لقد كان منذ بعض أيام ببريدة في طريقه مع مجموعة صغيرة من الحجاج الكويتيين لأداء فريضة الحج بمكة. ولقد كانت لديه أسبابه الخاصة في عدم إبداء الود الشديد مع عمه الذي اغتصب حقه في حكم الكويت الآن، كما أن سالماً يناصب ابن سعود العداء بشكل عنيد، الأمر الذي انتهى في الختام بالحرب[٢].

ولذلك، ليس من غير المحتمل أن تكون المحادثات في هذه المرة بين ابن سعود وأحمد قد وضعت أسس التفاهم الودي الذي أخذ شكلاً واضحاً ومحدداً بعد ذلك ببعض السنوات عند وفاة سالم، على الرغم من أن الكويت فيما يبدو أنه مُقدّرٌ لها أن تفقد وضعها القديم كبوابة تجارية لشرق ووسط الجزيرة العربية إذا أصرت على سياستها الحالية في الانعزال السياسي عن المنطقة الخلفية لها. ومجموعة الحجاج من الكويت بصورة رمزية تحت قيادة سلطان بن عبد العزيز بن حسن، الذي، لأسباب لا يعرفها أفضل منه أحد، أصر على معاملتي كصديق قديم، بينما أن احتمال تقلب الأهواء السياسية من جانب أحمد قد جعله يأخذ

(١) كان مبارك بن صباح قد خلفه في عام (١٩١٥) ابنه الأكبر جابر، الذي توفي بعد ذلك بسنة في ظروف مشكوك فيها وخلفه أخوه سالم، وتوفي هذا الأخير في (١٩٢١م) وخلفه ابن جابر أحمد، الذي لا يزال في الحكم. (فيلبي)، للمزيد عن تاريخ الكويت السياسي والإداري في العصر الحديث، انظر: السعدون، ص ٢٠ وما بعدها، الخترش، ص ٣٨ وما بعدها، عبدالعزيز الرشيد، ص ٤٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) استدعى هجوم وهابي على الجهراء في (١٩٢١م) إرسال الطائرات البريطانية لحماية الكويت من أي مزيد من المشكلات، وفي الوقت الملائم، لتثبيت الحدود بين إمارة الكويت وإقليم الوهابي من خلال المساعي الحميدة لبريطانيا العظمى. (فيلبي) للمزيد من الصلات بين نجد والكويت أثناء زيارة فيلبي للقصيم عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، انظر: السعدون، ٢٤٧ وما بعدها، عبدالعزيز الرشيد، ص ٢٥٤ (ابن جريس).

الحذر بإلحاق السكرتير الخاص لسالم، الذي يدعى عبدالعزيز، بحاشيته الشخصية[١].

ومن الطبيعي أن أرى هؤلاء الناس كثيراً خلال الأيام الباقية قبل مغادرتهم إلى مكة، بيد أن العلاقات بين ابن سعود وسالم كانت شديدة التوتر في هذه الفترة لدرجة أنني قدّرت أنه من الحكمة أن أقصر نفسي على الحديث عن الصداقة الرسمية، وأترك ابن سعود ليعالج بنفسه وبطريقته الخاصة مع أحمد مشكلة تحسين العلاقات السياسية بين الدولتين. ولأن سالماً كان يشجعها سراً فقد أصبحت قبيلة العجمان مؤخراً خارج نطاق السيطرة بشكل سيىء وجاءت بلاغات عن أن هجماتها قد امتدت بعيداً حتى حفر العتش وجودة[٢].

هذه الأنشطة، مقرونة بتهديد الأشراف القائم دائماً في الغرب[٣]، قد شكلت لابن سعود خطراً عسكرياً شديداً، على أن جميع نداءاتي للبصرة لتقوم بعمل لإخماد مكائد سالم لم تقابل إلا بدعم فاتر. ومن ناحية أخرى كنت قادراً في ذلك الوقت على تبليغ ابن سعود، بما أرضاه كثيراً، بأخبار إعلان الحكومة البريطانية موافقتها الرسمية على الضمانات التي أعطيتها إياه في الرياض قبل أن يبدأ زحفه نحو الشمال.

وكان طامي آخر زواري في هذا اليوم الأول لي ببريدة، حيث كان يُقيم في ذلك الوقت مع ابنته المتزوجة التي تسكن في بيت عند الحافة الشمالية من الجردة

---

(١) لمزيد من المعلومات عن الصلات السياسية بين الكويت ونجد في النصف الأول من القرن الهجري الماضي، انظر: أمين الريحاني، ملوك العرب، جـ٢، ص٦٠٤ وما بعدها، حافظ وهبة، ص ٤٥، ٦٨، ٧٦ وما بعدها، السعدون، ص ١٨٣ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن العلاقات السياسية بين ابن سعود وسالم الصباح، انظر: وهبة، ص ٨٧، حسين خزعل، جـ٤، ١٨٦، ١٩١، عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ص ٢٣٣، الخترش، ص ٩١ - ٩٢. (ابن جريس).

(٣) للاطلاع على تفصيلات أكثر عن أوضاع الأشراف في الحجاز وموقفهم من قوة ابن سعود المتنامية في نجد، انظر: حافظ وهبة، ١٤٨، ٢٠٢، ٢٥٠، الريحاني، ملوك العرب، جـ١، ٤٩ وما بعدها، جـ٢، ٥٣٣ وما بعدها. (ابن جريس).

بالقرب من البوابة الشمالية الشرقية، أو بالأحرى الباب الخلفي للمدينة[١]. وكنت أراه كثيراً خلال الأيام القلائل الأولى من إقامتي المؤقتة، وأزوره مراراً في بيته حيث ـ في مرات مختلفة ـ قابلت الأصدقاء المشتركين. كان رشيد زائراً منتظماً، بيد أن الحديث غير المهذب قد ميّزه بشكل عام كأنه أضحوكة مجلس طامي، وفي غالب الأحيان ينسحب فجأة قبل أن يُمطر بوابل من الإشارات المازحة إلى عجزه الجنسي المزعوم. ولم يكن يهتم كثيراً بالمزاح على غبائه وحماقته، ولكن الهجوم على صفاته البدنية صار أكثر مما يستطيع أن يتحمله، ولقد ذكرت من قبل كيف أنه بعد ذلك بسنوات انتقم لنفسه من معذبيه. أما حفيد طامي الصغير، مطلق (مُطيلج) ابن حمود، فهو موجود بصورة عامة في هذه الجلسات، طفل يكاد يبلغ العامين وهو عظيم الجمال والبهاء مثلما يكون أطفال العرب أحياناً، وبعد فترة أولية من الخجل، أصبح شديد الصداقة معي. ففي أغلب الأحيان يستكن في الجلوس إلى جواري، وهو يحدق بعينيه الواسعتين في الكبار البذيئين، ثم يغلبه نعاس الأبرياء.

بمرور الأيام بدأت أدرك أن الآمال الاجتماعية التي أثارتها تجاربي في عنيزة كان مكتوباً عليها الخيبة، فموانع التعصب وضيق أفق التفكير في مجتمع بريدة هي مثل تلك التي في الرياض، وحتى حقيقة زياراتي المتكررة لبيت طامي قد بدأت بعد فترة تؤثر على الشهرة الطبيعية لمرفأ المرح هذا. وهو يرحب ـ كما قال ـ بابتعاد أصدقائه، ولكنه هو نفسه لن يُوصم بأنه أحمق حتى يطرد شخصاً محسناً في الماضي وربما المستقبل والذي كانت هداياه وما زالت تستحق القبول. وعلى الرغم من ذلك، بعد الأيام القلائل الأولى، أصبح الجو العام لاستنكار الناس ورفضهم له

(١) كان حافظ وهبة من المعاصرين لفيلبي، وقد كتب عن أجزاء عديدة من جزيرة العرب، فقال عن بريدة: إنها «من أكبر المدن النجدية وأحسنها نظاماً، وطرقها أوسع من الرياض ومن طرق أكثر البلدان النجدية، ولكنها ملتوية ومبانيها من اللبن، وهي كسائر البلدان العربية محاطة بسور يحمي البيوت والأسواق يبلغ ارتفاعه (١٥) قدماً» انظر: جزيرة العرب لوهبة، ص ٦١ (ابن جريس).

أكثر مما يحتمل، ولم يزرني بعد ذلك إلا على فترات نادرة. وفي النهاية وقع بين نارين؛ لأنه قد وُصم بأنه صديق للكافر[١] وفشل في ضمان الهدية، التي كان احتمال نيلها قد جعله جسوراً ومتباهياً في البداية[٢].

في إحدى المرات زارني تحت جنح ظلام الليل أحد أفراد عائلة أعرفها تمام المعرفة في بغداد. وهذا الشخص يدعى منصور بن رميح، واحد من ثلاثة أخوة اشتغلوا منذ زمن طويل في تجارة رائجة بالإبل العربية، وكانوا يتاجرون بلا اكتراث معنا أو مع الأتراك حيثما وُجد سوق طيب لما لديهم من مواشي. ولقد قابلته من قبل في شقراء، والآن يرغب في أن أبذل مساعيَّ الحميدة فيما يتصل بزيارة ينوي أن يقوم بها للعراق. بيد أن الطبيعة المريبة لزيارته قد أثارت سخطي، وقد اتخذت إجراءات تجعله يعلم بصورة غير مباشرة أنني لا أستطيع أن أعزز العمل التجاري لأي شخص لا يستطيع أن يقوى على استقبالي في بيته. بعد ذلك ببعض أيام زاره الدكتور عبدالله في بستان نخيله عند أطراف المدينة، وفاتحني في موضوع طلبه للمساعدة في مسألة زيارته لبغداد، بيد أنني لم أكن لأقبل عذر منصور بأنه خائف من الرأي العام، إنه عذرٌ كافٍ، وأصررت أنه إذا كان يرغب في الحصول على مساعدتي في أمر ما فلا بد أن يقدم لي كرم الضيافة التي لي الحق في توقعها من بيت يرتبط ارتباطاً حميماً مع السلطات البريطانية في بلاد الرافدين. في النهاية ابتلع وساوسه بصورة كافية ودعاني إلى جلسة أنس وسمر خلوية في بستانه، ولكي نجتمع مع تركي وضيوف كبار آخرين، وكان ابن سعود نفسه غائباً في زيارة لعنيزة لمدة ثلاثة أيام. تبلغ مساحة حديقته نحو عشرة أو اثني عشر فداناً، وتقع مباشرة

(١) كلمة (الكافر) هنا يُقصد بها فيلبي، هذا المطلح ما زال عند كثير من سكان الجزيرة العربية، والكافر هو المخالف للمسلم في الدين (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن أخلاق وعادات الناس في بريدة خلال العقود الماضية، انظر: وهبة، ص ٦١ - ٦٢، إبراهيم المعارك، بريدة، ص ٣٥ - ٣٨، محمد الربدي، بريدة، جـ٢،ص ١٢٢، الهويمل، ص ٥٩، ١٤٦ وما بعدها. (ابن جريس).

خارج البوابة الجنوبية الغربية من المدينة، وقد اشتراها بمبلغ أربعة آلاف ريال لتوه في العام الماضي، وبعد ذلك مباشرة تقريباً تلقى عرضاً رفضه بمبلغ خمسة آلاف ريال ثمناً لها، ذلك لأنه منذ أن اشتراها قد أنفق عليها ما قد يصل إلى هذا المبلغ مرة أخرى لكي ينقذها من حالة الإهمال والتدهور التي تركها أصحابها السابقون أن تصل إليه. كان نصف المساحة مشغولاً بمزرعة من النخيل عمرها من عشرة إلى عشرين عاماً، وتحتها زراعة مثمرة من نبات البرسيم الحجازي (الفصفصة) والدخن، بينما كان النصف الآخر أجرد بشكل أو بآخر[1].

وفي وسط النخل يوجد منزل صيفي ذو حجم معقول مبني من سعف النخيل، وفيه، مضطجعون على سجاد ومخدات كانت الصحبة المجتمعة من ضيوف منصور تتكون من تركي نفسه وأخيه سعود، وفيصل بن الرشيد، وسلمان آل العرافه، وفهد، الابن الأكبر لعبدالله بن جلوي الذي لم أكن قد قابلته من قبل، على الرغم من أن دربينا قد تقاطعا عند آبار أبوجيفان في نوفمبر الماضي.

تتكون المرطبات من التمور إذ يبدو أن بريدة تفتقر بصورة عجيبة للفواكه التي تكثر بشدة في الأماكن الأخرى، والقهوة. ودار الحديث عن الخيول، والبنادق، والحرب. وما دام ابن سعود نفسه في بريدة، فقد أعفى تركي نفسه من الظهور تماماً، وعلى الرغم من أنني كنت أراه مراراً بعيداً في المقاعد السفلى من مجالس والده العمومية التي كنت كثيراً ما أحضرها خلال هذه الأيام، وبدا من غير المجدي أن سعيت وضغطت على الدكتور عبدالله أن يرتب لي مقابلة معه. من الواضح أن قواعد التشريفات الملكية لا تحبذ ـ إذا لم تكن في الحقيقة ـ تمنعه من استقبالي في مسكنه ما دام والده حاضراً في المكان.

(١) لمزيد من المعلومات عن مزارع النخيل والعيون وبعض المزروعات الأخرى في بريدة، انظر: الهويمل، ١٢٩ - ١٤٠، محمد الربدي، ج٢، ١٥٩ - ١٦٦. (ابن جريس).

وهكذا كان الأمر، على الرغم من أنني وصلت بريدة في الخامس والعشرين من أغسطس إلا أنه لم يكن إلا في الحادي والثلاثين من أغسطس من الشهر نفسه، وهو اليوم نفسه الذي غادر فيه ابن سعود إلى عنيزة، أن تمكنت من زيارته بترتيب مسبق. ولقد وجدته يقيم في بيت بالقرب من الطرف الجنوبي للمدينة، ونسبة لأن الظلام كان حالكاً وكذلك لضعف الإضاءة في غرفة الاستقبال فإنني لم أتمكن من رؤية الكثير من المحيط الذي يعيش فيه. وفي تلك المناسبة كان فيصل بن الرشيد هو الضيف الآخر الوحيد، بالرغم من أن الغرفة مليئة بالخدم[١] الخاص بتركي. وقد استقبلني بشكل خجول بالتعبير عن عواطفه وأصر أن آخذ جزءاً من المنطقة الصغيرة المفروشة بالوسائد المخصصة له فقط. وبعد ذلك، وبما أصابني بكثير من الارتباك، أصر بصورة مطلقة، لن يقبل معها عذر أن أتناول أول كوب من اللبن الدافئ المضاف إليه السكر. ذلك هو أول بند من المرطبات التي دارت علينا. وهكذا عندما حصلت الألفة وذاب البرود بقبولي بإذعان لهذه اللفتة العظيمة من الشرف، عادت قواعد المراسم والتشريفات في المجالس الملكية بيننا مرة أخرى، وقدمّت له أولاً القهوة ثم البخور. في مثل هذه الحالات تتباين تصرفات المضيفين فمضيفي الزنجي ـ على سبيل المثال ـ أمير الطرفية أخذ فنجانه كأمر طبيعي قبلي عند زيارتي له، وكذلك فهد بن معمر، حاكم بريدة، قدمّت له القهوة أولاً ولم يجد في ذلك حرجاً. والشرط الأساسي في الضيف المهذب أن يمانع بقبول شرف خدمته أولاً وأن يُقدّر بنفسه متى يذعن في حالة ضُغط عليه[٢].

في تلك المناسبة سألني تركي بعد أن سمع عن خروجي راكباً أثناء العصر، عن سبب عدم انضمامي إلى جماعته الخاصة التي كانت أبعد في البر نحو الشرق.

---

(١) بصفته ولياً للعهد فقد كان له حاشية خاصة من الزيقرت. (Zigirt) (فيلبي).

(٢) عادة إعطاء الحاكم أو الوالد فنجان القهوة أولاً، وإن كان هناك ضيف رئيس يعد من العادات العربية القديمة، وما زالت هذه العادة موجودة عند بعض الناس والأسر في المجتمع السعودي. وهذا التصرف يعكس التقدير والاحترام للحاكم أو الوالد وإن كانوا هم من فئة المضيفين. (ابن جريس).

وعلى أمل الحصول على المزيد من المتعة الاجتماعية في المستقبل أجبته بصراحة أن هذا بسبب عدم دعوتي لذلك. فردّ بكرم «فلتفعل ذلك في المستقبل»، واركب معي كلما أردت. سير[١]، أردف قائلاً، اذهب وزر الناس، ولا تجلس وحيداً في البيت". ربما لا يكاد يدري كم من الصعب أن أتبع نصيحته وكم مرة حاولت أن أزوره بلا طائل. وسألته إن كان دائماً مشغولاً. فأجاب «عندما يكون والدي غائباً فقط»، «عند ذلك يكون عندي كثير من العمل، ولكنه يتوقف عندما يعود». يبدو أن هذا تنظيم غريب لأنه، على الرغم من عدم استشارته أبداً أو اطلاعه دوماً على مجريات الأمور، يجب عليه أن يصبح فوراً وبشكل كامل مسؤولاً عن تصريفها كلما غاب ابن سعود. ولقد سألت الأخير ذات مرة إن كان تركي يحذو حذوه في مسألة قلة النوم والاستيقاظ ساعة ما يشاء. فردّ ببساطة «لم أختبره أبداً».

كانت أم تركي من عائلة منديل[٢] من قبيلة بني خالد، وقد طُلّقت منذ أمد طويل، وقصة هذه الحادثة غريبة نسبياً. فعند زيارة الأحساء بعد ولادة وريثة بسنوات طويلة تزوج ابن سعود فتاة من عائلة منديل، ولم يكتشف إلا بعد مضي فترة من الزواج أنها أخت والدة تركي، من أم واحدة ولكن الأب مختلف. وحيث إن الزواج من أختين غير مشروع، فلا يمكن تصحيح هذا الخطأ إلا بطلاق الزوجة الأولى[٣]، ربما بأثر رجعي. وكانت الأخت لا تزال في قائمة المؤسسة الزواجية لابن سعود، وسيدتها الأولى هي جوهرة بنت مساعد[٤] الشهيرة والجميلة. والزوجة الثالثة في هذا الوقت هي بنت الذكير التي أشرنا إليها آنفاً بأنها تقيم في عنيزة، وبقدر ما

(١) السير لزيارة الناس. (فيلبي). وما زالت تستعمل كلمة (سيرّ) إلى اليوم، والمقصود بها تجول او أذهب لزيارة صديق أو قريب أو ما شابه ذلك. (ابن جريس).

(٢) عائلة المنديل في الزبير والبصرة أصلها من الدواسر. (فيلبي).

(٣) إذا تزوج الرجل من زوجتين، ثم اتضح له فيما بعد أنهما أخوات، يطلق واحدة منهما، حسب هواه ورغبته، ولا يقتصر الطلاق على الأولى كما ذكر فيلبي. (ابن جريس).

(٤) لقد وافتها المنية بوباء الإنفلونزا بنهاية عام (١٩١٨م) (ابن جريس).

استطعت أن أتأكد، فإن مكان الزوجة الرابعة خالٍ حيث إن بنت السديري أرملة سعد، والبدوية التي تزوجها في الربيع من هذا العام قد طُلقتا معاً.

إن عصبية تركي قد جعلت التحدث إليه صعباً نسبياً، فهو لم يكن على أي حال، قد تخلص بعد من اندفاع الشباب وقلة خبرته، ولكنه كان بلا شك فتى نبيلاً، مهذباً أصيلاً وكريم المحتد. وقد شرح فشل حملته العسكرية الأخيرة بأنه يعود إلى الحجم الضخم لقواته، التي لم تستطع أن تتجاوز بشوك (Bashuk) بسبب عدم كفاية الآبار التي يمكن الاعتماد عليها في الشمال. بيد أنه كان يتوق بشغف إلى فرص القتال التي تلوح في الحملة العسكرية القادمة. وقال إنه يأمل ـ في يوم ما ـ أن يزور بغداد ومصر ليرى شيئاً من العالم العظيم، الذي لا يعلم عنه شيئاً إلا طرائقه الفظيعة والمدمرة في الحرب. وكان هو نفسه يركب الخيل بشكل عام بلا سرج ولا ركاب ولقد كان فارساً رائعاً، على أن استخدام السرج والركاب قد أصبح أكثر شيوعاً في الجزيرة العربية، والكثير، مثل ابن سعود نفسه وفيصل بن الرشيد، اللذين كانا حاضرين واعترفا بهذه التهمة الرقيقة، قد أصبحا شديدي التعود عليها لدرجة أنهما لم يعودا يستطيعان الركوب بالطريقة العربية التقليدية.

ننتقل الآن إلى سعود، الذي كان مع الجماعة بحديقة منصور، ولقد ذكرت أنني لم أره منذ زمن طويل أو أتحدث معه. وتدخل تركي قائلاً: «وسوف تمكث وقتاً طويلاً مثل ذلك قبل أن تراه مرة أخرى»، «لأنه قد تزوج حديثاً من فتاة يحبها بشغف». وطرح سلمان سؤالاً «كيف تستطيعون أن تتحملوا التقيد بزوجة واحدة مدى الحياة؟ إن نظامنا أفضل بحق من نظامكم، لأنه، إذا شئنا، نستطيع أن نطلق الزوجة حيثما لم ترق لنا من أول ليلة». وهكذا تجاذبنا أطراف الحديث بسرور بالغ تحت تعريشة سعف النخيل، إلا أن الشمس الغاربة أنذرتني بالهوة التي لا يمكن عبورها بين مضيفي وبيني. ونهضت لأستأذن مبتعداً؛ لأنهم سوف يؤدون صلاتهم حيثما كانوا، ورافقني منصور حتى نهاية أرض حديقته تحت النفود، شارحاً في أثناء ذلك أنه، بعد

أن تمتع أحياناً بكرم الأوروبيين، فهو شديد السرور باستضافتي، على الرغم من أنه خائف من ألسنة رفاقه المواطنين. ولقد نصحته بألا لا يخاف، وخرجت من حديقته بالقرب من بئرين، حيث الإبل تجاهد طالعة ونازلة في المجر[١]، مما يجعل السواقي تصيح وتئن. وفي حقل قريب كانت مجموعة من النساء مشغولة بحش البرسيم.

عندما صعبت الضفة الرملية المنحدرة من النفود تمتعت ببعض المناظر الرائعة من المدينة الفاتنة وحصنها فوق وعبر غابة النخيل، والتي توجد بها بعض الجذوع ذات الارتفاع الشاهق الذي يصل حتى مستوى قمة الجبل الرملي تقريباً. وبالقرب من برج الحراسة على هذا الجبل اكتشفت أن منطقة واسعة من أشجار الأثل قد اجتثت حديثاً من جذورها؛ ولذلك تمتعت بمنظر غير منقطع من المشهد العام للمدينة على خلفية الشمس الغاربة، بينما كان الجو الساكن يرتج بالصياح الأجش[٢] للمؤذنين الكثيرين الذين يرفعون آذان الصلاة من المآذن المستدقة الأطراف.

الآذان هنا بصورة عامة فيه نغمات موسيقية أكثر عذوبة مما في الرياض[٣]، على الرغم من أنه لا يمكن أن يُقارن بنغمة الأصوات في مناطق الحدود، والتي كان أثرها ـ على كل حال ـ ينعكس في الإخراج شبه المسرحي للصلوات في بعض المساجد المعتادة. فلقد كان إمام المصلى الصغير الملحق ببيت الأمير ـ الذي أتيحت لي فرص متكررة لمشاهدة أعماله ـ على سبيل المثال حالة واضحة في صميم هذا الموضوع. فبعد أن ينتهي من عمله مثل المؤذنين باللهجة السورية ذات النغمة العالية

(١) يقصد بـ (المجر)، أي المكان الذي خصص على طرف البئر أو العين، كي يذهب فيه الحيوان (الجمل، أو الحمار، أو الثور) الذي يستخدم لرفع المياه من الآبار والعيون أثناء ري المزروعات. (ابن جريس).

(٢) الصياح الأجش للمؤذنين: عبارة غير لائقة ولا موفقة من فيلبي، فلا يقال على المنادي للصلاة في الأذان بأن نداءه يعتبر صياحاً أجشاً. وكان بإمكانه أن يقول: الصوت المرتفع أو العالي للمؤذنين، أو ما شابه هذه الكلمات. (ابن جريس).

(٣) الأذان وما يقال فيه من كلمات، والطريقة التي يقال بها ليست نغمات موسيقية كما يذكر فيلبي. وإنما هي كلمات ونداءات ينادي بها المؤذن للصلاة. (ابن جريس).

المتكلفة، حي على الصلاة ، إلخ، ينزل ليؤم الصلاة، ويؤديها بنغمات مؤثرة عاطفياً مع المخرجات من التبديل والتوليف في أساليب التعبير. فيستهل الصلاة قائلاً: «الله أكبر» وينطق كلتا الكلمتين نطقاً تاماً، ثم «الله ـ » بتركيز مؤثر في العواطف على الكلمة الأولى بينما يكبت الثانية تماماً، وبعد ذلك مرة أخرى « ـ أكبر» ثم يعكس العملية، وأخيراً «الله أكبر» بنغمات الحديث العادي. وفي سورة الفاتحة يُخرج بصدق النغمة الخارجة من الأنف وهي السائدة في الشمال. كان النداء الأول قد رُفع من المئذنة الضخمة في المسجد الكبير، وعندما انضمت إليها المآذن المجاورة، كان أولئك الذين يتلكؤون بين الحدائق أو عند سفح النفود قد استداروا على عجل متجهين بخطاهم نحو المدينة ليقضوا أفضل لحظات اليوم في الصلاة في أماكن العبادة المكتظة. وأدى مروج صلاته على انفراد على الرمل بجواري، وجلسنا فترة إلى أن نبهنا الشفق المظلم بسرعة للعودة. ومثل رفاقه من العبيد، عايض وسرور، والأخير قد ترقى الآن ليصبح مساعداً لحسين، كبير الرماة. وقد كان مروج حتى العام الماضي في خدمة ابن الرشيد بحائل. وبعد ذلك فروا سراً، فقد جعلهم الضغط الاقتصادي بلا شك يعانون حياة ثقيلة مرهقة شيئاً ما في عاصمة شمر، ليبحثوا عن عمل مع ابن سعود، الذي في ظل نظام حكمه أصبحت حياة العبيد مليئة بالراحة العائلية البهيجة والسعادة الحقيقية. وقضى مروج ذات مرة خمس أو ست سنوات مع فخذ ابن رازي من قبيلة أسلم تحت حكم الشيخ ذعر بن رازي حيث اكتسب معرفة معقولة ببلاد شمر.

استمرت إقامتي في بريدة حوالي سبعة عشر يوماً، وإذا كنت لم أر إلا قليلاً من مجتمعها حاد الطبع وقاسي المزاج، لكنني افتقدت قليلاً تفاصيلها الطبوغرافية، الخارجية أو الداخلية، فالمدينة التي تغطي مساحة مقدارها نحو (١٨٠)[١] فداناً،

(١) تعتبر مستطيلة الشكل طولها (١٢١٠) ياردة وعرضها (٧٥٠) ياردة. (فيلبي).

محاطة بالكامل بسور سمكه قدمان، وارتفاعه من خمسة عشر إلى عشرين قدماً، وتعلوه أهداب من الأبراج المدرجة. وكما أشار داوتي، فإنها تركب فوق جبلها، الذي كان محورها، مثل موجات[١] النفود المتجهة مباشرة نحو الغرب، لتمتد شمال غرب وجنوب شرق. وقمة الجبل، التي كانت صخورها التحتية مكسوة بطبقة رقيقة متناثرة من الرمل، تحمل السور الشرقي بطول مستقيم تقريباً نحو (١٢٠٠) ياردة في اتجاهات محور الجبل، ومنه تنتشر المدينة نازلة نحو الغرب والجنوب تقريباً حتى قاع القناة بين الجبل وأقصى موجة في اتجاه الخروج من النفود[٢]. والقناة نفسها من نقطة معاكسة للطرف الشمالي من سور المدينة حتى أبعد طرف من بساتين السبخ نحو الجنوب تحتوي على خط غير منقطع تقريباً من النخيل يتفاوت في عرضه وكثافته. والسور الدائري يتطابق مع شكل هذا الحزام من النخيل ومع منحدرات الجبل في الشمال، والغرب والجنوب. وفي الجهة الشرقية ينحدر الجبل بصورة مفاجئة لينزل في منخفض ضحل من الجبس، والذي توجد فيه مجموعة من الآبار تسمى سقاء، وهي مصدر مياه الشرب للمدينة، ذي المذاق المعدني غير المستساغ، ويسبب عسر الهضم، والذي يبدو أنه يحول طعام المرء إلى رصاص، كما يوجد بستان من أشجار الأثل، قرب الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة. والآبار هنا تتراوح في عمقها بين ست إلى ثماني قامات، وليس في أي مكان، بقدر ما استطعت أن أتأكد، بمنطقة بريدة أن الماء يُكتشف قريباً جداً من السطح على عمق ستة أقدام مثلاً، التي قال عنها بلجريف إنها أعمق منسوب للماء وجده في كل

(١) جبال النفود الأقرب للوادي تقع تقريباً في الشرق والغرب، وربما أكثر دقة شرق/جنوب/شرق وغرب/شمال/غرب (فيلبي).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن جغرافية وتاريخ مدينة بريدة منذ تأسيسها في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). انظر: العبودي، بلاد القصيم، جـ٢، ص ٤٦٧ وما بعدها، الريحاني، ملوك العرب، جـ٢، ٦١٢ وما بعدها، فؤاد حمزة. البلاد العربية السعودية (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨) ص ٢٧٢ - ٢٧٣، عبدالفتاح حسن أبو علية. الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز (الرياض: مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، ١٣٩٦هـ)، محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ٣٩ - ٩٥ (ابن جريس).

القصيم. وجاء الماء في بئر حُفر حديثاً في منطقة الجردة عند عمق اثنتي عشرة قامة، وأخرى رأيتها في طور الحفر قرب البوابة الجنوبية، والذي لم يكن قد وصل إلى الماء بعد، والعمال يظنون أنهم لن يضطروا للحفر أكثر من تسع قامات[١].

توجد أربع بوابات رئيسة في النقاط الأصلية الأربع، من بينها تلك البوبتان في الجهتين الشمالية والشرقية وهما الأكثر أهمية، فالأخيرة كانت تستخدم للمرور نحو الجنوب والشرق، بينما كانت القوافل القادمة من والقاصدة إلى جبل شمر أو الحجاز تستخدم الأولى. والبوابة الغربية أو الباب القبلي يؤدي فقط إلى بساتين النخيل وجبل النفود، في حين كانت البوابة الجنوبية أو باب الصباخ أيضاً ذا أهمية فقط للضواحي. وهناك بوابة ثانية، تؤدي فقط إلى بساتين النخيل وتعرف أيضاً باسم الباب القبلي، قد ثبتت نفسها بين الاثنتين المذكورتين أخيراً، بينما توجد بوابة غير مهمة في السور الشرقي شمال البوابة الرئيسة أو باب القصر. وتنتصب القلعة العظيمة المعروفة باسم قصر مهنا في موقع مشرف بين البوابتين الشرقيتين، ويشكل امتداد السور الشرقي الرئيس جانبها الشرقي. وهي عبارة عن مربع ضلعه مئة ياردة تبرز نحو الغرب من السور نحو فضاء كبير شبه دائري حيث ترى بقايا أساسات البيوت القديمة التي تدل بوضوح على أن اضطرابات حكام الماضي قد دفعتهم إلى حكمة الاحتفاظ بميدان رماية مكشوف حول المقر الرسمي. هذه المساحة المفتوحة والمباني المحيطة مباشرة بحافتها شبه الدائرية تشكل ما يسمى حي الجردة[٢] وجنوب هذا الحي توجد أحياء أخرى تعرف باسم الجديدة نحو الجنوب الشرقي، والبوطه نحو الجنوب الغربي، وربيشة[٣] نحو الغرب حول الباب

(١) المراجع نفسها. (ابن جريس).

(٢) الجردة: ذكرها فيلبي باسم جرادة (Jarada) والصحيح ما تم ذكره. انظر: محمد الربدي، جـ١، ص ٢٤٦. (ابن جريس).

(٣) ربيشة: هذا الاسم الصحيح لهذا المكان، مع أن فيلبي ذكره باسم (الدواش)، والصحيح ما تم ذكره. (ابن جريس).

القبلي[١]، على الرغم من أن المرء لا يسمع هذه الأسماء على الإطلاق كثيراً، إذا سمعها أصلاً، من شفاه الرجال. إن حي الجردة، لأنه أرض التخييم المعتادة، يُذكر اسمه أحياناً، مثل الحي الذي يُعرف باسم الشمال أي الحي الشمالي الذي يحتل المساحة كلها شمال وغرب الجردة وشمال الأسواق، التي تُكوّن حياً خاصاً بها في قلب المدينة[٢]. والشارع الرئيس في المدينة يؤدي من البوابة الشمالية إلى السوق الصغير، ربما كان السوق الأصلي من عهد أقل ازدهاراً، وهو أرض تخييم بيضاوية محاطة بالدكاكين التي تستمر لمسافة ما نحو الشمال حتى الشارع الرئيس.

هذه الدكاكين في معظمها يشغلها الحدادون الذين يبدو أنهم منهمكون دائماً في طرق القدور والأواني والغلايات التي تمثل المشغولات المعدنية في المدينة. والمواشي ومعظمها من الإبل، يبدو من الواضح أنها تباع في حي الجردة، حيث في أحد أيام إقامتي شاهدت هناك حشداً كبيراً من العرب وحيواناتهم حيث تباع بالمزاد. وكانت كل مزايدة تُقدّم وينادي عليها الدلال ثم ينادي وينادي عليها مرة أخرى بينما الضحية المعنية في الحلقة يبذل جهوداً شديدة الاهتياج للهرب، ولكن دون أي أثر واضح على حشد المشترين أو المشاهدين بشغف. ولقد كان المزاد يسير ببطء شديد لدرجة أنه في حالة حيوان واحد يرتفع المبلغ المعروض من سبعين إلى ما لا يتجاوز ثمانين دولاراً فقط بزيادة دولار واحد في كل خطوة خلال ربع ساعة. ولقد كان صبر الدلال عجيباً حقاً. وإلى الجنوب مباشرة من هذا السوق، ويشغل المسجد الكبير الموقع المتوسط تماماً في الزاوية المشكلة من معبر الشارع الشمالي

---

(١) من أحياء بريدة المشهورة في النصف الثاني من القرن الهجري الماضي. حي الشماسي، حي الصناعية (العجيبة) حي الجردة، حي ربيشة، حي الجديدة، حي السادة، حي التغيرة. للمزيد انظر: محمد الربدي، جـ١، ص ٢٤٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن مدينة بريدة، انظر: حافظ وهبة، ص ٦١ – ٦٢؛ الهويمل، ص ٥١، ١٧٢، المعارك، ص ٢٩ وما بعدها. كما انظر خريطة بها الأسماء التي أوردها فيلبي أثناء زيارة بريدة عام (١٩١٨م)، محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ١٩٤ وما بعدها (ابن جريس).

الجنوبي الرئيس المذكور آنفاً والشارع العام الذي يربط البوابتين الشرقية والغربية، وهو مبنى فسيح طوله مائة ياردة من الشرق للغرب، ومحوره يمتد ربما بالأحرى من شرق / شمال / شرق إلى الغرب / جنوب / غرب وعرضه أقل بقليل من أربعين ياردة. وطبقاً لبعض الروايات يشغل هذا المسجد، المشيد حديثاً نسبياً، موقع الحصن الأصلي لحكام بريدة من آل أبو عليان المعروف باسم قصر حجيلان الذي سكن فيه داوتي يومين عندما حل ضيفاً على جبير.

على كل حال فإن «المئذنة المربعة» التي ذكرها داوتي لا يمكن أن تكون المئذنة التي توجد الآن، وهي قاعدة عريضة دائرية تنتهي في طرف رفيع مستدق. ومن الواضح أن بعض التغييرات قد طرأت على مباني بريدة منذ تلك الأيام. وعلى العموم، وبعد الاستماع لروايات مختلفة عن الموضوع، توصلت إلى نتيجة مفادها أن قصر حجيلان الذي ذكره داوتي ربما يكون قد قام في موقع يحتمل أن يكون قد شكل جزءاً من التوسعة اللاحقة المعروفة باسم قصر مهنا أو قصر آل حسن[١] الذي لا يرى الآن إلا كنواة للقصر الكبير[٢] والقصر جرى توسعته كثيراً على يد عبدالعزيز بن رشيد، كما كان يخضع لكثير من التحسينات الإنشائية وإعادة الترتيب في وقت زيارتي. والمدخل الوحيد للقصر هو الباب الرئيس في الوسط بالجهة الجنوبية. ومن هذا الممر المظلم الذي يبلغ طوله خمسين قدماً وعرضه عشرة أقدام وارتفاعه خمسة عشر قدماً، يمكن الوصول من تحت غرف المعيشة إلى باب داخلي يؤدي للفناء، ومنه يصعد المرء بالدرج إلى المجلس الكبير أي غرفة الاستقبال العمومية في الطابق الأول. وعلى اليمين عندما يكون المرء متجهاً شمالاً تجد المجلس القديم الذي شيده ابن رشيد مع أن نحو ثلثي طول الجدار الجنوبي قد أخذ لعمل غرفة استقبال

(١) سمي علي حسن المهنا أحد أمراء بريدة السابقين. (فيلبي).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن تأسيس وتواريخ قصور بريدة مثل: قصر حجيلان، وقصر آل حسن، وقصر حمود الدريبي، وقصر عبدالله بن مساعد، وغيرها من الحصون والقصور الأخرى، انظر: الهويمل، ص ٤٦ - ٥٠، محمد الريدي، ص ١٩٢ وما بعدها. (ابن جريس).

ابن سعود الجديدة، أو بالأحرى جناح سكني عام أو شبه عام. وتبلغ أبعاد المجلس الجديد (٤٤×٢٢×١٨) قدماً، ويجاوره غرفة نوم عرضها اثنان وعشرون وطولها عشرة أقدام فقط، ملحق بها دورة مياه كبيرة وربما مساكن أخرى، والجناح كله يمتد للداخل ببلكونة عريضة ذات أعمدة ومنها يطل المرء على قصر حسن القديم، الذي يشغل الزاوية الشمالية الغربية من الفناء، والمباني الجديدة، المكونة من مسجد ومساكن خاصة لابن سعود نفسه، التي كانت في طور الإنشاء بالقسم الشمالي الشرقي. وتحاط أسقف الأقسام المختلفة من القصر بأسوار ارتفاعها ستة أقدام تقريباً، وفيها الزخارف المعتادة من الأبراج المدرّجة، ويشرف على الحصن كله برجٌ أوسط شاهق الذي يرفعون عليه هذه الأيام المصباح القوسي المألوف الذي جُلب من الرياض، مع التجهيزات المنزلية الأخرى التي تشمل عدداً من النساء الإماء. والمعلومة الأخيرة جاءتني من أحد العبيد الذي كان يقوم على خدمتي، ولكن على الرغم من أن الدليل الواضح يشير إلى أن هؤلاء النسوة كن يخدمن كمحظيات، وهذا هو الدليل الوحيد لاتخاذ المحظيات المعترف به عند الوهابيين الذي نما إلى علمي. والحقيقة أنني لم أشعر أبداً بصدق هذه المعلومات إذ كنت في الغالب أعتقد أن هؤلاء النسوة الإماء قد جُلبن للقصيم كهدية لزوجة ابن سعود في عنيزة. إن الأمة غير المتزوجة تكون، على الرغم من ذلك، «حلال» أو شرعية بموجب أحكام الإسلام، والأطفال المولودون منهن يُعترف بهم كذرية من آبائهم، ولابن سعود، على ما أعتقد، بنت واحدة من التسري في الرياض[1]. ويقال إن واحدة من البنات التي جُلبن للقصيم كانت في سنواتها الغضة تماماً وأخرى قد أعطيت لاحقاً لابن نصبان بعقد شرعي.

(١) كتب السنة والفقه الإسلامي مليئة بالقواعد الشرعية عن أوضاع الإماء الجواري والزوجات الحرائر، وما هي الحقوق والواجبات على كل صنف من هذه الأصناف، وبخاصة فيما يتعلق بالزواج والمناكحة. انظر: كتب الصحاح والسنن الأخرى. (ابن جريس).

وفي العاصمة الوهابية يُسمح للنساء الإماء بقدر كبير من الحرية في موضوع رؤية الرجال والنساء من نوعهن، ولكن هنا في بريدة مع وجود الكثرة الكثيرة من العبيد غير المتزوجين في قافلة الجيش، فقد كن يبقين في عزلة صارمة.

إلى جنوب المسجد الكبير[1] مباشرة يمتد سوق الحشائش، يمكن أن ترى أعداداً كبيرةً من النسوة يبعن البرسيم أو الحشائش الصحراوية، مثل النصي وما شاكلها. ومن هذا الشارع كما أيضاً من الشارع الموازي له في الجهة الشمالية من المسجد يوجد بابان يؤديان إلى الساحة المفتوحة للمسجد التي تشغل حوالي نصف المساحة كلها والنصف الآخر للإيوان المسقوف الذي تسنده الأعمدة. وهناك باب آخر في الجهة الشرقية الضيقة من المسجد يتبعه آخر للاستخدام الخاص للأمير، وبالطبع لابن سعود وأسرته عندما يكون مقيماً. ذلك على الجهة الغربية قريباً من البروز الخارجي الصغير لمكان القبلة. ومن خلف سوق الحشائش نحو الجنوب يقع السوق الرئيس، الذي يتكون من شارع رئيس عريض يمتد شمالاً وجنوباً، وفيه نحو مئة دكان على كل جانب وشوارع جانبية كثيرة، كل منها يبدو أنه مخصص لنوع واحد من البضاعة. أما الشارع الرئيسي من جهة أخرى ففيه أنواع مختلطة كثيرة من السلع معروضة للبيع في المحلات. وهناك الملح الصخري بكتل كبيرة ذات لون بني يميل للحمرة والهيل والبهارات الأخرى والقهوة والبصل والتمور والبطيخ والقرع. وجزء آخر من الشارع الرئيس كان مخصصاً لبيع الأغبطة (الأخراج) ومطاحن القهوة المصنوعة من الحجر الرملي، والملابس مختلفة الأنواع، والبنادق (ومن هذه شاهد بيع واحدة من نوع قديم بمبلغ ثلاثة دولارات) واللحم. أما سوق اللحم

(١) يوجد حوالي اثني عشر مسجداً في المدينة، وكلها فيها مآذن مستديرة الطرف تبدأ من قاعدة عريضة إلى قمة رفيعة. (فيلبي). ومن أسماء بعض تلك المساجد التي شاهدها فيلبي ما يلي: مسجد جامع بريدة الكبير، مسجد الجردة، مسجد عودة الرديني، مسجد أبا البطين، مسجد معارك، مسجد المشيقح، مسجد ابن شريدة، مسجد الحويزة، مسجد ابن خضير. للمزيد انظر: المعارك، ص ٥٨ - ٦١. (ابن جريس).

الـرئيس ـ الـذي يغلب فيـه لحم الإبل ـ فـهـو في أحـد الشـوارع الجانبيـة. وكـان حشـد المشـترين يمثل مشـهداً حياً في سـاعـات الصبـاح، عندمـا يكون أحيـاناً من المسـتحيل تقريبـاً أن تتحرك دون أن تصـطدم بكائنات بشرية أو غنم أو صـفوف من الإبل تجلب العلف أو الحطب. ولقـد قـدّرت أنه لابد أن يكون عـلى الأقل مـجـمـوع الدكـاكين ثمـان مئة في كلا السوقين مع فروعهما المتنوعة، وربما يكون هناك أكثر من ذلك بكثير[١].

بالإضافة إلى منطقـة الجردة الكبيرة المفتوحـة تبدو مسـاحة المدينة كلها مـشغولة عن آخـرهـا بـالمبـاني، على الرغم من أن القـسم الجنوبـي لم يجـذب إلا مؤخـراً انتبـاه البنـاة المحليين. هـذه المنطقـة، مع ذلك، تمتلئ بسـرعـة، وفـي هـذه الفتـرة يبـدو أن مـهنـة البنـاء بلغت أوج ازدهـارهـا ورواجهـا. والتـراب لصنع الملاط ـ كمـا قيـل لي ـ يُجلب من منخفض بعيـد من الصـفـراء الشـمـاليـة، والتي توفـر أيضـاً المحـاجـر التي تؤخـذ منهـا مـواد البنـاء المطلوبة. لقد كـانت بريدة من جـميع الوجوه مدينة مـشيـدة بصورة أفضل من عنيزة[٢]، ولربما يظن المرء بحق أن إنشـاءهـا قـد تطور طبقـاً لخطة مدبرة تدبيـراً حسناً. وهـي أيضـاً أكبر من أختهـا. وعندمـا وضعت في حسبـاني حقيقـة أن مبـانيهـا أشد رحـابة وأفضل مسـاحـة من تلك الموجودة في منافسـتها، فـقد توصلت إلى نتيـجة أن سكان المـدينة لا يمكن بأي حـال أن يقلوا عن عـشـرين ألف نسـمـة[٣]. والعناصـر

(١) لمزيد من التفضيـلات عن النشاط التجاري في بلاد القصيم، وبخاصـة في مدينة بريدة ومـا حولهـا، انظر: محمد الربدي، جـ٢، ص ٢٤٦ – ٢٥٥، حافظ وهبة، ص ٦١، الهويمل، ص ١٢٥ – ١٢٨. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على معلومـات أكثـر عن الأحيـاء السكنية والعـمـارة التقليـدية في بريدة، انظر: مـحـمـد الربدي، جـ٢، ص ١٧٤ – ٢١٦، المعارك، ص ٥٧ – ٦١، الهويمل، ص ٥١ – ٥٧. (ابن جريس).

(٣) هناك بعض الروايات التي تذكر عدد سكان بريدة من عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م). حيث أورد البستاني أن عددهم في ذلك العام (١٣٠٠هـ) يقـدر بـ (٢٥٠٠٠) نسـمـة، ثم جاء لوريمر عـام (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م) فـذكـر أن عـددهم (٧٥٠٠) نسـمة، وجـاء حافظ وهبـة بعد فيلبي عام (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) فذكر أن عددهم يقدر بـ (٣٠,٠٠٠) نسـمة، وتوتشل ورضـا كحـالة عـام (١٣٦٤هـ/١٩٤٤م) ذكـرا أن عـدد السـكان في بريدة يقـدرون بـ (٣٠,٠٠٠) نسـمـة.انظر: بطرس البسـتـاني، دائرة المعـارف (طهـران: طبـاعـة مطبوعـات اسـمـاعـيليـات، د.ت) مج٥، ص ٤٠١، كارل. سـي. توتشل، المملكة العربية السعودية وتطور مصادرها الطبيعية. تعـريب شكيب الأموي (القاهرة: د.ت) ص ٨٢، وهبة ص ٦١، التركي، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م) ص ١٧٧، محمد الربدي، جـ١، ص ١٢٩. (ابن جريس)

السكانية فيها كما يُقال من شمر، وبني خالد، وعتيبة وسبيع وتميم الحتمية (فخذ الوهبة)[١] ناهيك عن السلالة المختلطة من بني خضر[٢] والمظهر الديني السائد كان وهابياً ومتعصباً بشكل واضح، بيد أن هذا التعصب من نوع مختلف عن تعصب الصحراء، فهو تعصب مدني له مظاهر خارجية قليل العمق والإخلاص نسبياً.

قبل أن أغادر بغداد متجهاً للجزيرة العربية منذ سنة تقريباً كنت قد كُلفّت من صديق قديم، يدعى سليمان الدخيل، أن أحمل رسالة وذهباً بقيمة عشرة جنيهات استرلينية لأحد أقاربه يسمى عبد الرحمن الدخيل. وفي الوقت نفسه كان الأخير قد تلقى رسائل تفيده بالأمانة التي كُلفّت بها، وفي نفس اليوم بعد وصولي إلى بريدة جاءني أحد الموظفين في خدمة ابن سعود قائلاً: إن عبد الرحمن؛ لأنه لا يقدر على مغادرة الدكان، قد كلفه أن يأخذ الرسالة والمال مني. ولأنني أدركت أن السبب الحقيقي لم يُذكر صراحة، فقد أجبته بأنني لا أستطيع أن أسلم المال إلا يداً بيد، وتبعاً لذلك زارني عبد الرحمن في اليوم نفسه عصراً. ولقد استقبلته ببرود مناسب، واندفع هذا الفتى الغر، الذي خرج لتوه من مرحلة المراهقة عائداً على عجل، ولكن ليس قبل أن يتكبد مشقة عد العملات الذهبية بنفسه. ولم أره بعد ذلك أبداً.

وقد تعرفت فعلاً على مقيم آخر في بريدة الذي أرسل رسالة عن طريق رشيد مفادها أنه يود أن يجدد تعارفاً بدأ في البصرة وأنه شغوف بدعوتي لبيته. ولم أكن أتذكر اسمه، عباس الفلاجي، وكنت مقتنعاً تماماً أن عيناي لم تقع أبداً عليه من قبل، عندما ـ ذات صباح وبينما كنت أهم بالدخول عائداً من زيارة للسوق ـ قدّم إليّ رشيد بتملق رجلاً كان يتحدث معه في فنائنا قائلاً: «هذا عباس». ولقد واصلت

(١) لمزيد من الإيضاح عن بعض القبائل التي استوطنت القصيم منذ فترة مبكرة، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ٩٢، ١٣٠، ١٥٥. (ابن جريس).

(٢) إليها تنتمي نسبة كبيرة من الموظفين وخدم المنازل مثل إبراهيم الجميعة، ورشيد، وحتى شلهوب، والأغرب من ذلك ابن سويدان الكاتب السري الذي كانت ملامحه من النوع النجدي القمح وعويد وابن نصيان.

سيري دون زيادة عن التحية الرسمية وعندما تبعني زائري بعد ذلك بدقائق قليلة إلى غرفتي، واضطر إلى أن يقر بأنه في الحقيقة لم يقابلني أبداً من قبل. وأردف دفاعاً عن نفسه قائلاً: «بيد أنني ذات مرة، رأيت النقيب ولسون[1].

وأتذكر أيضاً مقابلة كوكاس (Cokas) الكبير في بغداد، ولكن ذلك كان منذ زمن طويل في عهد السلطان عبدالحميد». ليست أنبل خواص عباس الوحيدة غرائبيته وهاجسه بأنه شخصياً على معرفة بكل المشهورين في نطاق عالمه الصغير، وفي النهاية، ليس من الصعب على عربي أن يخلط اسم السير بيرسي كوكس مع السير وليم ويلكوكس (Sir Percy Cox and William Willcocks)، خبير الري العظيم، الذي قابله مصادفة. وحسب ما هو معروف عنه كان عباس رجلاً من الدرجة الدنيا وشخصية لا يؤبه بها، وأصله من شمر، وانتقل من حائل ليقيم في شمر منذ حوالي اثنتي عشرة سنة مضت، لسبب ما لا يُفضّل الخوض فيه. لماذا أراد أن يستقبلني في بيته هذا ما لم أستطع أن أسبر غوره، على أنني عندما قلت إن فترات العصر تكون بشكل عام خالية بقدر ما يهمني الأمر بادر فوراً إلى الرد قائلاً: إنه هو نفسه نادراً ما يكون في بيته إلا بالليل. وعلى الرغم من أن السبب الواضح من هذا الرأي أن تكون الزيارة ليلاً، إلا أنني وجدت نفسي في إحدى الليالي بعد ذلك بأيام قليلة انطلق في طريقي بعد صلاة المغرب نحو الجزء الجنوبي من المدينة، حيث كان عباس قد اشترى بيتاً بمبلغ ألف ريال. وكان باب البيت، مثل معظم الأبواب في بيوت الطبقة الأفضل حالاً، من الخشب الثقيل، وبه لوحة عرضية في الوسط مرصعة بمسامير ضخمة، وكانت المطرقة حلقة معدنية عادية قطرها حوالي بوصة ونصف البوصة. وبعد الباب مباشرة توجد صالة صغيرة خالية وعلى اليسار يوجد المدخل إلى مجلس القهوة، وهي غرفة طيبة من وجهة النظر المعمارية كأفضل ما رأيت خلال مدة إقامتي كلها بنجد. وسمك جدران المبنى نحو ثماني عشرة بوصة، وفيها ثلاثة

(١) النقيب (والآن السير أرنولد) آيهزتي. ولسون، نائب رئيس الضباط السياسيين في قوات بلاد الرافدين. (فيلبي).

مداخل، غير مدخل البيت تؤدي إلى أجزاء مختلفة من البيت، وهي مغطاة بلياسة طينية بُنية عادية. وترتفع لنحو ٢٥ قدماً تشمل نوعاً من الرواق المعمد المنور، المقام على عشرة أعمدة، ويمتد حول دائرة الغرفة كلها. وأبعاد الأخير (٢٥×١٥) قدماً. ولم تكن هناك أية محاولة للزخرفة الجدارية بخلاف علامة الوسم[١] بالدهان الأبيض في أحد أطراف الغرفة ونموذج لزهرة الزنبق فوق موقد القهوة عند الطرف الآخر، بيد أنه هنا وهناك تنتشر آثار باهتة من القوالب المثلثة البارزة بروزاً خفيفاً. وبني السقف من عوارض الأثل الموضوعة فوق كمرات من جذوع النخل تسنده الأعمدة المذكورة آنفاً والتي تنتهي بتيجان عادية مستطيلة ومزينة بقوالب ثلاثية باهتة. وهناك جدار منخفض في أعلاه شريط من الأبراج المدرجة يمنع رؤية الأروقة من أسفل[٢].

هذه هي غرفة استقبال عباس، الذي اعترف بكل تواضع أنه يوجد ربما ثلاثة أو أربعة بيوت أخرى في بريدة في مثل مستوى بيته، وقال لي: إن عمر بيته لا يزيد على عشر، سنوات. وقد جلسنا متحلقين على السجاجيد ومعها كمية كبيرة من المخدات المصنوعة من أفضل أقمشة مانشستر، ولقد أدهشني كثيراً كيف أن واحداً قليل الأهمية يحيا حياة شديدة الترف مثل هذه. وقال: «كل شيء أملكه، أدين به لابن سعود» واستنتجت أن العاهل الوهابي ربما وجد طرقاً ووسائل للاستفادة من تابعه البسيط قليل الأهمية، الذي كنت على كل حال شاكراً له للفرصة التي منحها لي لرؤية وفحص على مهل الأجزاء الداخلية لأحد أفضل البيوت في المدينة الرائدة

(١) هذا الوسم كان مرسوماً على عمود بنقش بارز قليلاً ويستمر نازلاً على العمود الأوسط في الرواق المنور في طرف الغرفة. (فيلبي).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن العمارة التقليدية في بريدة وعموم بلاد القصيم، انظر: محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ١٧٤ وما بعدها، عبدالرحمن الشريف، منطقة عنيزة (القاهرة: مطبعة النهضة، ١٩٦٩م)ص ٢٠٨، محمد العبودي، جـ٢، ص ٤٩٥، دوكسيادس. بريدة، الأوضاع الراهنة والتوصيات للإجراءات الفورية (تقرير معد لوكالة وزارة الداخلية لشؤون البلديات، وزارة الشؤون البلدية والقروية حالياً، التقرير رقم (٦) يونيو، ١٩٧٣م ص ٢٩٥ (ابن جريس).

بوسط الجزيرة العربية. وفي إحدى المناسبات كنت أشيد بالفخامة والراحة في بيوت القصيم بشكل عام، عندما نبهني ابن سعود، الذي يتفق معي جزئياً في هذا الرأي، إلى عدم افتراض أن جميع الغرف في المنازل بالدرجة نفسها من الفخامة مثل غرف الاستقبال العمومية. فقد كانت الغرف الأخرى بشكل عام خالية جرداء، وليس في كل البيوت دورات مياه مناسبة، فعلى المرء أن يغتسل في العراء أو يستخدم إحدى غرف المعيشة مؤقتاً لهذا الغرض. وتبعاً لذلك لم يكن رجال القصيم ولا نساؤها يغتسلون كثيراً، ولكن في الرياض كانت هذه العادة أكثر شيوعاً. إن بريدة تشتهر ببنائيها، والتحسينات التي يجري تنفيذها في هذا الوقت بالقصر في الرياض تجري تحت إشراف رجل من بريدة كلف خصيصاً لهذا الغرض.

كما في الرياض، كان سقف سكني يطل على مشهد واسع من أسطح البيوت المجاورة التي كنت عند الغروب وفي الساعات الباكرة من الصباح أرى أحياناً نساء المدينة وهن يؤدين أعمالهن المعتادة. وعند غروب الشمس على نحو خاص، عندما يكون جميع الرجال من السكان يقيناً في الصلاة بالمساجد، فإن طبقات مجتمع نسوة بريدة يظهرن بأزيائهن فوق الأسطح، وتأخذهن الشجاعة للتجول هنا وهناك وهن حاسرات وجوهن دون حجاب كاشفات بهاء خصلات شعرهن المضفر. ولقد رأيت ربما ما لا يقل عن ست من أفضل طبقات النساء بهذه الطريقة، وكلهن غافلات عن اهتمامي بهن[١]، ولم تبهرني واحدة منهن بما يبرر تفاخر القصيم بجمال بناتها. ولقد راقبت سيدة، كان ثوبها الخارجي[٢] بعيداً كل البعد عن الجدة أو الرقة، لأنها على وجه خاص ورعة تقية وتنتظم في وضوئها وصلاتها، على أنه في معظم الأحوال فإن

(١) هذه الطريقة التي يرويها فيلبي تعتبر تجسساً على عورات الناس، وهذا ما يحاربه الشرع الحنيف، وربما كان فيلبي نفسه يعلم ذلك لسعة اطلاعه على العلوم العربية، ولكن الأمر لا يهمه كثيراً لأنه عاش في مجتمع أوربي منفتح، ثم إنه أيضاً ما زال حتى قيامه بهذه الرحلة خارج دائرة الإسلام. (ابن جريس).

(٢) أكثر الألوان شيوعًا كان الأحمر والأزرق النيلي الداكن.

النساء لا يلتزمن التزاماً صارماً بالأوقات المحددة للصلوات، ولا سيما في الصباح حيث يؤدين أحياناً الصلاة بعد طلوع الشمس بوقت طويل[١]. وفي إحدى الأمسيات كنت قد اضطررت إلى الابتعاد المهين وراء ستار جدراني عندما برزت سيدتان شابتان على سطح غير بعيد ولم يُظهرا أي علامة على الخجل عندما اكتشفاني أتفرس في منظرهما، بل إنهما أبديا رغبة مثيرة في شخصي ومظهري.

في أحد الأيام وهو يوم جمعة، الذي كان من عادة ابن سعود أن يوزع فيه صدقات على الفقراء والمحتاجين، لاحظت ما لا يقل عن مئتي امرأة من الطبقة الأكثر فقراً كاسيات بثياب خارجية فضفاضة من قماش السموك (Smock) الأسود الداكن وأغطية وجه من قماش الموسلين (Muslin)، وقد جلسن في صفوف على طول السور الخارجي للقصر وجدران البيوت حول حافة الجردة وهن يستفدن من مزايا ظلالها الهزيلة جداً عند الظهيرة أو في أوائل فترة العصر. وهناك جلسن في صبر شديد ينتظرن دولاراً أو جزءاً منه يكون نصيبهن الأسبوعي. ومن ذلك المكان في وقت لاحق من اليوم رأيتهن جميعاً يسرن في جماعات عائدات من الأرض الفضاء. وفي أثناء ذهابهن شاهدت دوامة حلزونية هزيلة من الغبار تتصاعد من الرمل على الأرض حتى ارتفاع مئة قدم وتتحرك ببطء وهدوء إلى الأمام، وعندها انطلقت من كثير من النسوة نداءات ورع ليتجنبن تلك العواقب التي قد تنذر بها مثل هذه الظاهرة الطبيعية. وهللن قائلات: «لا إله إلا الله» و «أستغفر الله».

في مرة أخرى، التي تصادف أن تكون في اليوم الذي غادر فيه ابن سعود في زيارة قصيرة لعنيزة، خرجت أمشي متنزهاً مع متركٍ ومروج كما كانت عادتي أحياناً. ولما لم يكن لنا هدف خاص في بالنا، فقد ضربت في الأرض جزافاً عبر متاهة من الشوارع الجانبية التي أوصلتنا إلى حافة السوق. هنا في شارع جانبي

(١) تأخير الصلاة عن وقتها منهي عنه في الشريعة الإسلامية إلا عذر شرعي كالنسيان مثلاً أو النوم. (ابن جريس).

شاهدت صفاً من النساء متراصات لبيع الأواني المتنوعة. فإحداهن معها سلة من بتلات الزعفران، واثنتان أخريان تبيعان سكراً أبيض من النوع الخشن، بينما أخرى تضع أمامها سلة مليئة ببقايا متفرقة من بقايا ملابس قديمة، وقطن، وغير ذلك. وعلب أعواد الثقاب اليابانية منتشرة بشكل عام هنا، من نوع «ماركة الأسد» المصنوعة في اليابان لحساب شركة بارسي (بومباي) في بهيموالا (Bhimoiwala)، وكانت ماركة «ركس» الأشد شيوعاً، بينما في الطائف وجدت منتجات من النمسا وفي الرياض كانت علب الكبريت من النمساء والسويد. وذخيرة البنادق، التي تكلف دولاراً لكل سبع أو خمس عشرة خرطوشة في شقراء والرياض على التوالي، وهي أرخص نسبياً، فكل عشرين خرطوشة تكلف ريالاً، وكان كبار الموردين لها من رجال قبيلة حرب الذين يحصلون عليها بلا مقابل من الشريف.

ولقد واصلنا سيرنا ودخلنا في سوق العلف الذي يجني أرباحاً هائلة من الأكوام المتكدسة من العلف الأخضر وحشائش الصحراء.

وهكذا ظللنا نسير مارين على الدكاكين عندما لاحظت مجموعة صغيرة من أصحاب المحلات والزبائن يحدقون فينا بنظرية معادة باردة. ولقد رددت عليهم بالتحديق والتفرس فيهم بثبات، وعندها لامسني شعور بالعداء تجاههم عندما تذكرت أن كثيراً من ثروتهم قد تحققت من التجارة غير المشروعة في منتجات الكفار، ولكنهم قد غضوا عيونهم. وبالإضافة إلى الأواني والأوعية المشار إليها آنفاً، فإن مصنوعات بريدة ترتبط في معظم الأحوال بالجولد والصناعات المتصلة بها، وتشمل سروج الإبل وتجهيزات الإبل من كل نوع، والأغبطة والعُقل (العقالات) والصنادل وأغمدة البنادق والخناجر الجلدية وأغمدة وأحزمة الطلقات ... إلخ[1]. وهكذا سرنا حتى خرجنا من

(١) كانت بريدة أثناء زيارة فيلبي تعد من الأسواق التجارية المهمة التي ترد إليها البضائع المتنوعة من العراق والشام وغيرها، انظر: الربدي، جـ٢، ص ٣٣٨ - ٣٤٦، الهويمل، ١٢٥ - ١٢٨. (ابن جريس).

المدينة بالبوابة الجنوبية الغربية ودخلنا في الحدائق الغناء وراءها، حيث تجد الأرض مكسوة بغطاء كثيف من البرسيم أو مزركشة ببقع اليقطين الممدد على الأرض. هنا وهناك توجد أيضاً مجموعات صغيرة من أشجار القطن بطولها الأقصى، وأوراقها الصغيرة مقارنة بما في الجنوب، وكانت ثمارها الكروية قد انفجرت لتوها لتعرض الزغب الأبيض من داخلها. في معظم الأحوال يُزرع القطن في هذه المنطقة كنبات حدودي فاصل وبكميات ضئيلة. وكانت بقع الدخن الأخضر تضفي تنوعاً على المنظر المزدهر الوديع، الذي تنساب خلاله بخريرها قنوات صغيرة بمياه الآبار المتدفقة في كل اتجاه. وفي أحد الأماكن صادفت خزاناً صغيراً تشكل من إعاقة قناة البئر بسد صغير من البناء، ومن فتحة فيه يتدفق الماء بفقاقيع بهيجة كما لو كان من غدير جبلي، بينما بعده تجري قناتان في زاوية قائمة مع بعضهما البعض تعبر إحداهما فوق الأخرى بمجرى مائي قصير من الألواح الصخرية[1].

في كل الأرجاء كان النخيل يرتفع شاهقاً فوقنا، سامقاً وكثيفاً، بأعذاقها الضخمة من الثمار التي في معظمها لم تنضج بعد. هنا وهناك تنتشر تعريشات مؤقتة من جريد النخل يستظل فيها العمال حتى يستريحوا من كدهم اليومي. وهكذا، وفي أثناء تجوالنا، أتينا إلى الطرف البعيد من حديقة كبرى والتي دخلناها من ممشى مفتوح. وأعاق تقدمنا للأمام أكثر جدار طويل منخفض من الطين، ما يزال رطباً، وفي أحد أطرافه وجدنا مجموعة صغيرة من الرجال ما تزال تعمل فيه. ولتفادي التحويلة المرهقة، قفزت فوقه واثباً، وفعل رفاقي الشيء نفسه بعد لحظة من التردد، وأصبحنا فجأة على مواجهة مع صاحب الحديقة وهو يصيح فينا بغضب «ماذا تفعلون وتأتون من خلال حديقتي؟ ليس هناك طريق خلالها ونساؤنا حاضرات

(١) أرض بريدة، بل عموم بلاد القصيم، تتوافر بها الآبار والعيون الصالحة للزراعة، كما يزرع بها أصناف عديدة من الفواكه والخضراوات، كالتمور والبطيخ وغيرها. للمزيد انظر: محمد الربدي، ص ٣٢٩ - ٣٣٧، المعارك، ص ٨٨ - ٩٩، وهبة، ص ٦٠ - ٦٣. (ابن جريس).

بها (هذا كان غير صحيح). تباً لكم». وكالمعتاد في مثل هذه الظروف حاولت أن أتفادى عراكاً بمواصلة السير في طريقي دون الالتفات إلى تهديد صاحبنا ووعيده، والذي لم يكن بالتأكيد قريباً بدرجة كافية ليعرفني، ولكن الخسة واللؤم فيه قد نشبا في مترك، الذي على الرغم من أوامري له تباطأ متخلفاً لبعض المسافة عني ويصيح بالسباب للطرف الآخر. وهذا ألهب غيظ المالك الذي تقدم علنيا بشتائم جديدة بينما تسمّر مترك في مكانه متحدياً ورجع مروج ليسانده. وبالتالي اضطررت للتدخل، وكان عليّ أن أرجع لأفرض سلطتي على رفاقي، الذين بعناد شديد ابتعدوا عن احتمال الشجار، ولكن في الوقت نفسه رضيت بنظرة تعجب وذهول غشيت وجه المالك عندما عرفني واستدار مبتعداً دون أي نقاش إضافي[1]. ولقد صحت خلفه أنه يستطيع أن يذهب إلى ابن سعود إذا كانت لديه أية شكوى يقدمها بدلاً من أن يهدر غضبه على الكلاب التي ترافقني. عند ذلك استدرت إلى مترك وصرفته في الحال، ومضى عابس الوجه مقطب الجبين، وعندما عدت للبيت ذهلت من سؤال الدكتور عبدالله لي عما حدث. لقد ذهب مترك مباشرة للأمير ليقول: إنني أرسلته ليرفع شكوى رسمية ضد المالك المسيء، الذي تم استدعاؤه، وكان على وشك أن يودع في السجن على أساس أنه أهانني ومد يده حقيقة على مترك. وقد جئت فعلاً في الوقت الملائم لأمنع عدم إقامة العدل، وكان مترك هو الذي قضى اليوم في حبس انفرادي بالمطبخ وهو مذهول تماماً من نبذ لقصته البارعة علانية بأنها كلها مجموعة من الأكاذيب. وعلى الرغم من ذلك، كنت قد وزعت الهبات المتعلقة بالرحلة الأخيرة في اليوم السابق لذلك، ولم يخسر ولو قليل مما يقدّره فعلاً حق قدره.

---

(١) سبب انصراف صاحب الأرض بعدما تأكد أن فيلبي واحد من الذين اجتازوا أرضه، وذلك يعود إلى معرفة هذا المزارع بأن هذا الإنجليزي (فيلبي) مدعوم من الإمام ابن سعود، ولهذا خفت حدته وغضبه نحوهم حتى لا يصل خبر عضبه وعنفه معهم إلى ابن سعود ومما يتضح عن جميع رحلات فيلبي في جزيرة العرب أنها أيسر وأسهل من غيره من الرحالة لما وجده من دعم وحماية من الملك عبدالعزيز. وبفضل هذه الميزات فقد خلف لنا فيلبي دراسات كثيرة وجديدة عن أجزاء عديدة من الجزيرة العربية، في جميع جهاتها. (ابن جريس).

خلال جولاتي في الصباح رأيت سعد اليُميني في السوق، ولاحظت أنه قد أدار عمداً تماماً ظهره لي كما لو كان يتوقع شخصاً ما من الاتجاه المقابل. وبالقدر نفسه من التعمد مشيت إليه وواجهته بالتحية، وعندما تغيرت طريقته فوراً، ورد التحية بود شديد على الرغم من وجود شهود على الحادثة. وقال علانية ـ ربما بحق ـ إنه قد زارني في الليلة السابقة عندما كنت بالخارج، وفي جميع الأوقات كنت على ثقة من وده التام على الرغم من أن خوفه من الرأي العام قد زاد بالخطر الموجود دائماً من أن أعداءه قد يبلغون عن سلوكه هذا إلى أب عجوز شديد التعصب الذي كان يخشاه كثيراً[١]. وعلاوة على ذلك، فإن سعد الذي بدأت أول تجربة له في الخدمة النظامية في البكيرية[٢] في (١٩٠٤م) عندما هزم ابن سعود ابن رشيد وحلفاءه الأتراك، وذات يوم ارتدى هو نفسه الغترة البيضاء، على الرغم من أنه منذ ذلك الحين قد تاب عن ذلك النشاط وانغمس في مستنقع الغواية سراً. وفي هذا الوقت كان يقوم بالرعاية الخاصة للأميرين الصغيرين فيصل[٣] وفهد[٤] وكان الأول أكبر قليلاً من الثاني، وطبقاً لما قاله سعد، فهو فتى وديع ودمث الأخلاق فوق ذلك. بينما كان فهد عادياً سريع الغضب قليلاً، يتوق دائماً للشجار والعراك، حتى وهو في عمره الغض (اثنتا عشرة سنة) يبدي ميولاً نحو التعصب الأعمى. ومنذ وقت قريب استل سيفه على أحد خدمه، وأصابه بجرح في ذراعه ومزق عباءته ولكن حمله الخزي على إصلاح ما أفسده بتقديم اعتذار وعباءة جديدة.

---

(١) كان بعض الأفراد في بلاد القصيم، وكذلك في مناطق الجزيرة العربية، أثناء رحلات فيلبي يعمدون إلى تجنب الجلوس أو الحديث معه، لما قد يسبب لهم من متاعب عند كثير من عامة الناس كون هذا الرحالة غير مسلم وما زال على ملة الكفر، وربما يصل بالبعض إلى وصفه بالنجاسة وما شابهها. (ابن جريس).

(٢) وهو الآن نائب الملك على ملكه. وزار أوروبا في (١٩١٩م) ومرة أخرى في (١٩٢٦م). (فيلبي).

(٣) توفي خلال انتشار وباء الإنفلونزا في ديسمبر (١٩١٨م). (فيلبي).

(٤) لمزيد من الإيضاح عن معركة البكيرية بين ابن سعود وابن رشيد عام (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م) انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، جـ٢، ص ٨٣ – ٩٠. ولمعرفة معلومات أكثر عن مدينة البكيرية، انظر: على بن سليمان المقوشي، البكيرية، ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

في عصر اليوم نفسه، ولأن ابن سعود قد رحل ودون أن يلوح عمل أو نشاط آخر في الأفق رحت في سبات القيلولة مبكراً عما هو معتاد، ونمت حتى وقت متأخر من العصر، عندما جاء محمد بن شلهوب ليخبرني أنه بعدما أتى ليأخذني إلى مجلس تركي بعد صلاة الظهر فوراً وجدني نائماً فتركني وحالي. ورداً على احتجاجي بأن جميع جهودي لرؤية شيء ما من المجتمع في المكان قد انتهت بالفشل والإحباط، فقد دعاني فوراً للفطور معه في الغد واتفق معي على أن رشيد كان قصبة مكسورة. لقد كان بالتأكيد يملك أرق وأكرم القلوب مع روح الدعابة التامة. وقال: «لابد أن تتغاضى عن البساطة الريفية الجلفة لأهل بيتي، لأنك، لو تعرف الحقيقة أن زوجتي، على الرغم من شدة جمالها فهي امرأة سليطة فظيعة وشديدة النكد معي لدرجة أنني ليومين لم أقربها». هذه المرأة التي كانت أرملة أو ربما زوجة مطلقة من أحد أفراد عائلة ابن شريدة الشهيرة، يحتمل أنها قد عُرضت على ابن سعود، الذي على أي حال تجاوز عنها لصاحب خزانته ولم يكن إلا الخوف من الإساءة إلى سيده هو الذي يمنع الأخير في هذا الوقت من التخلص منها. وعلاوة على ذلك فقد أنجبت له ولداً ما يزال رضيعاً، ولكن ابن شلهوب البائس قد تحمل عبء أولاد زوجها السابق، وهم ولد كبير وآخرون. هذه هي سعادتهم المنزلية أحياناً. ومع ذلك فقد اعترف أنه في مرات كثيرة عندما يكون بعيداً عن هذه السيدة، فإنه في الحقيقة يجد نفسه يفكر فيها بحب وحنان، على الرغم من أنه عندما يكون معها لا يشك أبداً أنه يكرهها. ومع ذلك فإنها تتمتع بشهرة عظيمة في طبخ المرقوق[1]، وقد دُعيت بسرور لتذوقه إن أردت.

بناءً على ذلك في الغد، عندما جاءني حمدان، رافقته إلى بيت ابن شلهوب وراء السوق الرئيسي في شارع جانبي يؤدي إلى البوابة الجنوبية الغربية. ودخلنا

(١) المرقوق: يصنع من دقيق البر، ويقطع إلى دوائر نصف قطرها حوالي (١٥) سم تقريباً، ثم توضع في قدر يغلي لبعض الوقت، ويضاف إليها بعض أنواع الخضراوات وربما اللحم أحياناً. (ابن جريس).

البيت من باب مصنوع من خشب الأثل الصلب المرصع بمسامير حديدية كبيرة مبرشمة ومزخرف بسلسلة مطرقة بدلاً من الحلقة المعدنية الصغيرة المعتادة في هذه المدينة. إن المطارق الصلبة في عنيزة لم تكن على ما يبدو معروفة في بريدة[١]. ومجلس القهوة، على الرغم من أنه كان مؤثثاً بصورة جيدة بالسجاد والمخدات، لكنه بدا حقيراً بجدرانه العارية إلا من لياسة الطين غير المزخرفة. وكان العمود الأوسط من الحجر المكسو بالجبس الأبيض يدعم السقف، وعمود آخر مماثل مطمور في الجدار، الذي يحتمل أنه كان إضافة لاحقة لغرفة أكبر يدعمها صف من الأعمدة[٢]. ومن بين الضيوف المدعوين لمقابلتي شخص يدعى سعود، كاتب صغير في زمرة الكتبة الملكيين، وعبدالله بن نصبان الذي جاء من أجل قدر كبير من المزاح الخفيف والكلام البذيء بسبب زواجه الجديد في الليلة الماضية. وقد قُدّم الفطور في صالة خارجية صغيرة وقد كان ممتازاً بحق، على الرغم من أن مرقوق السيدة كان خبيصة مخيبة للآمال من الخبز غير الناضج المتبل بالبصل المهروس والصلصة الغنية. وبالإضافة إلى ذلك هناك طبق كبير من الأرز مع لحم الضأن ولحم الغزال، ناهيك عن لحم الدجاج، والبيض المسلوق سلقاً شديداً، والباذنجان المسلوق والمقطع إلى نصفين. ولقد شعرت أن لدي ما يبرر إفادة مضيفي عندما كنت أهم بالاستئذان للانصراف أنه، مع زوجة قادرة على إعداد طعام شديد اللذة، فليس لديه بحق كثيراً مما يشتكي منه[٣]. وقد ذكرت من قبل ملاحظات على ندرة الفاكهة في بريدة على الرغم من أنني شخصياً لم يكن لدي إلا القليل أشتكي منه في هذه الناحية، لأن محمد السليمان، الذي رافق ابن سعود في عودته لعنيزة والذي أخذ معه هدايا

(١) لمزيد من التفصيلات عن النواحي العمرانية في كل من بريدة وعنيزة، انظر، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٧ - ٢١٨، الهويمل، ص ٥١ - ٥٨، محمد الربدي، بريدة، جـ٢، ص ١٧١ - ٢٢٦ (ابن جريس).

(٢) المراجع نفسها. (ابن جريس).

(٣) للاطلاع على معلومات أكثر من أنواع الأطعمة والأشربة في بلاد القصيم، انظر: الهويمل، ص ١٦٧ - ١٧٠، محمد السلمان، ص ١٧٠ - ١٧١، عبدالعزيز بن راشد السنيدي. الربيعية ص ١٩٣ - ١٩٨، علي المقوشي، البكيرية، ص ٤٣، عبدالله بن محمد العبيد، البدائع، ص ٩٣ - ٩٥. (ابن جريس).

معينة مني لأطفاله الصغار كان كريماً بما يكفي لإرسال صفيحتين من صفائح الكيروسين لي مملوءتين بالفاكهة من بساتين عنيزة. وبناءً على ذلك أصبح عندي تموين كامل من الخوخ، والتين، والرمان، ناهيك عن التمور لعدة أيام، ولكنها بكل المقاييس كانت نعمة مشوبة بالنقمة. فلقد بدأ الذباب يأوي إلى مسكني بأعداد موجعة، وهو من نوع ذباب الصيف النعسان الفظيع، وهذا بلاء عظيم شديد الكسل لدرجة أنه لا يفعل شيئاً إلا أن يغرق نفسه في الشاي أو حتى في ماء الشرب هذا إذا لم يزعجني في نوم القيلولة بالزحف فوق وجهي.

لقد وضع فهد بن معمر بكل كرم اسطبله تحت تصرفي، وفي عصر أحد الأيام ركبت متنزهاً على حصان رمادي جميل ومعي منور ومروج على طول طريق حائل الذي يتجه شمالاً تقريباً فوق سهل من الصخر الرملي حتى الصفراء[1]، وعبرها يمتد الطريق على طول واد ضحل باتجاه شمال غرب. ومن فوق ركام من الحجارة على أقرب نقطة في الوادي ألقيت نظرة رائعة على منطقة بريدة كلها، حيث البرج الأوسط في الحصن الكبير في الجنوب واضح تماماً، والسهل تتناثر فيه الخطوط الداكنة للواحات العديدة المنتشرة حول المدينة. ويبدو أن النفود تمتد عبر حدود الصفراء في شبه دائرة شاسعة، والمساحة المطوقة بهذا الشكل كانت سهلاً واسعاً يتكسر عند مسافات فاصلة بجبال رملية ذات ارتفاع منخفض ومن الرمل الأشد بياضاً من النفود نفسها. وبالنسبة للبقية فالسطح مكوّن جزئياً من الحبيبات الخشنة على جهة الصفراء وأحياناً من الطين. وتتدفق المياه المنصرفة من منطقة الصفراء نازلة على طريق حائل وفي القنوات الأخرى نحو الجنوب لتسقي الزراعة في المنطقة[2]. وأفضل نظرة عامة عليها يمكن الحصول عليها من هذه النقطة على

(١) تتكون الصفراء من سلسلة من السهوب (سنبس) تبدأ من الأجراف المميزة من الأجزاء الغربية وتتجه منحدرة نحو الشرق. وكانت ثلاثة من هذه السهوب ترى من النقطة التي أنظر منها. (فيلبي).

(١) للحصول على معلومات أوسع عن جغرافية بريدة، انظر: محمد الربدي، جـ١، ص ٢١ - ٥٥ (ابن جريس).

طريق حائل، على الرغم من أن منظر المدينة وما يحيط بها مباشرة من برج المراقبة على أول جبل في النفود ربما كان أشد جاذبية وجمالاً، ويمكن أيضاً الحصول على نظرة جيدة من نقاط مختلفة على جبل وهطان (الذي أخذ اسمه من بقعة نخيل كبرى وقرية متهدمة قريبة منه) نحو الشرق. وهناك جبل رملي منخفض يفصل هذه الواحة الصغيرة عن الأخرى التالية نحو الشرق وتسمى الخضيراء، وهي قرية صغيرة وبستان جميل من النخيل. ووراء ذلك جبل رملي آخر عليه برج حراسة[١] يشرف على المنطقة المحيطة به، ويخفي واحة صغيرة تسمى خب القبر[٢]. وإلى الشمال من المدينة على مسافة غير بعيدة يقع حقل أطلال الشماس الذي يشتهر بأنه الموقع الأصلي لقرية بريدة الأولى[٣]. وتبدو آثارها ذات تاريخ حديث نسبياً، وهي مجرد تلال من الطين المتهدم مع بقايا من بناء حجري. وقد بحثت بقدر ما استطعت، حتى بمساعدة غير مجدية من منور ومروج، اللذين بذلا أعمالاً بطولية فذة في الحفر بمجهود غير ناجح لاستخراج جربوع من جحره، لكنني لم أتمكن من العثور على أقل أثر يثير الاهتمام إلا عدد من القواقع البرية وشظية واحدة من فخار خشن. نحو الغرب منها تحت حافة النفود تقع أرض نخيل مطرحي وعبر الشماس ومروراً ببرج حراستها المهدم، يمتد الطريق حتى القصيبة (القصيباء) والقرى الأخرى في شمال غرب القصيم[٤].

---

(١) البرج الأوسط في الحصن كان للشمال قليلاً من الغرب (فيلبي).

(٢) هناك بساتين نخيل أخرى أو قرى في هذه المنطقة ذكرت أسماؤها لي، وهي: العكيرشة، والسُمير والرفيعة (فيلبي).

(٣) الشماسي: كان قرية قديمة، يقال إنها أقدم بلدان القصيم عمراناً، حتى قيل إنها كانت أكبر من بريدة. وكانت إمارة الشماسي لجماعة من الوداعين من الدواسر، من ذرية شماسي بن سابق، وكان مرتب الشماس معروفاً إلى عهد قريب. وللشماسي ذكر في التاريخ منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). الهويمل، بريدة، ص ٥٣. (ابن جريس).

(٤) للمزيد عن الأحياء السكنية في بريدة، انظر: محمد الربدي، جـ٢، ص ١٦٧، وما بعدها، الهويمل، ص ٥١ - ٥٧. (ابن جريس).

عاد ابن سعود من عنيزة في الثالث من سبتمبر بموكبه المهيب من خمسة وعشرين فارساً وأربعة وأربعين من راكبي الإبل محمولين على اثنتين وعشرين جملاً. وفي أول يوم نزل فيه ضيفاً على الأمير السابق العجوز عبد العزيز، والثاني على صالح الفضل، والثالث والأخير في بيت محمد بن سليمان الشبيلي، وهو تاجر ثري له أملاك هائلة جداً في البصرة[١]. وهكذا بعدما وزع فضائله بالتساوي بين كبار عائلات عنيزة، رجع إلى المدينة المنافسة لها بعزم واع واضح على مواجهة الحملة العسكرية التي تقترب بسرعة. ولقد وجدته نكداً دائم الشكوى نوعاً ما، فقد كان يأمل في تحسن كبير بالمواقف في الشرق نتيجة عودة السير بيرسي كوكس (Sir Percy Cox) للعراق، ولكن، بصرف النظر عن التعديل الطفيف جداً ولكنه مقبول في ترتيبات حصار الكويت[٢]، لم يُبذل أي مجهود لحل خيوط ورطة العجمان المتشابكة، وقد كان من الواضح أن سلطات البصرة بصورة عامة غير متفقة معي بشأن الرغبة في استرضاء ابن سعود. ولقد قام الآن بتقديم المهيب فيصل الدويش نفسه ليشرح الأثر على رفاقه من رجال القبائل الناتج من منع مطير من الانهماك في حملات عسكرية مضادة، على الرغم من أنه اعترف بأنهم أحياناً لا يأبهون بالحظر مثلما فعلت بريح مؤخراً في الرقعي، حيث استولت على أربعين جملاً محملاً بالقهوة، والأرز، والأسلحة في طريقها إلى حائل.

وعلاوة على ذلك، لم نكن نعرف بعد في الجزيرة العربية أن السير بيرسي كوكس قد عاد فحسب إلى بغداد في طريقه لطهران، حيث من المقرر أن يتولى منصب

---

(١) عن الأوضاع التجارية في القصيم وصلاتها مع بلاد الطرق والشام، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥ وما بعدها، عبدالفتاح أبو علية، الدولة السعودية الثانية، ص ٢٧٣، سيد بكر، ص ١٨، عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ١٢١. (ابن جريس).

(٢) عن الصلات السياسية بين ابن سعود والكويت أثناء زيارة فيلبي للقصيم (١٣٣٦هـ/١٩١٨م)، انظر: حافظ وهبة، ص ٨٧، خزعل، جـ٣، ص ١١٦، جـ٤، ص ١٨٦ وما بعدها، الخترش، ص ٩١ - ٩٢، جمال زكريا قاسم، ص ٥٠، السعدون، ص ١٩٦ وما بعدها، Philby, The heart of Arabia (Londnon, 1922) Vol. (2) p. 104 (ابن جريس).

الوزير البريطاني هناك. ولم يكن بوسعي غير أن ألح على ابن سعود بأن الاستيلاء على حائل هو الحل الوحيد لمشاكله، وقد كان واعياً بشكل كاف بهذه الحقيقة حتى إنه حدد تاريخاً لحشد قواته في بريدة. وهو في الأصل قد حدد المذنب كمركز للحشد، وكان على تركي أن يذهب إلى هناك في الوقت الملائم ليحضر القوة التي سوف يرافقها ابن سعود في المراحل الابتدائية فقط، بيد أنه منذ ذلك الحين قد عدّل خططه وكان للهلال أو القمر الجديد للشهر القادم (ذي الحجة) أن يرى بالتأكيد افتتاح الحملة العسكرية. وعلى الرغم من أن ابن سعود بدا قلقاً قليلاً لأسباب مالية خشية أن تتجاوز مدة العمليات طاقته على استمرارها، فلقد علمت أن عندي حيزاً من حرية العمل في هذا الموضوع بما يكفي لمساعدته عندما تثبت حاجته للمساعدة[1].

قبل هذا بيوم أو يومين وصل رسول من ضاري بن طوالة ومعه رسائل لي. وفي البداية طرده من أمام بابي خدمي شديدو الفضول لكنه تمكن من العثور على فرصة لتقديم نفسه لي. كانت رسالة ضاري مخادعة إلى أبعد حد؛ لأنها التماس طويل بوجوب أن أستخدم نفوذي عند سلطات البصرة لاستعادة مخصصه الشهري البالغ ثلاثة آلاف ريال سعودي بدلاً من المعونة المخفضة البالغة ألف ريال سعودي التي كان يستلمها منذ أن أصدرت توصية بأنه لا ينبغي أن يستلم شيئاً على الإطلاق. ولم يبذل أي محاولة لشرح سبب تركه لموقعه في الحفر وأخذ الحيطة بإرسال رسالته باليد مع شخص أبله، اسمه حدران، لكيلا أقدر على تمحيص تفاصيل مظالمه. وقد قدمت ردي شفوياً عن طريق القناة نفسها، بيد أنني لا أعلم إذا كان لدى حدران الشجاعة على الإطلاق لإبلاغ سيده بفشل مهمته. وقد ذكرت بوضوح تام رأيي في

(١) ما من شك في أن بريطانيا كانت تعمل لمصالحها في جزيرة العرب، وقد وجدت الإمام عبدالعزيز آل سعود أفضل القوى، لأن بقية الحكومات الأخرى كالأشراف وابن رشيد أصبحوا غير فاعلين ولا مجدين لمصالحها وسياساتها الخارجية. (ابن جريس).

خيانة ضاري لأمانته، وأردفت أنني لا أستطيع أن أجري اتصالاً معه إلا بعد أن يستأنف وظيفته في الحفر، ويأتي شخصياً لمقابلتي. وقد توصل إليّ حدران لكيلا أسيء تقدير سيده الشهم الكريم، وناشدني بشدة أن أجعل الرسالة خطية على الأقل. كل ذلك قد ذهب سدى، ورحل مكسور الخاطر عندما رفضت التماسه الأخير بهدية صغيرة لنفسه.

كان الموقف على جبهة الحجاز في هذا الوقت هادئاً بشكل أو بآخر، على الرغم من أن آخر الأخبار تشير إلى وجود الأمير شاكر في مران ومعه حشد معاد من القوات النظامية ومساعديها البدو. وعلى كل حال، فقد خسر بشكل خطير جزءاً كبيراً من هؤلاء البدو بإصدار أوامر لجباية الزكاة إجبارياً من ابن حميدي شيخ قبيلة عتيبة الذي دفع الزكاة لابن سعود ويدين بالولاء له. وكان الأثر فورياً؛ لأن ابن حميدي استدعى أتباعه كلهم وسار معهم لينضم إلى المدافعين عن الخرمة، التي تلقت أيضاً تعزيزات كبيرة من الأودية الجنوبية. وكان العتيبي الذي وصل إلى بريدة فوراً بعد مجيئنا قد خلق شيئاً من الحساسية بالضوء الذي ألقاه على طموحات الشريف. فقال: «إذا سلمت نجد كلها له، فلن يلين، ولو تنازلت له عن كل نسائك وأطفالك ورجالك، فلن يلين بعد. إنه دينك الذي يصمم على سحقه». بالنسبة لبدوي عادي فإن ذلك تقدير دقيق بشكل مذهل للموقف، بيد أنه برغم كل شيء كان ذلك معروفاً بصورة شائعة في جزيرة العرب، حتى البقوم[1] الذين كانوا سابقاً ملتزمين بإخلاص بقضية الأشراف، قد بدؤوا يشعرون بارتياب مفاجئ من مبررات هذه الهجمات على جيرانهم العرب مثلهم، وتلقى ابن سعود معلومات حديثة أن بيتهم قد انقسم على نفسه نتيجة الاضطرابات والقلاقل في تربة. ويهتم ابن سعود في هذا الوقت بشكل جاد في الحصول مني على تحديد معقول للسياسة البريطانية في

(١) للمزيد عن قبيلة البقوم، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ٢١١ (ابن جريس).

حالة المضاعفات الناشئة عن موقف الخرمة. ولم أستطع فقط أن أقول له إن الحكومة البريطانية تبدو أنها قد قبلت رأي القاهرة بأن الخرمة تقع داخل مناطق الشريف، وفي تلك الحالة لا يستطيعون منطقياً أن يعترضوا على أي عمل قد يتخذه الأخير لتأسيس سلطانه هناك، بل أردفت بالقول إنني قدمت آراء إضافية بهدف إعادة النظر في المسألة برمتها. ولقد كان صريحاً تماماً معي وحذرني من أنه لا يستطيع ولن يقبل أي مسؤولية عن أية عمل قد ينفذه أهل الخرمة في حالة تجدد الهجوم عليهم[1].

مهما كانت هذه الأمور فإن الاستعدادات الآن تسير قدماً للزحف ضد حائل، الأمر الذي ظل سراً دفيناً بشكل مقبول؛ لأنه ـ على الرغم من أن كل واحد يعلم بصورة غامضة ما هو آت ـ فحتى تركي لم يكن لديه معرفة دقيقة بخطط والده إلا في الخامس من سبتمبر، عندما صدرت أوامر بإحضار الإبل الملكية من الطرفية حيث كانت ترعى. في ذلك المساء وبينما كنت أجلس على جبل الرمل الغربي مع منور رأينا عدداً من الفرسان يتدربون على مناورات الحرب، وكان أحدهم ـ بعدما لاحظنا ـ قد جاء وانضم إلينا بعد انتهائه من المقارعة بالسيوف. هذا اسمه سليمان، المعروف أكثر بلقبه راعي القودة وهو عبدٌ طوقت شهرته كمحارب الآفاق في مناطق الصحراء كلها والذي صار اسمه مرعباً للبدو. ففي معارك مختلفة قد قتل تسعة خيول تحته، ومن الواضح من طريقته الحماسية أنه يتطلع إلى فرص جديدة للتميز. ولكن لماذا لم تغلق بوابات بريدة حتى الآن؟ سأل كل واحد الآخر، ففي العادة لمدة ثلاثة أيام قبل بدء الغزو تظل البوابات مغلقة خشية أن ينطلق الخونة من الداخل بأخبار العمليات القادمة. وخلال هذه المدة كان أي شخص يوجد كامناً بصورة مريبة في المنطقة المجاورة للمدينة يُقبض عليه، وذات مرة منذ سنة أو سنتين مضت

(١) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين ابن سعود والشريف على منطقة تربة والخرمة وما حولها، انظر: العثيمين، جـ٢، ص ١٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

تحدثوا عن جاسوس من حائل قد ركب فعلاً في قوم ابن سعود مباشرة خلال السير الليلي، بعدما فشل على ما يبدو في رؤية «عمود النار» أو الفانوس المقنع الذي يحل محل البيرق بعد الظلام، الذي كان يسير أمامه. ولم ينكشف السر إلا في الثامن من سبتمبر حيث كل شيء جاهز للجيش لينطلق في الغد[١]. وقد وجدت البوابات الفرعية مغلقة ومسمرة، بينما كانت البوابات الرئيسة تحت الحراسة.

من تلك اللحظة لم يكن مسموحاً لأي شخص غير مصرح له بأن يغادر المدينة، ولكن من المؤكد أن الأمر لم يكن ليحتاج إلا لقليل من الذكاء والفطنة لدى العدو ليدرك الحالة السائدة؛ فالعناصر المختلفة من الإخوان مخيمة في جميع أنحاء القصيم في أخباب[٢] متنوعة للتقليل من صعوبات الرعي والسقيا. وعلى الرغم من أن ابن سعود كان عنده رجال منتشرون في كافة أرجاء المنطقة يوثقون بالحبال ويحضرون المتخلفين أو الأشخاص المريبين، إلا أنني شعرت أن ابن رشيد وشمر بشكل عام قد تلقت تحذيراً تاماً من العاصفة التي توشك أن تنفجر فيهم[٣].

خلال هذه الأيام القلائل ومنذ أول مقابلة معه، كنت أرى راعي القودة كثيراً، الذي تطوع بتدريب حصان صغير قدمه لي ابن سعود مؤخراً. وقد وجدته شخصاً فذاً تماماً وغرامه بالخيول لا يسبقه إلا غرامه بالقتال. وقد بدأ حياته، بقدر ما تعي ذاكرته، في خدمة شيخ ما من حرب، وانتقل بالأسر في غزوة، إلى الخدمة في عتيبة، ومنها جاء على سبيل الهدية ليبقى في ملكية ابن سعود. ويبدو أنه خال تماماً

(١) تكتم الإمام عبدالعزيز بن سعود في بريدة على تجهيزاته واستعداداته لحرب ابن رشيد (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) ليست إلاّ جزءاً من سياسته في خوض الحروب ضد أعدائه، وهذا الأسلوب مستخدم قديماً وحديثاً في ميادين الحروب العسكرية. (ابن جريس).

(٢) أخباب: ومفردها خب، وقد يصغر خب إلى خبيب، ويقصد بها السهول، أو الأماكن الفسيحة التي تحيط بالقرى والمنازل، وأحياناً تستخدم لرعي البهائم، وقد يجلب منها الحطب أو الطين أو الرمل وما شابهه أثناء تشييد المنازل وتعميرها. (ابن حريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن قبيلة شمر، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

من الذكاء، إلا في مسألة الخيول والحرب، التي كان فيها عبقرياً، وقد زاد من بطء فهمه إصابته بالصمم الجزئي، ومعرفته باللغة العربية ناقصة أيضاً. وعلى الرغم من ذلك فهو أول من بارك لي اختياري من ثلاثة خيول جيء بها من الأحساء بأوامر ابن سعود لمنفعتي، وقد أكد لي أنني قد ضمنت أفضل حيوان يمكن أن يوجد في الجزيرة العربية. وفي الحقيقة كانت ضرورة الاختيار قد أصابتني بالحيرة قليلاً. فلم يكن هناك شك محتمل بشأن أيهم الأفضل من بين الحيوانات الثلاثة، بيد أنه تصادف ألا يكون إلا حولياً، أظن أن عمره خمسة عشر شهراً بالضبط في هذا الوقت[١]، وبالتالي ليس ذا فائدة لي في أغراض الركوب. أما الآخران فكبيران في السن، وقد اخترت الأفضل والأقل نفعاً من الثلاثة على أمل أن يكون عندي عذر مقبول لتركه عندما أضطر للرحيل.

وفي الوقت نفسه كان راعي القودة يدربه فيما أحب بحماسة وقوة مفرطة بالنظر إلى سنه الغض، وفي النهاية تبعني هذا الحيوان إلى البصرة، حيث دخل هناك في وظيفة متقلبة كثيراً إلى أن اقتربت من وظيفتي أنا ذات التقلبات المتكررة القدر نفسه. وانتهى ذلك في الأردن خلال (١٩٢٤م) حيث أجبرتني الظروف على بيعه بمصر ليبقى في الخدمة الإلزامية، وهناك وقع في أفضل الأيادي[٢]، وعندما رأيته مرة أخرى في (١٩٢٧م) على مضمار السباق في الإسكندرية، وهي أول مرة على الإطلاق أراه في السباق، وهو على الأرجح الأخير في حياته المهنية، سمعت مرة أخرى كلمات راعي القودة، ولكن هذه المرة من شفاه أوروبية حيث سمعته يُثني عليه بعبارات أذهلتني تماماً. فقد قيل: إنه أفضل حصان عربي أتى إلى مصر. فقد كان

(١) لمزيد من المعلومات عن الخيول العربية وأنواعها وأوصافها انظر: شير باتوف وآخرون. الخيل العربية الأصيلة مراجعة وتحرير عوض عطا البادي (الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) هو السيد/آية. إل. بناشي (Benachi)، المالك المعروف لخيول السباق في الإسكندرية (فيلبي).

على رأس الطبقة الأولى من فئته لثلاثة مواسم، وعلى الرغم من الليونة في إحدى رجليه التي سببت له إعاقة خطيرة وأثرت بالتأكيد على تدريبه، إلا أن سجله كان طيباً في السباق الحقيقي[1]. لقد كان بحق حيواناً جميلاً ويستحق تماماً المعاملة الفخمة التي يلقاها في كبر سنه. وقد قضى شهور صباه أيضاً في ترف؛ لأنه عندما جاء إليّ لم يكن قد ذاق أبداً الشعير، الطعام المعتاد للخيول في الجزيرة العربية. إنه بحق، كما قال لي الرجل العجوز الذي جلبه للقصيم، يتغذى تماماً على لبن النوق والتمور. وقد بدأ يقضم برفق التبن والبرسيم. وفي البداية سمي مرزوق، ثم أعيد تسميته في بلاد الرافدين على لونه، الرمادي المنقط بنقط ضاربة للحمرة، وحتى نهاية عمره ظل يحمل اسماً رومانياً (وأحياناً يكتب خطأ بطرق أخرى).

كانت تجارة الخيول العربية في الوقت الحاضر طبقاً لما قاله ابن سعود تشهد بالتأكيد فترة من الضعف والتدهور، وهناك قليل من بصيص الأمل في معافاتها. هذا الوضع يعود أصله إلى النقص الشديد في عدد الخيول المتوفرة في الجزيرة العربية خلال عهد الفوضى الذي سبق جلوس ابن سعود على عرش أسلافه، وخلال الحرب التي رافقت تأسيس سلطانه. فقد قتل عدداً كبيراً منها خلال هذه العهود المضطربة، والطلب المحلي استوعب كل الناتج من الجياد المولدة. هذه العملية يحتمل أن تكون قد أجبرت تجار الخيول في بومباي على البحث عن مكان آخر للوفاء بطلباتهم، ولبعض السنوات الآن لم تكن الأسعار التي يمكن الحصول عليها في السوق الهندي بتلك التي تشجع على التصدير. وعلى كل حال لم يربح ابن سعود إلا ألف ريال سعودي من عشرة خيول أرسلها حديثاً إلى بومباي، وهو يميل إلى الاعتقاد

(١) بالإضافة إلى ستة من السباقات التي ربحها في بلاد الرافدين بين (١٩١٩م) و(١٩٢٣م) فلقد كان سجله المصري كما يلي: «٢٦ سباقاً حاز على الترتيب الأول تسع مرات وعلى الثاني ثلاث مرات وعلى الثالث أربع مرات وورد في مقال بجريدة إيجبشيان جازيت (Egyptian Gazette) يوم (٢٦) يناير (١٩٢٨م) الفقرة التالية: «كم من النوع القديم الممتاز مثل روماني أو أمير تقدم نفسها للبيع هنا؟ والإجابة هي فرصة واحدة لا تتكرر». فيلبي.

بأنها لا تكاد تستحق العناء المبذول في سبيلها بحيث لا يهتم بها بعد ذلك. إن ناقوس الخطر على تربية الخيول في الجزيرة العربية ربما يكون قد قرع بحق مع قدوم البنادق والسيارات ذات السرعة العالية، وربما يظل الاحتفاظ بجياد الاستيلاد كهواية فقط للأثرياء؛ لأنه في الجزيرة العربية ـ مثلما في إنجلترا وأماكن أخرى ـ نادراً ما يحد نقصان المنفعة العملية للخيول من شعبيتها في ميادين السباق الوطنية. والهدف دائماً، كما يقولون أن «يلعبوا» عندما يركبون خيولهم للتنزه في فترات العصر[1]، وكنت أحياناً أنضم إلى تركي الشاب ورفاقه في لهوهم هذا، الذي يتكون بصورة أساسية من تمارين العدو. ويزعم تركي أن عنده أسرع حيوان في هذه البقاع، فرس رائعة من سلالة وذنة كحيلة، بيد أن سلمان العرافة لم يكن بعيداً عن ذلك بحصان ذي لون كستنائي (بني أحمر)، الذي ربح مؤخراً سباقاً طويل المدى الذي لم تنافس فيه الفرس وذنة.

وفي إحدى هذه المناسبات عندما رأيت فيصل بن رشيد راكباً بركاب شديد الصغر لدرجة أنه بدا من المستحيل له أن ينزع قدميه منه في حالة السقوط. عُرض عليّ مُهرٌ حولي، أيضاً من أصل وذنة، الذي كان يتوقع أن يصبح ممتازاً بشكل فائق. إن مقارعة الفرسان بالسيوف في هذه الأمسيات، التي شارك فيها حتى فيصل وفهد اللذين يبلغان ربما اثنتي عشرة أو ثلاثة عشرة من العمر في هذا الوقت وهما مخلوقان بهيا الطلعة. وتستمر المقارعة بصورة عامة نصف ساعة أو أكثر وتنتهي بجلسة خارجية حتى صلاة المغرب التي قبلها كنت أحرص دائماً على الاستئذان والمغادرة. كان الماء هو الشيء المرطب الوحيد الذي يقدم لهم، ولاحظت ذات مرة عندما دُعيت لتناول بعضه، أن الخادم يقدم لسعود الصغير وآخرين قبل أن يأتي إليّ. وكنت أظن أن ذلك سببه أن

(١) للمزيد عن أوضاع الخيل العربية في الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلي وعبر العصور الإسلامية المختلفة، انظر: جواد علي، المفصل، جـ٧، ص ١١٥ - ١١٦، شيرباتوف، الخيل العربية الأصيلة، ص ٢٢ وما بعدها. (ابن جريس).

يتفادى الآخرون الشرب من كوب لوثته شفتاي على أنني في هذا كنت مخطئاً تماماً؛ لأن الكوب نفسه استمر في دورته بعدما أتى إليّ[١]. إن «اللعب» بالخيول في الجزيرة العربية يصل إلى ذروته في صيد الغزلان بالكلاب السلوقي إذ هي رياضة جميلة. والصيد بالصقور مشهور بالطبع لكنني لم أر منه إلا قليلاً ـ إن رأيت شيئاً على الإطلاق ـ على الرغم من أنه في مناطق حدود بلاد الرافدين ينهمكون فيها بشدة. وصيد الأرانب البرية بكلاب السلوقي بالطبع رياضة شائعة في البلاد[٢].

بالإضافة إلى تدهور تربية الخيول كان الموقف الاقتصادي العام موضوع نقاش دائم بين مضيفي وبيني، فبالرغم من كل المظاهر لم تكن القصيم بكل المقاييس تكفي نفسها. وفي سنة عادية كان هناك طلب على استيراد التمور من الأحساء لتكمل النقص في إنتاج عنيزة، الذي لا يفي باحتياجات السكان في المدينة والبدو الذين يعتمدون عليها. وينطبق الشيء نفسه على بريدة، وفي الرياض استدعى الموقف فرض قواعد خاصة، فالبدو مسموح لهم بأن يشتروا التمور الطازجة هناك دونما قيد خلال الشهر الأول من الموسم، وبعده يمنع بيع الرطب لهم لتسهيل تخزين مؤن الشتاء، وكان السوق على كل حالٍ، يُفتح مرة أخرى للقبائل قرب انتهاء الموسم[٣].

إن القصيم ـ مثل المناطق الأخرى في نجد ـ تدفع الزكاة المعتادة للخزينة المركزية، ولكن بكل المقاييس في الوقت الذي عنه أكتب، لم تكن الإدارة في المنطقة قد أعادت امتصاص الإيراد كله بشكل عملي؛ فمعظم نفقات الدولة تحسب للصدقات، والهدايا، والمعونات للجميع، والنثريات المختلفة طبقاً لجدول محدد

(١) كان فيلبي يدرك أن كثيراً من الناس في جزيرة العرب ينظرون إليه على أنه غير مسلم، وبالتالي يتحاشون الجلوس والحديث معه، وهذا ما كرر الإشارة إليه في كتابه هذا وبعض كتبه ودراساته الأخرى. (ابن جريس).

(٢) ممارسة مهنة الصيد من الرياضات المحببة عند سكان الجزيرة العربية منذ القدم، ولا تزال تمارس حتى اليوم لكن بطرق أكثر إشرافاً وتنظيماً من مؤسسات الحكومة. (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن النشاط التجاري في كل من بريدة وعنيزة خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: محمد الريدي، بريدة، جـ٢، ص ٣٣٨ - ٣٤٦، الهويمل، ص ١٢٥ - ١٢٨. (ابن جريس).

ولتكلفة المؤسسة الدينية من القضاة، والنواب، والمؤذنين ... إلخ. ويعتقد ابن سعود أنه باستثناء ما يرد من الأحساء والموانئ البحرية، ما لا يقل عن سبعين بالمائة من إجمالي إيرادات نجد نفسها، من القصيم حتى وادي الدواسر، كان يعاد امتصاصه بهذا الشكل، ولا يبقى إلا ثلاثين بالمائة فقط، التي قد يكون من الصعب تقدير مبلغها الإجمالي، للأغراض العامة.

في هذا الوقت تعد أسعار الضروريات العادية للحياة منخفضة في القصيم، التي كانت في الماضي تقوم بتجارة ترانزيت مزدهرة مع حائل، والتي يدخل الآن زبائنها القدامى من شمر أسواقها وهم يُعرّضون أنفسهم للخطر. وفي حائل من ناحية أخرى كان كل شيء يباع بأسعار الندرة على الرغم من تهريب البضائع المتكرر من العراق، فالأرز ـ على سبيل المثال ـ يباع منه كل أربع صاعات بمبلغ جنيه واحد مقابل صاعين ونصف للريال في بريدة. وكان عدوان بن رمال[1] الذي زار ابن سعود مؤخراً قد جلب معه كهدايا فرس جميلة وذلول لم تقبل، قد توسل بغير جدوى للسماح له بأن يأخذ معه فقط ما يكفي لأسرته شخصياً من بضائع الأقمشة والمواد الغذائية. لم يكن لابن سعود لجميع مثل هذه الطلبات إلا إجابة واحدة: «ما دمتم باقون في الشمال فلن تملكوا شيئاً أستطيع أن أمنعه عنكم، ولكن انزلوا إلى مروى بوشوك ومن هناك إلى طوال مطير وسوف تكونون مثلنا». وهناك شيخ آخر من شمر، ابن عجيل، قد تمكن مؤخراً من الهرب بمائتي حمل من الشنافية واستمر عملاء شمر في تهريب البضائع إلى الخارج في أماكن التقاء بالصحراء ومن هناك تؤخذ وترسل إلى حائل. بيد أن ابن معمر كان له أو يقال أن له، جواسيسه في حائل نفسها، والمهربون النجديون الذين يقومون بعمل تجاري هناك كانوا عرضة لعقوبة سريعة بمصادرة ممتلكاتهم في الداخل.

(١) كان من فخذ الغفالة من سنجارة ويرافقه أولاد عمه، شاتي وسالم أبناء فهد بن رمال، ونايف بن محيرة بن رمال. والآخرون الذين كانوا في صحبته هم: شليعان بن مصلح من عقني وخشارة بن سعدي من فخذ الخرصة من جربع، ومياح بن فالح بن شلقان، وصلبي بن مترل،، وهذا هذال بن خيمة من آل جعفر. (فيلبي).

إن الفرق العظيم بين المدينتين الكبيرتين في القصيم كان دائماً يتمثل لي في أنه بينما أن مواطني عنيزة ومثلهم أيضاً في شقراء كانوا رجال أعمال مغامرين بمشاريع تجارية على نطاق واسع بينما أن كبرى العائلات في بريدة هم فقط جمالون بالمهنة. والسابقون، المعتادون على التجارة مع المراكز التجارية الكبرى مثل: بغداد والبصرة، والعمارة والكويت، والبحرين وبومباي، على اتصال دائم بالعالم العظيم، في حين كان الأخيرون ينتقلون فقط بين مدن الداخل والساحل مجرد حمالين للبضائع ولم يتصلوا إلا بأطراف الحضارة، يعربدون في رذائلها ومباهجها لأسابيع قصيرة قليلة في كل مرة ويلعنونها في موطنهم خشية أن يشك قومهم في حقيقة أمرهم.

ومع ذلك فإنهم أحياناً ما يعودون بدليل غير قابل للتجريح على احتكاكهم بأخلاق منحلة على هيئة أمراض هنا تسمى بشكل صحيح «أجنبية». ولقد كان الدكتور عبد الله دائماً مصراً على هذه النقطة، ويزعم أن جميع حالات الأمراض الجنسية يمكن أن تعزى مباشرة للساحل. وهناك حالة كان قد رآها مؤخراً وعالجها بنجاح جزئي والتي بدأت منذ خمس عشرة سنة مضت في الكويت، وصرّح بأنه في نجد لم يصادف أبداً نساءً في المدن يعانين من هذا المرض، على الرغم من أنه يعرف نساءً من البدو قد أصابهن أزواجهن بالعدوى. لقد كان يعمل بصورة متقطعة كطبيب، وعنده عدة حالات من الروماتيزم يعالجها بنفسه خلال هذه الأيام من إقامتنا المؤقتة في بريدة، والكثير من حالات العيون أيضاً، وهما أكثر الأمراض شيوعاً[1].

(١) لمزيد من التفصيلات عن الأحوال الصحية وأنواع الأمراض المنتشرة في الجزيرة العربية خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: بدر بن عبدالعزيز الربيعة. تطور الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية خلال مائة عام. بحث منشور ضمن مؤتمر الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة (الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ٩ وما بعدها، محمد حسن مفتي. تطور الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية. بحث منضور ضمن مؤتمر الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة (الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ١١ وما بعدها. (ابن جريس).

مثلما في عنيزة كان ملعب أطفال بريدة في الشوارع العامة، وبقدر ما امتدت معرفتي بهم فقد كانوا خالين تماماً من الوقاحة والبذاءة الفاسدة الموجودة عند من هم أكبر سناً. فقد كانوا كقاعدة عامة يحدقون بي وهم فاغرون الفم بشكل مرعب عندما أمر بجوارهم، ولكنهم لم يُظهروا أبداً أي ميل للتحرش بي أو حتى الازدحام حولي. ونسبة كبيرة منهم دائماً بنات، وطفلات جميلات رائعات تتراوح أعمارهن بين سبع سنوات نزولاً حتى سن الرضاعة. ولم يكنّ يلبسن أكثر من ثوب واحد فضفاض باللون القرمزي مع أو بدون الأكمام الطويلة في ملابس أمهاتهن. وكن بصورة عامة يمشين كاشفات الرأس، حيث يجمعن شعرهن في ست من الضفائر عليها شحم غزير وملطخة بالحناء. ربما يكون الشعر الطويل أفضل صفة تنال تقديراً من بين صفات الجمال الأنثوي كلها «رأسها طويلة جداً»، هكذا يقال عن النسوة اللاتي يتفوقن على أخواتهن في هذا الشأن. وعند حوالي سن السابعة أو الثامنة، عندما يبدأن في ارتداء الحجاب لأول مرة، تصنف أسعار هؤلاء البنات في الشوارع ويحجزهن مقدماً أزواجهن الراغبون فيهن أو آباء أزواجهن، مثلما قد يشتري المرء خيولاً حولية في معرض الجياد. ومن النساء الكبار أنفسهن لم ير المرء إلا قليلاً منهن في الشوارع ما عدا ثيابهن الخارجية المتسعة، على الرغم من أنه أحياناً، عند الالتفاف في زاوية أو ركن، قد يقتنص المرء لمحة خاطفة من الثوب الداخلي فهو بصورة عامة أحمر بالرغم من أنه قد يكون أسود والألوان الأكثر ندرة هي الأخضر أو غيره. وما يظهر من الجسم الجميل الهيئة الذي تحدد معالمه الثوب سرعان ما يختفي بعد سحب الخمار بالعرض. ويبدو أن للنساء، مثل الرجال، أجساماً رشيقة، صلبة ومتكاملة بصورة حسنة دون أي ميل للسمنة[1].

(١) لمزيد من المعلومات عن الحياة الاجتماعية في بريدة وغيرها من مدن القصيم وبخاصة تركيبة الأسرة، وكذلك طريقة اللباس والزينة، وغيرها من العادات المختلفة، انظر: محمد الربدي، بريدة، جـ١، ص ١١٧ - ٢٢٧، محمد السلمان، مدينة عنيزة ص ١٦٣ وما بعدها، عبدالله العبيد، البدائع، ص ٨٤ - ٩٥. (ابن جريس).

لقد تحقق فعلاً ارتقاء مهم للحركة الوهابية خلال أيامنا القليلة الأخيرة في بريدة بوصول صالح بن جبر من عائلة الرشيد، الذي أصبح ساخطاً ومستاءً من الصعوبات الملازمة للحياة في حائل[١]. وقد جلب معه أخباراً مؤكدة عن الوصول الآمن والإرسال اللاحق في مهمة إلى الجوف لعميل هام[٢] من عملاء العدو الذي قيل إنه قتل في أثناء عمليات لورانس على خط سكك حديد الحجاز[٣]. وأبلغنا أيضاً بأن ابن رشيد قد تلقى مؤخراً على سبيل الهدية من الأتراك خمسة وأربعين جملاً محملاً بالبضائع من دمشق، عشرون منها كانت للأقمشة، وعشرة للذخيرة والباقي محملة بمواد متفرقة، تشمل القهوة، والسكر والمال. وقد جاء صالح للقصيم مع رجل من معسكر العجيمي عند آبار حزل. ولم أكتشف ما إذا كان لاجئاً أو رسولاً. وكان العقيد ليتشمان (Colonel Leachman)، المعروف بصورة عامة في الصحراء باسم انجيمان ومتعب بن فهد[٤] بن هذّال، أكبر وأسن شيخ للعمارات يغيرون بهجمات متكررة على عصابات العجيمي. والأمور في بلد العدو غير مقبولة بشكل كبير لدرجة أن ابن شريم، وهو شيخ مهم في قبيلة عبدة وهو إما ابن عم وإما ابن أخ ابن عجيل نفسه، قيل إنه يفكر ملياً في الانشقاق والفرار إلى ابن سعود[٥].

وهناك آخرون وصلوا من حائل لاجئون أو متظاهرون باللجوء ولهم نوايا تجارية خفية، وفيهم عدد من الأشخاص الذين كانوا في دمشق منذ مدة غير بعيدة وبالتالي لديهم أو يُعتقد أن لديهم أخباراً حديثة ودقيقة عن الجبهة. وقالوا: إن الألمان قد

(١) للمزيد عن تاريخ بلاد حائل القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، جـ٢، ص ١١٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) عبدالحميد المصري (فيلبي).

(٣) لمزيد من الايضاح عن لورنس، انظر: انتوني ناتنغ وآخرون. لورنس لغز الجزيرة العربية (بيروت: مكتبة المعارف للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٤) توفي في عمر متقدم في يوليو (١٩٢٧م) ببغداد.. (فيلبي).

(٥) للمزيد عن عشائر وأفخاذ منطقة حائل، انظر، الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

اتخذوا ترتيبات محسوبة لتأمين سورية من الخطر الشديد، ولكنهم ليسوا في وضع يُمكنهم من التقدم. وكان الأتراك في آخر نفس لهم عندما تقدمنا واحتللنا السلط، على أن المساعدة الألمانية التي جاءت في وقت ملائم والانسحاب غير المبرر للبريطانيين قد أنقذهم من كارثة شاملة. والوضع الاقتصادي في سوريا شديد الخطورة ينذر بمجاعة وشيكة إلا إذا توفر فيلق حوران لخدمة الأتراك. ومع ذلك فالألمان كانوا بالفعل يحولون كميات كبيرة من الحبوب من هذه المنطقة إلى أوروبا. وجمال باشا «الكبير»، كما كان يسمى، قد أخلى منصب القائد العام في سوريا ليصبح وزيراً للمالية في إسطنبول، بينما سميه، المعروف باسم «الصغير»، قد تولى القيادة مكانه، وحل الموظف التركي محل والي سوريا السابق.

كانت الصحراء بين سوريا والقصيم طبقاً لما قاله هؤلاء الناس غير آمنة بشكل شديد لدرجة أن رشيد بن ليلى، الذي ما يزال في دمشق يواجه صعوبة كبيرة في الترتيب لإرسال مئونته وبنادقه الثلاثة إلى مقصدها. والقافلة المكونة من خمسة وأربعين جملاً التي أشرنا إليها سابقاً، على الرغم من أنها مؤمنة بحق المرور من خلال اصطحاب رفاق (Rafiqs)، إلا أنها اضطرت إلى شراء مرورها في الصحراء بمبلغ يصل إلى ألف جنيه إسترليني وصندوق أو اثنين من الذخيرة[١]. وكان نوري الشعلان من الرولة[٢] يعبث ويتدلل بصورة فظيعة مع كلا الطرفين ويجمع ثروة عن طريق تمكين عملاء سوريا من المرور حتى العقبة كأنهم تابعوه الشخصيون المصرح لهم بشراء وجلب المؤن حتى الجوف بينما وجهتهم الحقيقية دمشق. والانطباع

(١) العلاقات التجارية بين بلاد الشام وأجزاء عديدة من الجزيرة العربية مثل: وسط نجد وبلاد القصيم كانت في وضع مضطرب أثناء صراعات ابن سعود مع ابن رشيد (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن قبائل الرولة ومواطنهم وعاداتهم انظر: لويس موزل. أخلاق الرولة وعاداتهم. ترجمة محمد بن سليمان السديد (الرياض: مكتبة التوبة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م) ص ٥٦ وما بعدها، كنز الأنساب، ص ٩٢ - ١١٢. (ابن جريس).

السائد في ذلك الوقت أن منطقة نوري كانت هي المصدر الرئيس لتموين العدو قد أكده بشكل مستقل أحد سكان بريدة الأصليين هو سليمان الرشودي، الذي كان في سوريا منذ الأيام الأولى للحرب، وعاد الآن بطريق مباشر[١] في رحلة سهلة استغرقت مدة ثلاثين يوماً. ولم يكن يدري أنه بزيارتي سوف يدان بالانحراف والخروج عن العُرف الاجتماعي كما لم يجد حرجاً في قبول السجائر التي قدمتها له. وكانت هناك مؤن متكررة من حين إلى حين تتسرب إلى دمشق من حائل[٢]، على الرغم من أنه لم ير بنفسه القافلة الكبيرة المكونة من ألف جمل المشار إليها آنفاً. على أن العقبة كانت هي المصدر الأهم.

وشخص آخر تعرفت عليه مصادفة في هذه الفترة وكان من المقدّر أن يصبح رفيقي لأيام كثيرة بعد ذلك. ذلك هو حمد بن مشعان بن هذال[٣]، عنزي من العمارات، وهو قريبٌ من بعيد لكل من فهد بج (بك) وفهد الدغيم. وكانت لحيته رمادية وملامحه برونزية نتيجة التعرض للشمس قد جعلتاه يبدو أكبر مما هو فعلاً، ولكن من المؤكد أنه أقرب إلى الخمسين من الأربعين عاماً التي كان يُقر بها. وكان قد جاء إلى الرياض حيث رأيته هناك، ومعه هدية من خيول من فهد الدغيم، ولكنه صادف كارثة في طريق عودته إلى مراعي العمارة؛ ولأنه كان مسافراً مع رفيق واحد

(١) وقد وصف مراحل رحلته كما يلي: «اليوم الأول من دمشق حتى الدمير ثلاثة أيام بعد ذلك حتى الحلبة وأربعة أيام بعد ذلك حتى مط (وأرتاح ثلاثة أيام)، وثلاثة أيام بعد ذلك حتى مقر النقى وثلاثة أيام بعد ذلك حتى جديدة (ربما عرعر؟) ويومين بعد ذلك حتى مقر الغضاري (وتوقف ليوم واحد) وثلاثة أيام حتى عقيلة ابن سخيل بين حزيل وحزام الماء وثلاثة أيام أخرى حتى الحيانية (وتوقف ليوم واحد)، ثلاثة أيام عبر النفوذ حتى الشعيبة، وثلاثة أيام بعد ذلك حتى القصيبة (القصيباء)، ويومين من هناك إلى بريدة. وقد استغرقت الرحلة خمسة وثلاثين يوماً، منها ثلاثون يوماً من السير الفعلي. (فيلبي).

(٢) كان تهريب الأطعمة والأسلحة قائماً بين بعض أجزاء الجزيرة العربية وبين بلاد الشام والطرق، وبخاصة في ذروة الصراع بين ابن سعود وابن رشيد، وكذلك الأشراف في الحجاز والعجمان في شرق الجزيرة العربية. (ابن جريس).

(٣) ابن هذال: من بطن العمارات من وائل العنزية، وهو من أشهر أمراء هذا الفخذ، ونخوته (أخو تبلا)، ومشعان بن هذال من الشعراء وفرسان العمارات، ولا ندري هل حمد الذي ذكر فيلبي يقرب لمشعان هذا المشهور بفروسيته أيام الصراعات مع الترك عام (١٢٤٠هـ/١٨٢٤م).

فقد وقع في يد جماعة مغيرة من أسلم عند أو بالقرب من آبار حداقة وقد جُرو الاثنان من جميع ممتلكاتهما حتى ملابسهما.

وهذه المعاملة تعد فضيحة وعاراً عند بدو الشمال، كما قال، ولكن الآخرين من شمر ونزولاً نحو الجنوب ليس لديهم مثل هذه الوساوس. ومع ذلك رفض هؤلاء المغيرون أن يعترفوا أو يكشفوا عن هويتهم أو وجهتهم، التي يظن أنها إلى خيام الروله[١]. لجأ حمد ورفيقه وهما عرايا بائسان إلى مخيم صلبي قريب، وبمساعدة كريمة من الغجر شقا طريقهما في العودة إلى بريدة ليتجهزا من جديد.

في الزبيرة قابلا قافلة من مئة جمل ثلاثين محملة بالأقمشة والباقي بالقهوة، والأرز، والسكر ... إلخ، تحت إمرة عبد العزيز البسام، ابن أخ محمد، التاجر المشهور والأمير من دمشق وهو نفسه ابن صديق داوتي عبد الله من عنيزة، في يومهما الثاني عشر بعد خروجهما من الكويت في طريقهما إلى حائل. وقرب الحدقة رأى آثار قافلة من ثلاث مئة جمل، التي مرت منذ يوم أو يومين مضت نازلة في الاتجاه المقابل لتجلب مزيداً من المؤن. ومعها يركب شيخ العجمان، ابن منيخر، مع ابنته التي كان قد جاء ليأخذها بعد طلاقها مؤخراً من ابن رشيد.

صار حمد ـ الذي أصبح لاحقاً شخصاً ثقيلاً ـ في هذه المرحلة يتمتع بجميع المزايا الظاهرية التي تؤهله ليكون إضافة مرغوبة إلى مجموعتي الصغيرة، وسرعان ما حصلت على موافقة ابن سعود لأبقيه معي. في اليوم التالي نفسه كان من بين جماعتي، «ولكن»، قالها لي هو يأمل بلا شك في الحصول على تعويض نقدي مقابل ضياع سمعته، «لقد بدأت ألسنة بريدة بالفعل تتحرك بالقيل والقال ضدي»[٢]. وقد

(١) للمزيد عن قبائل الروله، انظر: لويس موزيل، أخلاق الروله، ص ٥٠٦ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) ربما كان حمد بن مشعان بن هذال يقع في بعض الحرج من مرافقته فيلبي، وبقائه تحت رئاسته كونه ما زال كافراً، وهذا ما كان بعض الناس في القصيم وغيرها يشعرون به تجاه من يسير مع الكافر أو النصراني ويقوم على خدمته ومساعدته. (ابن جريس).

أكدت له أنه لا يوجد سبب كاف للقلق أو الانزعاج من تلك الناحية، ولكنه ردّ بمثل عربي[١] سائر وامتنع تماماً عن طعام العشاء لدرجة أن جماعة راحت تبحث عنه قد فشلت في العثور عليه. وانضم إليّ بعد ذلك في أسفاري وجولاتي وكان دائماً متخماً بمعارف وتقاليد الصحراء الغريبة التي اكتسبها في سنوات من الترحال المستمر عبر حمض الشمالية كلها من حلب حتى المدينة. ولقد صادف أحياناً البقر الوحشي التي كان أثر سيرها، كما قال مثل أثر المواشي. وحتى عندما تمطر السماء، لم تكن تشرب؛ لأنها جازي[٢] على مدار السنة مثل غزلان الصحراء على الرغم من أن الأخيرة معروف عنها ـ كما قال ـ أنها تأتي أحياناً في قطعان كبيرة حتى البحر وتشرب حتى تمتلئ بطونها، وعند ذلك تصبح مشوشة النظر تماماً ويسهل صيدها. ولقد صادف حمد أيضاً طيور النعام، وتحدث كذلك عن وجود الحمار الوحشي في الجزيرة على الرغم من أنه شديد الوحشية، حتى عندما يبقى في الأسر منذ صباه المبكر، لدرجة أنه لا يمكن استئناسه وترويضه لأغراض الركوب.

عندما كنت أتجول معه حتى قمة جبل النفود لنلقي ربما آخر نظرة على بريدة، رأينا هلال الشهر الجديد في الأفق الغربي. وفي الغد ستكون بداية التحرك الذي من أجله اجتهدت طويلاً، وكنت أعلم فعلاً أنني أنا بنفسي لن أر شيئاً منه. وعقدت مقابلة طويلة مع ابن سعود في فترة العصر، ونصحته بأنه يوجد حل واحد فقط لمصاعبه، ذلك هو الزحف الفوري ضد حائل. فقال: «حسناً، سوف ترى. هناك عشرون ألف رجل يخيم في هذه المنطقة، وكلهم يتوقون لنيل الشهادة. سوف ترى. غداً أركب». فقلت له «وأنا معك». قال ابن سعود «لا» وبعد جدال طويل صرفني بلمحة لم أستطع تجاهلها. «لقد تنازعنا كثيراً، كم هو الوقت؟»

---

(١) «إذا صرت غريب صر أديب» بمعنى إذا كنت غريباً في أرض فكن مؤدباً. ربما بهذا المثل يقترب العرب كثيراً من المثل الإنجليزي «عندما تكون في روما فتصرف كما يتصرف الرومان». (فيلبي).

(٢) يبدو أن جازي تدل على أنها «تعيش على الرطوبة الموجودة في حشائش المراعي دون اللجوء إلى الشرب الحقيقي». (فيلبي).

٥ـ رحلة الخبوب[١]

في فجر التاسع من سبتمبر (١٩١٨م)، اليوم السادس عشر من إقامتي المؤقتة في بريدة واليوم الثالث من آخر شهر من السنة الألف والثلاثمائة وست وثلاثون من عهد محمد ﷺ خرجت راية الحرب لابن سعود من بوابة المدينة صوب الشمال. هكذا سبق السيف العذل في صراع سوف يقرر مصير الجزيرة العربية ربما لجيل أو ربما لأكثر من ذلك بكثير، والذي ثار ثورة عارمة على صفحة الصحراء بالطريقة المتقطعة في الحروب العربية حتى الثالث والعشرين من ديسمبر (١٩٢٥م)، عندما كانت الراية الخضراء للبلد الوهابي قد رفرفت لأول مرة على السواري[٢] في جدة[٣]. عندئذٍ هبط السلام في النهاية بعد أمد طويل على شبه الجزيرة العظيمة التي لم تعرف السلام من بداية الزمن[٤]. على أنه في سبتمبر ١٩١٨ لا يستطيع المرء إلا أن يتوقع مشهداً لا نهاية له من الحرب دون أن يعرف ماذا يكمن وراءه. ولعشرة أشهر طوال سعيت بعزيمتي وحدي لتوجيه خطوات ابن سعود إلى هذا الطريق الرهيب. ولقد كانت المخاطر جمة، وستكون السيطرة على الجزيرة العربية هي جائزة المنتصر. بيد أن هدفي هو إحضار مطرقة أخرى، على الرغم من صغرها، لتدق على السندان الأحمر الساخن الذي فوقه كان سلام العالم يجري

---

(١) الخبوب: ومفردها الخب، وهو المكان المنخفض بين حبلين (بالحاء) من الرمل، أي بين كثيبين رمليين طوليين، وتقع مدينة بريدة ضمن هذه الخبوب التي تحيط بها من جهاتها الثلاث (الغرب - الشرق - الجنوب). وأشهر الخبوب هي: الخبوب القريبة من مدينة بريدة، والتي ذكرها فيلبي في رحلته عام (١٩١٨م)، وهي تنسب إلى البلدة، فيقال (خبوب بريدة)، إذا قصد بذلك مجموعة، أما إذا كان فقط واحداً فيقال (خب). للمزيد انظر: العبودي، بلاد القصيم، ج٣، ٨٤٥ - ٨٦٢، الربدي، بريدة، ج١، ص ٤٨ - ٤٩. (ابن جريس).

(٢) السواري: أي السفن والقوارب الكبيرة. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن الصراعات بين الأشراف وابن سعود ثم دخول الحجاز تحت الحكم السعودي، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٨١ وما بعدها (ابن جريس).

(٤) كانت الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية تسودها الفوضى والاضطراب منذ خروج الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه منها. وبقيت هكذا حوالي ألف وثلاثمائة سنة حتى تم توحيدها على يد الملك عبدالعزيز الفيصل. (ابن جريس).

تشكيله في كير جهنم؛ ولذلك ابتهجت ابتهاجاً عظيماً عندما جاؤوني بأخبار انطلاق الجيش.

أما ابن سعود نفسه سينطلق لاحقاً في اليوم نفسه ليلحقوا به في الطرفية، وذهبت لأتوسل إليه مرة أخرى ليسمح لي بمرافقة الجيش، ولكن ذلك ذهب أدراج الرياح. وبكل إحساس بالانتصار كنت أدحض جميع الذرائع التي أوردها ما عدا واحدة. إن صحبتي بالتأكيد سوف تقضي على فكرة الجهاد التي اعتمد عليها دائماً ليثير حماسة أتباعه[1]. وكان دائماً يؤكد في العلن أن وجودي في بلاطه سببه فقط الحصار ومشاكل الأشراف، وأنه ليس لي أية مصلحة خاصة في حملته العسكرية ضد ابن رشيد. وقد يقول لهم ـ مع ذلك ـ أنه قد دعاني لمرافقته لكنني رفضت على أساس أن موضوع حائل ليس من شأني. وقد يقول إنني شغوف بالرحيل ومغادرة البلد، ولكنه هو نفسه الذي أصر على بقائي إلى أن يتم تسوية جميع المصاعب ذات الطبيعة السياسية. ولم أستطع أن أحكم ما إذا كان مثل هذا الغبار كافياً لتعتيم الرؤية البليدة للمتعصبين أو لا، غير أن ابن سعود قد صمم على رأيه ولم يعد يجدي الجدل. كل ما وافق عليه هو أنني أستطيع أن أنضم إليه في الطرفية أو أي مكان آخر بعد الهجوم الأول، وعلى أمل أن يكون اللقاء في حائل، ثم قررت الانصراف محتجاً على قراره.

كانت مقابلتنا تتقطع بتحويل انتباهه الذي يمليه عليّ احتياجه الدائم بوضع عنايته الشخصية لمتابعة تفاصيل الإدارة. فبناء الدولة الوهابية كله يقع على عاتقه. وكان قبل بضعة أيام قد أملى خطاباً إلى الشيخ سالم حاكم الكويت[2]، الذي وصفته

(١) رفض الإمام عبدالعزيز آل سعود لفيلبي بأن يذهب معه أثناء الهجوم على حائل، يدل على حنكة الملك عبدالعزيز، لأن رجاله (الأخوان) الذين كانوا يسيرون معه تحت مظلة الجهاد ضد ابن رشيد ربما تتغير مشاعرهم وتفتر عزائمهم وبخاصة إذا صار معهم فيلبي النصراني، الذي يرونه في منزلة الكافر، وبالتالي لو ذهب معهم فربما ينظرون أن الهدف من الجهاد قد سقط. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن الصلات السياسية بين ابن سعود وحاكم الكويت الشيخ سالم الصباح، انظر: السعدون، ص ١٩٦ وما بعدها، خزعل، ج٣، ص ١١٦، ج٤، ص ١٨٦ وما بعدها، حافظ وهبة، ص ٨٧ وما بعدها، الرشيد، ص ٢٤٤-٢٤٦، ديكسون، ص ٢٤٧، الخترش، ص ٩١ - ٩٤. (ابن جريس).

عندما رأيته بأنه استفزازي نوعاً ما أو على أقل تقدير ينقصه ما يدل على الرغبة الحقيقية في علاقات منسجمة. وقد أعاد النظر فيه وأعاد صياغة الرسالة، التي كانت نسختها المفاسبة قد أدخلت الآن عليه ليمهرها بتوقيعه، الذي امتنع عنه إلى أن قرأت النص ووافقت عليه. بعد ذلك همس السكرتير شيئاً ما في أذنه ثم رد عليه قائلاً «دعه يدخل». بعد لحظة كان الجسم النحيل لفهد بن جلوي قد أظلم ممر المدخل مرعوباً، وأصبحت الشاهد الوحيد على مشهد غريب. ففجأة بدا ابن سعود وكأن به مساً من الشيطان. ونهض بخفة من الأرض، وفي لحظة كان يرتفع بجلال فوق ابن عمه الشاب ويضرب بضراوة على كتفيه النحيلتين بعصاه التي يستخدمها عند الركوب، ضربة بعد ضربة في غيظ لا يرحم. في البداية أصيب الولد بدوخة شديدة لدرجة أنه لم يفكر في الدفاع عن نفسه أو الهرب وبعد ذلك استفاق من غيبوبته وذهوله، والتحم مع سيده، وأطبق على رقبته بقوة ولحظة بعد ذلك كان يفر من الغرفة وهو عاجز عن ضبط نفسه يطارده ابن سعود. وقد كنت أشعر بعدم الراحة إلى أن استعاد الأخير مقعده بجواري كأن شيئاً لم يحدث، وقال لي بابتسامة إنه في هذا الصباح تجرأ الولد على ضرب واحد من (الزيجرت)[1]، وهي إهانة لن يتسامح فيها من أي أحد، وهو نفسه لا يرتكبها إلا تحت أغلظ الاستفزاز ونادراً جداً. وقد كوفئ الحرس الشخصي الملكي.

غادر ابن سعود مصحوباً بحرسه بريدة خلال العصر. وطوال اليوم كانت جماعات متفرقة من المنتشرين في غير نظام تتقاطر خارجة نحو مكان اللقاء. ونحو الغروب صعدت البرج الأوسط في القصر لأشاهدهم وهم يمضون في طريقهم عبر الصحراء إلى أن ـ جماعة بعد جماعة ـ غابوا وراء الأفق أو في الغسق. والاتجاه العام للزحف شمال / شمال / شرق. وفي الأسفل مني في الجردة كان يوجد نحو

(١) الزيجرات (Zigirt): كلمة اشتقها الأتراك من الكلمة الفرنسية التي تعني الأمن والحراسة (Securite)، ولا زالت تستخدم عند سكان المملكة العربية السعودية حتى الآن. (ابن جريس).

مائتي جمل ما تزال تنتظر راكبيها، وكان من المقرر أن تكون مجموعة بريدة بالمؤخرة تحت قيادة فهد بن معمر، التي سوف تنطلق عند الفجر في الغد. وخلال غياب فهد سيكون حكم المدينة في أيدي أخيه عبد الرحمن. في ذلك اليوم الذي بعده بقيت في بريدة محاولاً أن أنسى خيبة رجائي بتوافه الحديث والاستكشاف، بيد أنه كان عندي إذن من ابن سعود لقضاء وقت الانتظار في عنيزة.

بقي عبد الله أفندي متخلفاً معي وكذلك أحمد من عنيزة. والأخير غني بحكايات الصحراء، ورداً على أسئلتي أكد وجود قبيلة بدائية منها طلق العتيبي والد ناصر الذي كان من جماعتي في رحلة وادي الدواسر، وهو قد تحدث مع شكسبير في ١٩١٤، ولم يستطع حمد أن يقول ما إذا كانت فخذاً من عتيبة أو لا ولكنه وصف موطنها الأصلي بأنه المنطقة الجبلية على طول ساحل البحر، وهي منطقة تتكون جزئياً من الجبال وجزئياً من الرمل تقريباً إلى اليمين من مكة واليسار من مصر. إن شباب القبيلة رجالاً ونساءً يسيرون عراة، والنساء يتركن شعرهن الطويل ينسدل على صدورهن. وقبل الزواج ترتدي البنات رداءً يشبه كيس الدراهم الأسكتلندي يسمى مركا، يربط بحزام حول الوسط وكذلك أكواب (قبة) فوق الثديين. ولا يلبس الرجال غطاءً على الرأس. ولقد حاولت مراراً منذ تلك الأيام أن أتحقق من صدق هذه الحكاية غير أنني لم أجد أبداً أي سبب يجعلني أفكر أنها تنطبق حقيقة على أي مجتمع عربي[١]. وربما لم تكن إلا صدى من بعض حكايات وتجارب الرحالة في جبال النوبة[٢].

وقد رأى حمد بعضاً من اليزيدية الذين بينهم ـ كما قال ـ يوجد الوهابيون يضجون بالاستغفار القصير مع التعبير الأصيل عن لحظات مللهم قائلين: «أعوذ بالله

(١) قلة ذات اليد في الماضي، وعدم وجود الألبسة الكافية، ثم عادات وأعراف بعض السكان في الجزيرة العربية كانت تجعلهم لا يلبسون إلاّ القليل من اللباس، وبخاصة ما يستر العورة، وأحياناً قد لا توجد الملابس فيتم ستر العورة ببعض أوراق الأشجار، وبقية الجسد يكون عارياً بدون لباس. (ابن جريس).

(٢) جبل النوبة تقع في وسط غرب بلاد السودان، وتسكنها العديد من القبائل الأغريقية وربما العربية. (ابن جريس).

من الشيطان». ولقد تعرض لتجربة الجوع والعطش في الصحراء التي أدت بنا إلى الحديث عن الأعمال البطولية في التوقف عن الطعام والشراب، لقد أمضى ذات مرة سبعة أيام بلا طعام في الفصل الممطر عندما كان الماء وفيراً في كل مكان، وتحدث الدكتور عبدالله عن أحد الدواسر عبر الصحراء الشرقية من الرياض حتى الأحساء سيراً على قدميه لا يحمل قربة ماء ولا مؤناً، ولكنه اعتمد بكل ثقة على برك الأمطار ليأخذ منها الماء وعلى مقابلات البشر بالمصادفة ليأخذ منهم الطعام. وفي أقصى حالات الجوع يقوم البدو بحجامة[١] لإبلهم ويحمصون الدم في كتل ليأكلوها. وقيل: إن جماعة مغيرة من مطير عاشت خمسة عشر يوماً على لا شيء سوى دهن السنام من جمل واحد، وكان كل رجل منهم يأخذ كتلة منه بحجم قبضة اليد، لا ليأكلها ولكن ليمسح بها على فترات متقطعة شفتيه ووجهه وصدره. ودخل علينا عايض، رفيقي القحطاني في أول مرة أركب فيها إلى الرياض، ونحن جالسون نتجاذب أطراف الحديث. وقد قبل دعوتي لينضم إلينا على العشاء في تلك الليلة ولكنه فشل في الالتزام بالموعد، غير أنه في اليوم التالي عاد مع غريب الذي أصر على طبع قبلة على جبهتي، وقد تحدثنا بسرور عن تلك الرحلة الأولى وعن الصحراء الجنوبية بعدها.

جاء زائر آخر خلال تلك الأيام الأخيرة وهو محمد السليمان من عنيزة بخصوص قضية إرث التي اتفق هو والطرف الآخر على تقديمها إلى ابن سليم قاضي بريدة ليحكم فيها[٢]. وقد جلب لي كمية كبيرة من الخوخ والرمان مع تقديم دعوة للإقامة معه في عنيزة عند ذهابي هناك. وكان الدكتور عبدالله مشمولاً بهذه

(١) مهنة الحجامة معروفة عند سكان الجزيرة العربية منذ القدم، وهي فصد بعض عروق الدم في الإنسان، أو الحيوان، ثم يُخرج الدم بطريقة يجيدها العاملون في هذه المهنة. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن تاريخ القضاء في بلاد القصيم خلال حكم الملك عبدالعزيز، انظر: عبدالله بن محمد بن عائض الزهراني. تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي (١٣٤٤ - ١٤١٦هـ) (مكة المكرمة: مطابع بهادر، د. ت) ج٣، ٢ص ٢-٢٧٥. أما قاضي بريدة أثناء تواجد فيلبي بها فهو: عبدالله بن محمد بن عبدالله بن سليم ولد عام (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م)، ثم عين قاضياً في البكيرية عام (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م)، وأخيراً عين رئيساً لقضاة القصيم وقاضياً في بريدة عام (١٣١هـ/١٩١٢م)، وبقي في هذا المنصب حتى وفاته، انظر: الهويمل، ص ٨٠ (ابن جريس).

الدعوة التي كانت بالنسبة لي أكثر من سارة لتوفير فرصة للعيش في المدينة والتجول فيها بحرية في جميع الأوقات.

في الحادي عشر من سبتمبر انطلقنا. وكانت آخر الأخبار من الشمال أن ابن رشيد قد غادر حائل قبل بضعة أيام ليغير على قبيلة حرب[١] في النبهانية ولكنه عاد أدراجه عندما تلقى أخباراً عن نوايا ابن سعود. وقالت الشائعات: إنه لا يسانده إلا القليل؛ لأن الجزء الأكبر من شمر كان غائباً على حدود العراق، والشيوخ الوحيدون المهمون الذين كانوا في الجبل هم ابن شريم من عبده وابن رمال وابن رخيص من سنجارة[٢].

يقترب الصيف الآن بكل تأكيد من نهايته، وعلى الرغم من أن مقياس الحرارة ما يزال يبين قراءة تصل مئة وأربعة ومئة وخمسة درجة مئوية إلا أنه كان هناك بشكل عام نسيم عليل يجعل الجو منعشاً وبارداً. وقد عادت الشمس مرة أخرى لتقع في حدود نطاق قوس السداسي مما يمكنني من تسجيل قراءات الزمن وخطوط العرض. والتأخيرات المعتادة شابت انطلاقنا على الرغم من كل التأكيدات في الليلة السابقة أن الإبل جاهزة وكذا الدليل. واستيقظت عند الفجر لأسمع أن رشيد قد ذهب ليحضر الحيوانات، ولأجد أن الفطور يجري إعداده. وقد حاول محمد شلهوب أمين الخزينة أن يخفف عني ويسعدني بأخبار أنه في هذه المرة قد عُثر على دليل ممتاز يعلم كل شبر من القصيم. وبعد الفطور أعلن رشيد منتصراً أن كل شيء الآن جاهز. بيد أن حمداً قد أهملناه، فلم يكن مشهوراً بتوريد الإبل الذلول، واعترضت على اقتراح غير ملائم بأن يركب رديف واحد من الآخرين. وتلا ذلك مزيد من التأخير، وبعد مضي ساعة عُثر على المطية المطلوبة. وبعد رجاء أخير غير موفق من

(١) لمزيد من المعلومات عن قبيلة حرب وفروعها انظر، الحقل، كنز الأنساب، ص ١٥١-١٥٥. (ابن جريس).
(٢) للاطلاع على تفصيلات أكثر عن عشائر شمر ومواطنها، انظر: الحقيل، ص ١٦٧-١٨٠ (ابن جريس).

عبد الله أن نسلك الطريق المعتاد دون الخبوب فقد ركبنا في الحقيقة بعد الساعة التاسعة صباحاً مباشرة، وفي دقائق قليلة كنا خارج البوابة الشمالية. وكنت قد أصبت ببرد شديد وصداع لكنني تشجعت بصورة عنيزة المقبلة أمامنا بعد الإقامة في جو حياة بريدة القاسية والكالحة[١].

سرنا في اتجاه شمال/غرب في البداية عبر سهل متموج من الرمل الخفيف والحصباء يحده من الغرب النفود، التي يقع على طول حافتها شريط نخيل الشماسي[٢] الذي تنتشر فيه أيضاً أشجار القطن والأثل ورقع البرسيم وقليل من الأكواخ الطينية. وقد عبرنا موقع القرية القديمة، تاركين البرج عن يميننا، وبعد فترة قصيرة دخلنا منطقة النفود. كان أول الخبوب منخفضاً يمتد جنوب ـ شرق مع شمال ـ غرب ونخيل الغاف[٣] في الطرف الجنوبي منه مع الأكواخ والزراعة الثانوية مثلما يوجد في الشماسي، وهو النوع المعتاد حقيقة من قرى الخب[٤].

«ما اسم هذه البقعة؟» سألت غازي دليلنا، وهو رجل من قبيلة حرب. فأعطاني إجابة جزافية رددت عليها بسؤال آخر «أين غاف؟» فأجاب «أمامنا، على بُعد مسافة ما». «لا ـ هذه هي غاف». «من يقول ذلك؟» سألني. فقلت «الناس الذين يعيشون فيها!!». وهكذا تصادف قدوم رجلين راكبين على حمير من ناحية الأكواخ متجهين إلى الشقة فأرسلت مروجاً ليستفسر منها وجاءت إجابتهما واضحة ومدوية «غاف». وقد بدأ غازي الآن يراوغ ويتملص. هذه الخبوب كانت بقعاً ضئيلة بائسة وأسماؤها لا تهم أحداً. إن المنطقة التي يعرفها حقاً تمام المعرفة تقع بعد النبهانية، وهذه تقع تماماً خارج حدود

(١) يتضح من كلام فيلبي أنه كان سعيداً فرحاً برجوعه إلى بلدة عنيزة، وذلك ربما لسهولة الحياة فيها ويسر التعامل مع أهلها مقارنة بأهل بريدة الذين يذكر أنهم كانوا أكثر تعصباً من أهل عنيزة. (ابن جريس).

(٢) وقيل هذه البقعة واسمها أيضاً مطرفي الذي يحتمل أن يكون اسم أحد آبارها. والدليل الموجود معي حالياً سماها الجردة وربما يكون مخطئاً. (فيلبي).

(٣) الغاف: يسمى أيضاً غاف القويع. (ابن جريس).

(٤) قرى الخب. ربما أنها التي تسمى اليوم (خب القير)، وهي مجموعة مزارع بين الضاحي والخضيراء (ابن جريس).

برنامجنا الحالي. وكاد دليلنا أن يتركنا ننجرف بعيداً إلى الشمال ـ الغربي نحو الشقة، وبما أنه قد اتضح أنه ليس لديه فكرة واضحة جداً عن المسار الذي ينبغي أن نسلكه فقد استدرت جنوب ـ غرب. كانت الصفراء أو سهل الحصباء وهو أخفض سهل في قفر سارة يمتد وراء الرمال بنحو ميل عن يميننا. وعلى دربنا يوجد القويع وهو خب آخر يقع قسمه الرئيس على بُعد نصف ميل نحو الجنوب ـ الغربي. ووصلنا إلى بقعة نائية من الزراعة محاطة للوقاية من هجمات الرمل الضارية بسور من أشجار الأثل اليافعة ويحرسها قصر واحد. إن سور الأثل يعد صفة مميزة من صفات القصيم[١].

بعد هذا جئنا إلى قصر واحد وصف هزيل من أشجار الأثل يسمى ببساطة الخب، وكان بستان نخيل حويلان على بُعد ميل نحو الجنوب. وبعد مزيد من السير فوق منطقة من التلال الرملية المتناثرة وصلنا إلى واحة واسعة من بساتين النخيل ومزارع الأثل تسمى مريجسية. تقع بساتين النخيل، التي يوجد خلفها جبل رملي منخفض، مطوقة في خلجان من الرمل الملتف حولها[٢]. ومع أن الساعة بلغت بالكاد الحادية عشرة صباحاً إلا أنني قررت التوقف احتجاجاً على هذا التجول بلا هدف دون دليل. وقد نصبت خيمتي أمام سجادة جميلة من البرسيم الأخضر الكثيف بجوار بستان نخيل صغير، ولكنه كثيف مع حافة سميكة من أشجار الأثل. وقد أطلقوا عليها جرّية، كانت آبارها، بعمق ست قامات وتدار بالإبل، جملان لكل بئر، وذلك لري حقل كبير من الدخن النامي حديثاً. وبالصوم ودواء الفيناستين أخضعت الصداع المؤلم للسيطرة حتى المغرب بعد يوم من البطالة.

---

(١) بناء الحصون حول المزارع لاستخدامها أثناء حراسة المزروعات تكاد تكون عادة منتشرة في عموم الجزيرة العربية. أما احاطة المزارع بالأسوار الحجرية أو الخشبية أو الطينية فهذا يعود إلى توفر مواد البناء في مناطق المزارع. فمثلاً: البلاد التي تتوفر فيها الأحجار فإنها تستخدم مادة الحجر لبناء المدرجات الزراعية، وهكذا ينطبق الأمر على استخدام الأشجار أو الأخشاب أو الطين لنفس الغرض. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن جغرافية وأحياء منطقة بريدة وما حولها، انظر: محمد الربدي، ج١، ص ٤٥-٥٥، ١٨١ وما بعدها (ابن جريس).

في الصباح التالي استبدل غازي في وظيفة الدليل بفتى غير مألوف من مريجسية، وكان يُدعى علياً ولم يكن عمره يتجاوز الخامسة عشرة، وخبرته مقيدة بحدود ضيقة، ولكن داخل هذه الحدود كان خبيراً. لقد ذهب بعيداً حتى بريدة ولكنه لم ير عنيزة أبداً. ومن جهة الغرب امتد مجاله حتى البكيرية، بيد أنه في الحقيقة لم يزر أبداً الشقة، الواضحة للرؤية بسهولة من مكاننا، أي بلده. بالنسبة له كانت مريجسية الصرة في عالم صغير، قرية تتكون ربما من خمس مئة نسمة، مدفونة في بستان نخيل. ومساهمتها البشرية في القوات الإقليمية بالمملكة الوهابية لم تتجاوز ستة أفراد، ولكن في هذا الشأن تزعم تفوقها على البصر والضراس اللتين سنزورهما خلال اليوم، وقد قدما على التوالي أربعة وثلاثة رجال، مجهزين بالطبع بالبنادق والذلول. كانت رسوم التهيئة والتجهيز بدلاً من الخدمة الفعلية تبلغ سبعين دولاراً لكل شخص، ولم تكن الخبوب تستدعي بكل المقاييس إلا في حالة الحشد العام للغزوات الكبرى. وضريبة الأرض تحسب بنسبة خمسة بالمئة من الإنتاج السنوي للنخيل. إن سكان مريجسية من أصول مختلطة، من حرب، ومطير، وشمر، وعناصر أخرى.

وبعد نصف ميل من الجرية تقع قرية حمار مكونة من بستاني نخيل وفيها خمسون نسمة للعمل فيهما. وغربها تقع حملان وهي بقعة طويلة متناثرة من النخيل وأشجار الأثل، وتأوي خمسين شخصاً في قصور قليلة. وهناك جبل عال من الرمل الناعم العميق يفصل هذا المنخفض عن منخفض النقرة وهو شريط نحيل من أشجار الأثل مع قصور قليلة. وتقع محابل على اليمين في المنخفض نفسه الذي يستمر في الاتساع شيئاً فشيئاً حتى سهل البطين الحصوي، وعريمضي على اليسار. ويبلغ سكان الخبوب الصغيرة هذه في المتوسط عشرون إلى ثلاثين نسمة.

والجبل التالي يطل على منخفض رملي واسع، وفيه تقع الضراس التي تمتد نحو ميل على طول جانبنا الأيمن وخلفها يقع جبل رملي شاهق، ربما مئة وخمسون

قدماً فوق مستوى المنخفض. وحوله على مسافات فاصلة متفاوتة تقع الحلوة والسويلمية ودئيسي وهي خبوب عادية شديدة الصغر. كان نخيل الضراس الذي تنتشر فيه قصور كثيرة كثيفاً جداً، والقرية نفسها ذات حجم معقول غير مسورة وتتكون من أكواخ الطين القذرة مع قصر واحد ذي أبراج ومظهر أفضل في وسطها، وتتفاخر بسكانها البالغ عددهم ثلاث مئة نسمة، معظمهم من التواجر، وهم فخذ من عنزة[١] تحت أمير يسمى وائل[٢]. في هذه الواحة أضفت نباتات الأترج وعرائش العنب تميزاً على الملامح المعتادة في أرض الخب.

يأتي بعد ذلك خب روضان في مسارنا، وفيه زراعة البرسيم والخضراوات الكثيفة نسبياً وبساتين مسورة في منخفض بيضاوي محاط بتلال عالية. وفيه ثلاثة أو أربعة قصور، وسكانه مئة نسمة، وقد كانت مساهمتهم العسكرية رجلاً واحداً فقط. وبعد ذلك أن مررنا على خب الدرجة حيث يتحايل عشرة أشخاص على العيش في قصر واحد على ما تجود به النخيل من ثمار زهيدة. والنخلات تتكون من أربعة قصور فيها أربعون شخصاً يزرعون البرسيم، وفي هذا الوقت يعدون لتوسعة الزراعة بغرس حاجز من أشجار الأثل حول بقعة من التربة الرملية الخفيفة[٣].

زودتنا قمة الجبل الرملي التالي بنظرة رائعة على المنطقة المحيطة بها. فعلى مسافة بعيدة في السهل نحو الغرب بعد مسطح واسع دون أي مرتفع آخر يقع تل الساق المخروطي. وبعد مسافة قليلة نحو الغرب من جهة الشمال تقع الشقة ببرجي الحراسة الاثنين اللذين يحرسان ثلاثة أو أربعة من بساتين النخيل التي تقبع في

(١) قبيلة عنزة عدنانية من أكبر القبائل العربية في وقتنا الحاضر وكذلك في العهود الماضية. ويذكر أن عنز حي من ربيعة، وهو عنز بن وائل أخو بكر بن تغلب. للمزيد انظر: الحقيل، ص ٦٢-١١٣. والتواجر، أوال التويجري يتواجدون في المجمعة وبلاد القصيم، ومنهم علماء وأدباء وقضاة. انظر: الحقيل، ص ٨٢-٨٣. (ابن جريس).

(٢) وائل: أحد البطون الرئيسة من قبائل عنزة، انظر: الحقيل، ص ٧٠ (ابن جريس).

(٣) لمزيد من المعلومات عن الزراعة والأشجار والنباتات في بريدة وما حولها، انظر: محمد الربدي، ج٢، ص ٢٧١ وما بعدها، حافظ وهبة، ص ٦١، الهويمل، ص ١٢٩. (ابن جريس).

قاعدة جرف الصفراء. ونحو الغرب منه تمتد المملحة أو بحيرة الملح الجافة، التي منها تأخذ القصيم الملح. وإلى الشمال من خط يمر غرباً من موقعنا كان المنظر مكوناً من سهل منبسط واسع من الحصى. وإلى الجنوب وجنوب / غرب كان كل ما هناك رمل، موجة بعد موجة مع واحة منسي الصغيرة وقصورها عند أقدامنا، وقرية البصر وهي أقصى واحة نحو الغرب من منطقة الخبوب الممتدة أمام بساتين نخيلها الواسعة[١].

من هنا يمر الدرب بين بستانين مسورين من بساتين منسي، حيث وجدنا بناء حوض للشرب يُعبأ من بئر، واليقطين تام بالإضافة إلى أصناف المزروعات المعتادة. ثم وصلنا البصر وتوقفنا بجوار أحد آبارها ذي الماء العذب بالقرب من مجموعة نائية من الأكواخ. بلغت الساعة التاسعة صباحاً ولم نكن على عجل، وسحر المكان وأهله أغرياناً بالتخلي عن التفكير في استئناف سيرنا حتى الغد. ففي الحقيقة لم تكن لدينا خطط محددة للمستقبل، وكنت أهدف بصورة غامضة إلى زيارة البكيرية وربما حتى الخبراء والرس[٢]. على أن الأخبار التي نقلت إلينا في بُصر كانت غير ملائمة لإعداد خططي، فجماعات ابن رشيد المغيرة أصبحت منتشرة في كل اتجاه ـ كما قيل ـ وفي هذا الصباح نفسه سُلب رجلان من أهل القرية من ذلولهما في رحلة رجوعهما من البكيرية. وكنت أشك في أن الجناة ربما يكونون من عناصر قبيلة حرب[٣] التي تستغل الاضطراب الناتج عن تحرك ابن رشيد لكي تنفذ قليلاً من السلب على الطرق العامة لحسابها الخاص. وفي كلا الحالتين لم يكن عددنا كافياً لنخوض غمار الخطر في مثل هذه المجازفة، وقررت أن أسير في خط مستقيم قدر الإمكان إلى عنيزة.

---

(١) الربدي، ج٢، ص ٢٧١ وما بعدها، حافظ وهبة، ص ٦١، الهويمل، ص ١٢٩. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن الرس، والبكيرية، والخبراء انظر: المقوش، ص ١٧ وما بعدها، الرشيد، الرس، ص ١٥ وما بعدها، محمد الربدي، ج٢، ص ٢٨٩. (ابن جريس).

(٣) للاطلاع على معلومات أكثر عن قبيلة حرب وفروعها، انظر: الحقيل، ص ١٥١-١٥٤. (ابن جريس).

نصب معسكرنا داخل دائرة من أشجار الأثل بالقرب من البئر وهي مثل غيرها من الآبار الأخرى في الواحة يبلغ عمقها سبع قامات، وهي مبطنة بحجارة البناء ومزودة بخزان تمتد منه قنوات صغيرة من الحجارة المبنية حتى الأرض المزروعة[١]. في بساتين النخيل التي كانت أشد كثافة من أي بساتين رأيتها في هذه الأصقاع باستثناء الصباخ كان الهواء رطباً وفاتراً ومشبعاً بالامتلاء الاستوائي الذي ينعكس على المحاصيل[٢] البستانية الفخمة النامية تحت النخيل. وطول النهار كله تجد الحراس المتعبون يطلقون بنادقهم العتيقة لتخويف وطرد طيور السماء التي تنقض على المحاصيل. وما تصيبه البنادق يُجمع ليطبخ في قدور أهل البيت المقتصدين ولكنها كانت قليلة على كل حال، لأن البنادق غير صالحة بصورة عجيبة. فأحد البنادق التي رأيتها كانت سلاحاً غريباً طوله خمسة أقدام، وأخرى كانت قد اشتريت بما لا يزيد عن أربعة دولارات. ولا يوجد إلا القليل من القمح أو الشعير المزروع في الخبوب. ومنطقة زراعة القمح الرئيسة في القصيم تقع حول عين ابن فهيد وفي منطقة الأسياح، بيد أنه هنا توجد وفرة من الخضراوات والعنب والأترج مع البرسيم بطبيعة الحال[٣].

يبلغ عدد سكان البُصر نحو أربع مئة نسمة ينحدرون من عتيبة، وسبيع، والسهول[٤]، وبني خالد الذين ينتمي إليهم الأمير محمد بن محيميد. وهناك محمد

(١) يظهر لنا من شروحات فيلبي السابقة أن هناك آباراً كثيرة في بلاد القصيم غير مبطنة بالحجارة من الداخل، ولكن ملاحظاته هنا يبدو أن هناك آباراً أخرى كانت تبطن جدرانها الداخلية بالحجارة كي تمنع تساقط الأتربة في أسفلها. (ابن جريس).

(٢) ليست البنادق الوحيدة الاستخدام في حماية المزارع من الطيور والقرود وغيرها، ولكن هناك طرق أخرى عديدة مثل: إصدار أصوات من حراس المزارع كي يخيفوا هذه الطيور وما شابهها. وتكون تلك الأصوات إما مباشرة من حناجر الحراس أنفسهم، أو ببعض الحيل والأدوات المحلية المعروفة عند المزارعين. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من المعلومات عن الأوضاع الزراعية في بريدة وعنيزة، انظر: محمد الربدي، ج٢، ص ٣٢٩، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣-١٤٠. (ابن جريس).

(٤) عن قبيلة السهول، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ٢٣٣. (ابن جريس).

آخر وطول النهار كله لم أصادف رجلاً في المكان لم يكن اسمه محمداً، من القوم الفقراء في الواحة قد أصر على شرف استضافتنا؛ لأنه كان صاحب البئر الذي توقفنا بجواره. فأخذنا إلى كوخ من الطين وأجلسنا على رمل النفود الذي يشكل أرضية أصغر وأسوأ مجلس رأيته، فهو غرفة طولها نحو خمسة عشر قدماً وعرضها سبعة أقدام ذات جدران طينية خشنة وسقف من كتل النخيل غير المشذبة وعوارض من أشجار الأثل، كلها مطلية بلون أسود. وكانت قهوته سيئة جداً ولكن عدّل الوضع بتمور ممتازة، وهكذا فإن جوده محدود بقدر موارده.

وقد قضينا فترة العصر في تنزه بهيج خلال أكثر أجزاء الواحة نضارة وكثافة حتى الجبل الرملي الشاهق، وراءها ـ الذي يرتفع مثل ظهر خنزير[1] ـ إلى قمة تآكلت كثيراً بفعل الرياح، وفي الأسفل منا نحو الجنوب تقع واحة الغماس الصغيرة، وكل ما عداها كان رملاً مع الصفراء، ويشرف عليها من الخلف جبل الساق وأبراج الشقة. وعند أقدامنا توجد واحة البصر بقريتها التي تتكون ربما من (٨٠) بيتاً قرب الوسط منقسمة إلى مجموعتين قريبتين من بعضهما. هنا جلسنا وتحدثنا على قمة الجردة كما يطلقون على الجبل. وكلما مضى العصر ببطء وتثاقل بدأنا نشعر بالظمأ، وعندها انطلق عليٌّ الصغير يقفز نازلاً على المنحدر الرملي الحاد مثل جمل. فقال غازي الحربي: «هذا موسم الرطب التمور الطازجة، إنها تؤثر على أبناء بلدنا مثل ما يؤثر الربيع بوفرة لبن النوق فيه على البدو، فيجعلهم أقوياء ومسرورين». وكان غازي نفسه، كما لاحظت، يرتدي غترة الإخوان وهو في الحقيقة ابن واحد من الذين استقروا في الأرطاوية. ولقد كان رجلاً متديناً بعمق على أن روحه المقيدة بحياة القرية، تتوق توقاً شديداً للصحراء، وقد ترك له والده الحبل على الغارب

(١) تشبيه ارتفاع الجبل وقمته بظهر خنزير، يدل على البيئة الثقافية التي عاش فيها فيلبي، حيث توجد الخنازير ضمن ممتلكات البريطانيين وغيرهم من الأوربيين. (ابن جريس).

لينطلق حيث يشاء. ولقد كان على وشك أن يستعجل في إثر ابن سعود عندما حجزه لخدمتي أمير بريدة. وقد ثبت أنه دليل عديم الفائدة في هذه الأصقاع، ولكن في نواحٍ أخرى وجدته رفيقاً ساراً جداً، دون تعصب تماماً وفخوراً بتلك المعارف التي يملكها وعلى استعداد أن ينقلها للآخرين. وفي تلك الليلة كافحت معه في مسعى ناجح جزئياً للحصول على سجل للفروع والأفخاذ في القبيلة العظيمة التي ينتمي إليها، والتي تنتشر من الدهناء حتى الحجاز. فقال: إن بني سليم وبني عمرو يتوزعون في الغرب، وبني علي والوهوب والفريدة[1] موجودون في الشرق.

وفي البصر لا يوجد أي مظهر من مظاهر التعصب، وخلال الصباح جاء أحد القرويين، اسمه محمد مثل بقيتهم، ودخل في خيمتي وطلب سجائر على أساس أنه قد تعين دليلاً لي حتى عنيزة. وفي أثناء النهار سواء في القرية أو في البساتين وجدت الناس ودودين ومهذبين، ولقد كان ينبغي أن أتكاسل هنا أياماً إضافية إلا أنه بحلول مساء الغد تركنا البُصر بعيدة خلفنا، ربما لن تقع أبداً عليها عيناي مرة أخرى. ومنها امتد سيرنا نحو الجنوب أو نحو الشرق نسبياً من الجنوب مارين على واحة مويح الشويعر الكثيفة المسورة على بُعد حوالي ميل من بُصر. وكانت أسوارها في حالة متهدمة نسبياً، وقصورها الأربعة تأوي سكاناً من نحو أربعين نسمة. وعند طرفها البعيد توجد بقعة متناثرة من الأثل. ومن الجبل التالي نظرنا إلى أسفل على عقل القريبة منا إلى الغرب، وبها أربعة قصور، ثم هبطنا إلى الغماس التي رأيناها من قبل في المسافة الممتدة من الجبل الموجود خلف البُصر. وهذه قرية طويلة متناثرة بها عدد من بساتين النخيل المترابطة معاً ببقع من البرسيم والخضراوات. ويوجد فيها نحو اثني عشر قصراً، وسكانها حوالي مائة وعشرين شخصاً هم عائلة وأتباع عبدالله الغماس من أصل دوسري[2]. والأمير على ما يبدو بوضوح المالك

(١) ربما يطلق على هذه العشائر آل وهيب والفرايدة. للمزيد انظر، الحقيل، كنز الأنساب، ص ٧٠، ٧٣. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن قبيلة الدواسر وفروعها في الجزيرة العربية، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ٩٢-١٩٨، ٢٥٩-٢٦٠. (ابن جريس).

الوحيد للقرية. والآبار هنا فقط بعمق أربع قامات، وذلك علامة على اقترابنا من خط الوادي. من وراء امتدادها بطول ميل تقع واحة صغيرة هزيلة تسمى الصباخ، نشأت حديثاً على ما يبدو، وتأوي ثلاثين ساكناً تقريباً في ستة أكواخ طينية. هنا تركنا منطقة الخبوب بجبالها المرتفعة ومنخفضاتها العميقة خلفنا لندخل في منطقة من المنحدرات الرملية المنخفضة التي تتوفر فيها نباتات النفود الغزيرة. وهنا لأول مرة في القصيم صادفت شجرة مزدهرة زاهية من أشجار الغضا التي تكثر بشدة إلى الشرق من بريدة، واختفت تدريجياً من وسط القصيم تحت وطأة نهب الإنسان والحيوان. وكان نبات القرضة أشد وفرة هنا من أي مكان آخر في حدود تجربتي، وتبدو عليه آثار الرعي المكثف واضحة، وبالإضافة إلى هذين هناك وفرة النباتات المعتادة في الصحراء الرملية[1].

يمر الدرب المطروق بكثرة عبر منخفض شديد الملوحة يسمى النمرية، وعند طرفه البعيد صادفنا بقعة من الأثل وبئرين مهجورتين منذ أمد بعيد. والملح، الذي يمتد في شريط أبيض ناصع بوسط المنخفض، قد ثبت بوضوح أنه كثير جداً على مستوطنة ناشئة. وإلى الغرب من هذا الخط تمتد النفود بلا انقطاع حتى المنطقة المجاورة للبكيرية، حيث تتفكك إلى سهل من الرمل الأبيض تقع فيه قرى الرس، والخبراء، البدائع[2]. وكنا عند حافة منطقة صحراوية التي ربما كانت تتجول فيها الجماعات المغيرة. وقد سرنا على حذر، وأمامنا الخط الأشد سواداً لصفراء عنيزة، وهو المظهر الوحيد المريح من رتابة امتداد التلال الرملية. ثم، بعدما سرنا فيها، رأينا امرأة عجوزاً وحيدة راكبة حماراً عائدة من عنيزة إلى بيتها في الغماس. وكان

(١) للمزيد عن الأشجار والنباتات والمزروعات في بلاد القصيم، انظر: محمد الربدي، ج٢، ص ٣٢٩-٣٣٧. (ابن جريس).

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن قرى القصيم مثل: البكيرية، الرس، الخبراء وغيرها، انظرك المقوشي، البكيرية، ص ١٧ وما بعدها، عبدالله العبيد، البدائع، ص ١٩ وما بعدها، عبدالله الرشيد، الرس، ص ١٣ وما بعدها. (ابن جريس).

يبدو أنها غير قلقة من أحلام أو تصورات عن الأعداء المتربصين، ومع ذلك بعد هذا بلحظات رأيت عن يميننا منخفضاً واضحاً يشق الرمل، والذي اعتقدت أن يكون هو الوادي. وكان دليلنا، الذي أخذ سجائري بالأمس، يبدو أنه يوجهنا بعيداً نحو الشرق، وفي تلك الحالة ينبغي أن نعبر الوادي عند نقطة معروفة لي من قبل، وفي إجابة على سؤالي أنكر بعناد أن المنخفض الذي عن يميننا له أية علاقة بالوادي، على أنني كنت واثقاً بما فيه الكفاية من اتجاهاتي لأتحدى الخبير في معرفته، وتنحيت عنه جانباً ببعض الملاحظات اللاذعة عن الأدلاء عموماً وعنه خصوصاً. عند ذلك بدا أنه اعتبرها إهانة وطلب السماح له بالرحيل، الذي وافقت عليه فوراً، وعندئذٍ انزلق دون لغط كثير من موقعه الرديف خلف عايض وسار على قدميه حتى دون أن ينتظر لنخبره بأن مبلغاً جزئياً نظير خدماته الجزئية سوف يأتيه.

وهذا بالتأكيد أذهلني على أنني فهمت الأمر عندما جاءني عايض ليقول: إنه عندما استدرت نحو الغرب همس له الدليل بأنني كنت متجهاً مباشرة نحو منطقة الخطر. هذه المعلومات زادت من اهتمامي بالأفق رغم أنني واصلت السير في المنخفض الذي يُعرف باسم عدايم الفلق، ومن الواضح أنه يمثل قناة قديمة أو مجرى ماء راجع من الوادي. وكان مطوقاً بالرمل من جميع الجهات، ما عدا الجهة الجنوبية الغربية، التي يمتد فيها فرع من القناة الرئيسة. بعد دقائق قليلة عبرنا درباً يسير شرقاً وغرباً بين قرى الوادي والخبراء، ومنه نظرنا إلى أسفل على الوادي نفسه. والمبنى الوحيد لقصر ابن جبر كان الرابط بين موقعي وباقي جولاتي، وعلى مسافة بعيدة وراء القناة والرمال استطعنا بالكاد أن نرى ذُرى نخل عنيزة. وبعدما واصلنا السير على طول الدرب رأينا مزارع أقصى غرب واحة الوادي والسناجر في الصفراء خلف عنيزة. وقد سرنا عبر القناة عند هذه النقطة، حيث يوجد بها انبعاج واسع نحو الشمال بالقرب من أدغال الرويضة[1]. وسرعان ما عبرنا قناة السيل

(١) الرويضة: ربما تسمى أحياناً (الرويضية) (ابن جريس).

الحقيقية، التي كان اتجاهها العام من جنوب غرب إلى شمال شرق. من هنا كنت أستطيع أن أرى الوادي في جهة الغرب باتساع حوالي نصف ميل، ويمتد إلى الخلف لحوالي خمسة أميال حتى مجموعة من الجبال القرنفلية اللون في النفود، حيث توجد مجموعة من أشجار الأثل وبئر تسمى الحُفيرة.

عندما اقتربنا من قصر ابن جبر رأينا قطيعاً كبيراً من الإبل التي ترعى والتي قام رعاتها ـ بسبب خوفهم منا ـ بالمبادرة إلى إبعادها عن دربنا. وقد أرسلت لهم متركاً ليعيد إليهم الطمأنينة، وتوقف التشتيت والفرار المذعور. هذه هي المخاوف من هجمات مباغتة في منطقة الحدود عندما تكون الدولتان على جانبي الحدود في حالة حرب. يوجد في القصر بئر واحدة، وواصلنا السير حتى النفود بعده ومن أول قمة فيها رأينا نخيل ملقة أمامنا ونخيل عنيزة وراءها، وكانت بساتين قرى الوادي على يسارنا. بعدما تجاوزنا جويع صعدنا قمة الجبل التالي لنجد المدينة العظيمة تتباهى أمامنا، وخلال نصف ساعة كنا ندخل في بيت مضيفنا، محمد السليمان الحمدان، حيث كان من المقرر أن نقضي وقت الانتظار إلى أن يتفضل ابن سعود باستدعائنا إلى الشمال.

٦ـ الحياة في عنيزة

لقد غصت بتهور في مجتمع عنيزة، فعند وصولنا وجدت محمد يقوم بعمل القهوة لضيوف آخرين، منهم واحد من معارفي القدامى، هو فهد العقيلي أمير المذنب الذي كان كل هذا الوقت في بريدة مع ابن سعود والآن في طريق عودته لبلده[1]. وجلست بجواره ودخلنا في حديث عن الموضوعات المعتادة في هذه الأيام.

(١) للمزيد عن فهد العقيلي الذي تولى إمارة المذنب في عهد ابن رشيد، ثم في عهد ابن سعود، وأخيراً أرسل أميراً إلى بلاد عسير أثناء دخولها تحت الحكم السعودي. انظر: الغنايم، المذنب، ص ٣٥، ابن جريس، أبها حاضرة عسير (دراسة وثقافية)، ص ٦٠، للمؤلف نفسه، عسير في عصر الملك عبدالعزيز، ص ٣٧، للمؤلف نفسه. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير أنموذجاً) الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م -، ص ٤٣٨-٤٣٩. (ابن جريس).

فقد غادرت القوات الوهابية الطرفية قبل الفجر في اليوم السابق (١٢ سبتمبر)، وبالتالي سيكون ابن سعود بصورة عملية متأكداً من مواجهة ابن رشيد في العراء وهو في طريق عودته على عجل من المنطقة المجاورة لجبل آبان حيث ـ من المعروف الآن بصورة مؤكدة على الرغم من الحاجة إلى تفاصيل ـ أنه في الآونة الأخيرة في صراع مع ابن نامي من قبيلة حرب[1]، الذين كانوا حتى عهد قريب من رعاياه، ولكنهم الآن انقلبوا لمصلحة منافسه. وهكذا دار بنا الحديث بسرور إلى أن جاء الدكتور عبدالله، الذي تخلف ليهتم بأمر العفش وسكننا، وهو نفسه لديه فكرة طيبة جداً عن المستلزمات الأساسية للراحة وانضم إلينا. عندئذٍ استدار إلي فهد متسائلاً[1] «أنت إذن، فيلبي» «والله!! ما عرفتك، وكنت أتساءل من هذا البدوي الغريب، ولكنك كنت طبعاً مع عبدالله والآن تذكرت. سامحني». وبعد ذلك استأنفنا حديثنا عن كل الأشياء قاطبة. على الرغم من شدة التزامه الديني إلا أنه غير متعصب وأكثر استنارة مما قد توحي به كثرة أسفاره. وقد أدى فريضة الحج بمكة عام (١٩١٥م)، وهو آخر حج تحت النظام التركي، على أنه لم يواصل إلى المدينة. وبخلاف ذلك لم يخرج أبداً من وسط الجزيرة العربية، ولا حتى للكويت أو البحرين. وقد كتبت عن كرم استقباله للضيوف في حصنه بالمذنب من قبل.

وبعد الانتهاء من تناول القهوة وذهاب فهد صعدت أنا وعبد الله للغرف المخصصة لنا وهي الغرف نفسها التي سكنها ابن سعود عندما نزل مؤخراً ضيفاً على محمد. الغرفة الرئيسة أو المجلس يبلغ طولها خمسة وعشرين قدماً، وعرضها عشرة أقدام، وارتفاعها ثمانية عشر قدماً، وبها إفريز من الجبس الأبيض الخالي من الرسوم، ويتميز عند القمة بنموذج أبراج متدرجة، تصل إلى ما يقرب من ثلثي

(١) للمزيد عن قبائل حرب وفروعها ومواطنها، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٥١-١٥٤ (ابن جريس).

(٢) فهد العقيلي كان أميراً على المذنب لابن رشيد عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)، ثم تولى إمارتها لابن سعود أثناء دخولها تحت نفوذه. انظر. الغنايم، المذنب، ص ٣٥ وما بعدها. (ابن جريس).

ارتفاع الجدران. في الأخيرة يوجد الكثير من فتحات المشكاة الضحلة والقوالب البسيطة والأقواس البارزة، بينما في الجدار الغربي توجد نافذتان، بارتفاع خمسة أقدام وعرض ثلاثة أمتار، وبهما ضلف من الخشب المزخرف ولكن دون زجاج. وكان الباب من خشب الأثل العادي ذا لون أصفر ضارب للحمرة، وموقد القهوة في الركن الشمالي الغربي من الغرفة قرب المدخل مجهز من الجبس البسيط غير المزخرف، ومرفوعا فوق مستوى الأرض. والسجاجيد مفروشة على الأرضية فوق أساس من حصير كلكتا[1]، والغرفة مريحة على الرغم من عدم التهوية فيها؛ لأن النوافذ تطل على ساحة ضيقة خلفها جدار شاهق مصمت ـ وفيها تعيش مواشي الأسرة ـ بقرتان وستة من الأغنام وطيور من سلالة البنطم. وقد أضيفت لمسة إنسانية على أهل البيت بوجود اثنين من الغزلان الرائعة، كبيرتين تماماً وقرناهما منحنيان للداخل بحوالي عشرة إلى اثنتي عشرة بوصة في الطول، وهما تتمتعان بحرية الجري في البيت. وتتجولان داخلتين وخارجتين من الغرف وترقيان وتنزلان من الدرج باحثتين عن شيء تلتهمانه. ولديهما ولع بالورق والسجائر، وسرعان ما علمتاني أن أحفظ ممتلكاتي داخل صناديقي. ومع الغزلان تجري آمال بيت محمد، ولدان صغيران رائعان ذوا سحنة ودودة وبلا خجل، وكانا يأتيان على فترات متكررة ليسألاني إن كنت أود قهوة وأحياناً أخرى كثيرة، يدخلان لمجرد أن يُلقيا نظرة عليّ بكل بساطة. كان عتيق طفلاً شديد الجمال عمره ثمانية أعوام تقريباً وذا وجه نحيل بيضاوي وخصلات شعر مضفرة مثل البنات، بينما كان سُليّم ذا صفات ذكورية بكل تأكيد، ولداً صغيراً قوياً عمره خمسة أو ستة أعوام، وشعره مقصوص صغيراً وليس فيه من ملامح المظهر الحسن.

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن هيئة المنازل القديمة في عنيزة وأدوات تأثيثها، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٢٠٣-٢١٨. (ابن جريس).

هناك بجوار الغرفة الرئيسة في جناحنا وعلى مستوى مرتفع قليلاً ما يشبه غرفة النوم المربعة، مساحتها عشرة أقدام تقريباً، ومفروشة بصورة فخمة بالسجاجيد والمخدات. وهناك أيضاً نصوص معظمها من القرآن، وإعلانات عن المنتجات الصناعية الأوروبية. وهذا شيء جدير بالملاحظة على وجه الخصوص في مثل هذه البيئة؛ لأنها صفيحتان معدنيتان تمجدان مزايا سجائر من نوع (بلايرز) قطع البحرية (Navy cut) تُزيّن الجدران. والأدوات الزجاجية الرخيصة ذات الألوان القبيحة من أصل نمساوي تُزيّن الفتحات، والرف الخشبي القذر ذا اللون الأصفر الضارب للحمرة. وبينما كنا نتعجب من محتويات هذه الغرفة نودينا للفطور[1]، الذي قُدّم في غرفة أخرى من الجناح، الذي كانت جدرانه الطينية البنية اللون خالية من الزخارف. كانت الوجبة، التي أعدتها نساء البيت، بسيطة ولكنها طيبة المذاق، أرز مع اللحم في أصناف متنوعة ولذيذة ومعها فواكه[2]. كان ذلك تغييراً ساراً لجهود بريح طباخ عبدالله وهو رجل متوسط الذكاء لا يعلم إلا قدراً يسيراً عن فنه.

بعد الفطور جاءتنا الأخبار أن الأمير العجوز المهيب ـ عبد العزيز ـ كان يتناول القهوة مع جار له وسيكون مسروراً لو رآنا. وقد ذهبنا إلى هناك واكتشفت أن مضيفنا هو إبراهيم بن حمد السُليم، الآن رجل طاعن في السن ذو ملامح اكتست بالحكمة والوقار، بيد أنه لا يعرف ولا يشك هو نفسه أن يعرف، أنه قد خُلّد في دور النذل بواسطة واحد رافقه وخانه قبل أربعين سنة. فلقد كان هو المسؤول عن قافلة الزبدة التي رافقها داوتي في طريقه إلى الحجاز؛ ولأن الزمن قد أوهن ذكريات هذه الحادثة الخالدة، فلقد بدا أنه قد نسي الحوادث الأشد فظاعة في الرحلة، التي كان

(١) يظهر أنه كان يرد إلى بلاد القصيم وغيرها من الجزيرة العربية سلع عديدة بعضها تم تصديرها من أوربا، وسلع أخرى من بلاد الهند وما جاورها. للمزيد عن الحياة التجارية في عنيزة قديماً، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥-١٤٩. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على أنواع الأطعمة والأشربة في عنيزة خلال العقود الماضية، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

فيها شخص غير جدير بالثقة على الإطلاق، بل ويزعم أن جهوده قد أنقذت حياة خليل[١] من تهديد الشريف الغاضب الهائج، عندما تركه عند عين زيمة. في تلك الأيام كان «من الشيوخ الشباب الأقوياء في العشرين من عمره، ذا ملامح نبيلة»، ولكن «الصدأ الوهابي كان في روحه»[٢]. والآن أصبح شيخاً كبيراً، صامتاً وفقيراً، يعيش في بيت وضيع، فمجلسه في الطابق الأرضي دون لياسة الجدران المعتادة من الجص. وبمصادفة غريبة قابلته مرة أخرى في يناير ١٩٢٦، الشهر نفسه الذي مات فيه داوتي، عندما جاء مع عبد العزيز الكبير في السن بنفس طريق قوافل الزبدة القديمة إلى جدة ليقدم التهاني إلى الملك الوهابي الجديد للحجاز. ومرة أخرى تحدثنا عن خليل، ولا يعلم كلانا أنه في ذلك الوقت كان يرقد على فراش الموت، بعد نصف قرن تقريباً من المغامرة التي أوشكت أن تنهي حياته في هذا الحجاز نفسه[٣].

كان عبد العزيز مليئاً بحرارة التعاون الودود. وقال: «لقد انتهيت الآن من هذا العالم وليس عندي أي رغبة أن أرى شيئاً خارج عنيزة أو أن أهتم بهموم الدنيا». ومع ذلك فقد طلب أخباراً عن الحرب، وعندما مدحت مدينته سألني بمكر إن كنت أفضل بريدة. وبكل صراحة عبرت عن رأيي في تلك المدينة وسكانها غلاظ الأكباد، وبدا سروره بضحكة خافتة شبه مكتومة[٤]. وقد جاء الآن عبدالله، تابع الأمير، الذي كان يخدمني من قبل، بدعوة إلى بيت الحاكم، وانطلقنا معه خلال السوق المزدحم. وكانت تنهال عليّ التحايا من جميع الجهات بأدب من معارف قدماء وغرباء على

(١) لمزيد من التفصيلات عن داوتي ورحلاته في الجزيرة العربية، انظر: روبن بدول. الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ٧٧-٩٠. (ابن جريس).

(٢) «الصدأ الوهابي» عبارة غير سليمة، لأن الحركة الوهابية ليست مذهباً كما يشير إليها فيلبي في معظم كتبه ودراساته، ثم إن كلمة (الصدأ) التي استخدمها كان من الأفضل أن يقول:- (أثر الدعوة الوهابية...» أما ما شابه هذا التعبير. (ابن جريس).

(٣) للمزيد من المعلومات عن داوتي، انظر: روبن بدول، المرجع السابع، ص ٧٧-٩٠. (ابن جريس).

(٤) إن الحاسية بين القبائل والمدن المتجاورة أو المتناظرة، أو المتشابهة في بعض المقومات تكاد تكون ظاهرة موجودة في معظم أجزاء الجزيرة العربية، وربما في معظم أنحاء العالم. (ابن جريس).

السواء، وتعجبت بسعادة من الفجوة العظيمة التي تبدو أنها تفصل هذه الجزيرة الصغيرة من الإنسانية عن جميع جيرانها. ولقد بدا لي أنه، بالإضافة إلى الصداقة الحميمة الأشد قوة لمواطنيها مع المدن الكبرى في العالم الخارجي، فإن الاستقلال التاريخي لعنيزة في واحتها المطوقة بالرمل كان مسؤولاً بصورة جزئية عن تعاطفها الكبير مع الغريب داخل بواباتها[١].

كان عبد الله ـ الأمير ـ في الخارج عندما وصلنا، غير أننا أخذنا مقاعدنا على المخدات المرصوصة حول الفناء المفتوح في مجلسه ننتظر قدومه. وقد حيانا بود شديد ثم انهمكنا في الحديث عن الحرب. فقال: «إن الحرب هي التي جلبت لنا هنا في الجزيرة العربية ازدهاراً كبيراً، ففي الماضي كانت الأمم الكبرى تحتفظ بالمدخرات الهائلة من الثروة لنفسها، ويتاجر بعضها مع البعض، ولكنهم الآن يصبونها دون قيد، ونحن الذين كنا فقراء من قبل ودون وسائل الراحة في الحياة، قد أصبحنا أغنياء بوفرة المال، والسلاح، وما شابه. إننا لا نهتم هنا إذا كانت الحرب سوف تستمر إلى الأبد». وواصل حديثه قائلاً «عندما مر شكسبير من هنا سألنا كيف نستطيع نحن ـ العرب ـ أن نتحمل هذه الحياة من الكفاح المستمر واضطراب الأمن[٢]. ومع ذلك قبل أن تنقضي شهور كثيرة كانت حضارتكم الأوروبية هي التي أصبحت ضحية للصراع على نطاق مرعب تماماً. فليس لدينا في النهاية إلا القليل مما نشتكي منه». وسألت ما إذا كان مقر إقامة الأمير[٣]، الذي كنا فيه ذلك الحين، هو المبنى نفسه الذي عاش فيه زامل الكبير في عهد داوتي. فقال لا، «هذا ليس من

(١) للمزيد عن التاريخ السياسي والحضاري لمدينة عنيزة، انظر: الشريف، منطقة عنيزة، ص ٢٧ وما بعدها، عبدالعزيز القاضي، العنيزية، ص ٢٢ وما بعدها، (١٣٨٢هـ/١٩٦١م)، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٣٧-١٧٩. (ابن جريس).

(٢) هذه المعلومات تعكس بعض الشيء ما كانت تحياه الأجيال السابقة من فقر وجوع وخوف واضطراب في الأوطان. (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن الإمارة والأمراء في عنيزة منذ القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، انظر: السلمان، مدينة عنيزة، ص ٤٩-٥٩. (ابن جريس).

ملكنا ولكنه مستأجر، وقصر زامل يوجد في المجلس الكبير(ميدان السوق) ولا يستخدم الآن إلا كمستودع ومقر ضيافة عام. هذا البيت قد بُني حديثاً في تلك الأيام التي تتحدث عنها».

بعد فترة العصر الهادئة التي قضيناها في عزلة بمقر إقامتنا خرجت أنا والدكتور عبدالله متباطئين لزيارة صالح الفضل بدعوة منه. وفي طريقنا مررنا على منزل عائلة الخنيني المتهدم الآن، وهو الذي مكث فيه داوتي القدر نفسه من الزمن. وفي وقت لاحق من اليوم تعرفت على ابن صالح الخنيني، ابن أخ صديق داوتي عبدالله من الأسرة نفسها، والذي كان إخوانه صالح ومحمد. وعضو آخر من هذه الأسرة، محمد بن حمد، حفيد عبدالله قابلته أيضاً خلال اليوم وهو فتى في حوالي السابعة عشرة من عمره. لقد اشترت العائلة بساتين نخيل شاسعة في البصرة، التي صادرتها مؤخراً السلطات العسكرية البريطانية مقابل مبلغ قدره أربعون ألف ريال كموقع لمحطة طاقة كهربائية. وكان نصيب محمد آخر أخ على قيد الحياة، وبعد أن توفي في العام الماضي قد يُحجز كوديعة انتظاراً لتقديم شهادة إرث. أما علي الذي ليس لديه رغبة في السفر إلى البصرة، كان محتاراً من الإجراءات المطلوبة لضمان الإفراج عن ميراثه. ولقد تطوعت، امتناناً بكرم الضيافة وحرارة المودة التي طوقت بها في عنيزة، أن أتخذ الترتيبات اللازمة لسرعة تسوية القضية. وهكذا تشكلت حلقة أخرى في سلسلة حسن النوايا التي بدأها داوتي في بيت الخنيني الودود.

كان صالح الفضل شديد القلق على ولده وابن أخيه في مكة، اللذين زجّ بهما في السجن بتهمة باطلة الشريف الطاغية. ولقد قدمت طلبات ملحة نيابة عنهما، ولكننا ما نزال دون أخبار عن نتائجها، وقد تحمل صالح مشكلته بفلسفة الأمل. فلقد كان رجلاً طاعناً في السن ذا أخلاق سامية وجمال كبير مع إسراف في التعبير الظاهري

عن عواطفه غير الشائع عند العرب في نجد. وبالنسبة لي كان يبدو دائماً من النوع نفسه من تلك الطبقة التي أطلق عليها داوتي بذكاء شديد لفظ «أرستقراطي»[١].

ومن بيته، بعد الدورات المعتادة للشاي، والقهوة، والبخور، مشينا خارجين من المدينة عن طريق ضاحية الضليعة حتى الحصن القديم لقصر الخرشية كما ينطقه العرب، وقد سُمي على اسم القائد التركي، خورشيد باشا. كانت جدرانه الطينية الضاربة للحمرة في حالة خربة، والمبنى ذا أبعاد متوسطة فقط. ولقد بحثت دون جدوى عن الآثار. والسور الدائري الحالي للواحة، الذي قيل أنه بُني منذ حوالي عشر أو اثنتي عشرة سنة مضت ليحل محل السور الذي كانت أنقاضه لا تزال تقف منتصبة على مقربة من المدينة، وهو خط ثان متهدم للدفاع، يمتد خارج هذه الآثار، ويفصلها عن بقايا الثكنات التركية القديمة، التي تبدو أنها مشيدة بصورة غير محكمة من الصخور والدبش التي يمسكهما معاً ملاط من الجص الأبيض. إن السور القديم في الحقيقة يطوق الواحة كلها كما كانت توجد في ذلك الوقت، بيد أن توسع الزراعة في هذه الجهة (الشرقية) قد استلزم انتقال السور للأمام. وفي هذا الوقت حتى هذا السور لم يكن بأي حال يضم الواحة كلها فقد كانت رقع النخيل والزراعة النائية إما غير محمية أو مسورة بأسوار ثانوية تلتحق بالسور الدائري الرئيس. وطبقاً للروايات المحلية، فإن الواحة، والمدينة والسكان قد زادوا زيادة هائلة خلال الأربعين سنة الماضية، ومع ذلك لم تكن عنيزة داوتي تختلف عن عنيزة في أيامي[٢].

بالقرب من القصر يوجد أعمق بئر في الواحة كلها، خمس عشرة قامة إلى الماء مقابل ست فقط في آبار الخريجية. ومنحدر الحوض يقع من الشمال الشرقي إلى

---

(١) يقصد بـ (ارستقراطي) أي من وجهاء وأعيان القوم في تعاملاته الاجتماعية والأخلاقية. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن هيئة مدينة عنيزة العمرانية والجغرافية والسكانية، انظر: محمد السلمان. مدينة عنيزة، ص ١٩٩ وما بعدها، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٦٢، أمين الريحاني، ملوك العرب، ج٢، ٦١٢، عبدالرحمن الشريف. منطقة عنيزة، ص ١٨٣. (ابن جريس).

الجنوب الغربي، حيث توجد أكثر الأرض انخفاضاً. والزراعة المزدهرة تُقسّم إلى أحواض أو بقع مستطيلة صغيرة لا تزيد عن خمس خطوات في أربع، ودليلنا، عبدالله نفسه، قال: إنه في المتوسط توجد حوالي ثلاث مئة إلى خمس مئة رقعة من هذه الرقع الزراعية لكل بئر. وكان يبدو لي أن عشرة أفدنة تقريباً يمكن تروى بمثل هذه الآبار بالطريقة المكثفة السائدة في المنطقة[١]، وتستخدم الحمير والأبقار لأغراض سحب الماء، ولكن الإبل هي الأكثر شيوعاً.

بعد العشاء في بيت محمد عمدنا إلى بيت عبد العزيز الشيخ العجوز لآخر مناسبة اجتماعية في اليوم. وجدنا هناك حفيد زامل عبد الرحمن بن عبد العزيز، ونهض واقفاً في تحية ودودة عندما دخلت المجلس الموجود في الخارج، وأيضاً ابن عمه سُليم وعلي الخنيني. ودار النقاش حول المزايا المختصة بكل من بريدة وعنيزة، ووجدت آذاناً صاغية لنقدي القاسي للأولى. وسألوني: «أليست البيوت أفضل بناءً في بريدة؟»، «وأليست شوارعها الواسعة أشد بهاءً وفخامة من شوارعنا؟» فقلت: «نعم، شوارعهم في الحقيقة رأيتها وعلمتها وتأكدت منها، ولكن بالنسبة لبيوتهم، باستثناء القصر ومقر إقامة الأمير، فإنني لم أر إلا داخل بيت واحد وكان ذلك بالليل». وأردفت أن «شوارعهم جميلة وواسعة لمرور الإبل، ولكن أهلها جماميل، أباله القوافل»[٢]. إن طريقة ذكر المهنة غير المشينة تستخدم أحياناً كإهانة أو سُباب

(١) للاطلاع على أصناف المزروعات في عنيزة وطرق الري، انظر: السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣-١٤١، عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٣٣، ٢٤٦، ٢٤٧، جاكلين بيرين. اكتشاف جزيرة العرب، ص ٣١٠، الشريف، منطقة عنيزة، ص ٩٠، ١١٩، أحمد العناني «رحلة الكابتن وليم آيرفن شيكسبير في شبه الجزيرة العربية» دراسات تاريخ الجزيرة العربية. الكتاب الأول، الجزء الثاني (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ص ٤٦٥-٤٨٤. (ابن جريس).

(٢) يبدو من كلام فيلبي عن مدن القصيم الرئيسة مثل: (بريدة،وعنيزة) أن الأولى أفخم في عمارتها كونها المركز الرئيس لأمير القصيم بشكل عام وأمير بريدة بشكل خاص. لكن أهالي مدينة عنيزة كانوا أكثر انفتاحاً على العالم وأقل تعصباً من سكان مدينة بريدة (ابن جريس).

خفيف، وهؤلاء القوم الطيبون من عنيزة الفخورون بمدينتهم وشهرتهم بكرم الضيافة، ابتسموا تقديراً للحكم الذي أصدرته.

ومن الآخرين الذين قابلتهم ذلك اليوم إبراهيم بن حمد، حفيد إبراهيم السيف، الذي أدخل داوتي في بيته على أطراف عنيزة عند قدومه أول مرة. وقصة هذه الحادثة مثل كل الأساطير، قد أصبحت غير واضحة في تفاصيلها، ولكنها أعيدت إلى الأذهان لفائدتي، كما تذكّرها، واحدٌ سمعها من أبيه الذي كان لا شك واحداً من الثلاثة «أو الأربعة الرجال الشباب، أولاد إبراهيم»، الذين ضايقوا الغريب ساعة الصلاة. إن داوتي، كما تروى القصة الآن، قد رقد دون دراية ليرتاح في المسجد غير مرتاب، ولكن بعد ذلك بفترة قصيرة جاء إبراهيم، رجلٌ صالحٌ، وأيقظه لينضم إلى صلوات الجماعة، فقال له الضيف إنه مسيحي، عندئذ تعجب الرجل العجوز قائلاً: «نصراني!؟، «أعوذ بالله!» أي ألجأ إلى رحمة الله، وكان سينهال عليه ضرباً لولا تدخل واحد يدعى يحيى من عائلة الذكير[1].

في تلك الليلة كنت والدكتور عبد الله قد نمنا على السطح فوق غرفتنا الرئيسة وحيث إننا قد أصدرنا تعليمات بأنه لا ينبغي لأي شخص أن يوقظني في الصباح، فقد هيأت نفسي لنوم طويل بعد يوم حافل بالضيافة الكريمة. بيد أن الجدار الذي طوله ستة أقدام حول السطح قد منع النسيم اللطيف من دخول السطح المسور الذي كان قد حمصته الشمس طول النهار. وكان هذا الجو المكفهر قد جعل النوم مستحيلاً. ثم أيقظني آذان الفجر من الرقاد غير المريح، ولما نمت مرة أخرى أيقظتني الغزلان التي

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن رحلة داوتي في بلاد عنيزة انظر: عبدالعزيز بن صالح الشبل «ملخص بحث باللغة العربية: بعض مظاهر الحياة في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر في كتاب الرحالة تشارلز داوتي: حالة مدينة عنيزة في القصيم» بحث منشور في سلسلة مداولات اللقاء العلمي السنوي الخامس لجمعية التاريخ والآثار وبدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية (٦-٩/صفر/١٤٢٥هـ - ٢٧-٣٠/مارس/٢٠٠٤م) ص ٦٧٣-٦٨٥ (ابن جريس).

اكتشفت دفتري بجوار فراشي. وفي وقت لاحق أجبرتني الشمس، وهي تزحف فوق الجدار الساتر على الفرار. وكانت دورة مياه قد أعدت خصيصاً في جناحنا لابن سعود، وفي كل من اليوم السابق وهذا الصباح استمتعت برفاهية الاغتسال الطيب حقاً. إن المرحاض قد وُضع بصورة غير ملائمة في الجزء الخاص من البيت، حيث يجازف المرء بمقابلة النساء من أهل البيت، وكما في جميع الأوقات فإن الخدم والأطفال يتجولون، الأولون يرافقون المرء عارضين خدماتهم من غير سؤال ويحملون الإبريق في يدهم للوضوء. إن الضيف يكون بلا خصوصية في البيت العربي؛ لأن الخصوصية لا توجد فقط إلا في مكان الحريم المنعزل، الذي يكون محرماً على الغريب[١].

كانت أول زيارة لنا في اليوم التالي لبيت علي بن صالح الخنيني، وفيه فناء كبير مفروش بالرمل النظيف ليكون بمثابة مجلس مسائي لشرب القهوة عند غياب الشمس. أما مجلس النهار فكان بجواره وهو غرفة كبيرة بسيطة ذات جدران جرداء من الزينة وأرضية رملية وقليل من السجاد والمخدات.

هنا قابلنا واحداً من مرضى عبد الله في أول أيامنا بعنيزة، مريض بالزهري والشلل يضطجع بضعف على مخدة، ولكنه أحسن حالاً بفضل العلاج الذي تناوله. وقد اعترف بأنه قد قضى بعض الشهور منذ إثنتي عشرة سنة مضت في القاهرة ودمشق، وعندئذٍ جلب معه المرض المميت من الأجانب. وقبل ذلك نال بعض التحسن من العلاج بنوع ما من الأيودين. وفي وقت لاحق من اليوم اندفع مريض آخر على عبدالله، فقد كانت يده اليسرى متورمة بشكل كبير بسبب خُرّاج وقد اقترح الطبيب أن يقطعه[٢]. على أنه لم يكن لديه أية أدوات وعرضت عليه استخدام موسى الحلاقة التي معي.

---

(١) كلام فيلبي بأن الضيف لا يحصل على خصوصيته في البيت العربي كلام غير صحيح، فالعرب مشهورون بإكرام الضيف بكل الوسائل، وبيوت العرب، وبخاصة في جزيرة العرب أفضل من غيرها من حيث توفير الخصوصية الجيدة للضيف، ولا تقارن مع بيوت الأوربيين في هذا الجانب (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التوضيحات عن الحياة الصحية في جزيرة العرب خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) انظر: محمد حسن مغني. تطور الخدمات الصحية في المملكة ص ١-٨٦، بدر الربيعة، تطور الخدمات الصحية، في المملكة، ص ١-٢٩ (ابن جريس).

إن سعادة، أو شرف، أو واجب تقديم الضيافة لنا في هذا اليوم الثاني (الرابع عشر من سبتمبر) ـ التي تشمل وجبتي الغداء والعشاء ـ قد طالب بها الأمير السابق عبدالعزيز، الذي ذهبنا إلى بيته بعد شرب القهوة في بيت الخنيني. كانت الوجبة قد قُدّمت في رواق ذي أعمدة مجاور للمجلس ذي التهوية المفتوحة، وأحضرت الصينية ومُدّت أمامنا. كان الأرز المبهّر والدجاج المحشو يشكلان الجزء الرئيس من الطعام مع أطباق من الخضراوات اللذيذة وسلطانيات من المرق الرقيق والخبز وطبق ممتاز من القشدة ولبن الزبادي. والخوخ أيضاً كان فخم النوعية والتمور من أربعة أنواع[1]، وعندما طلبت ماءً أحضروا لي لبن بقر بارد مثل الثلج. لم نكد ننته من طعامنا إلا واستأذنا، حسب العادة للانصراف بما لا يزيد عن عبارة "الله ينعم عليك" لمضيفنا، ساعين لأهل بيت الذكير حيث كنا دُعينا على القهوة. وعند وصولنا عوتبنا بلطف على تأخرنا من قبل مضيفينا سليمان وعبد العزيز، أبناء يحيى الذكير، اللذين أبديا أسفهما على أن عمهما العجوز مقبل الذي كان في صحة متدهورة وأتى خصيصاً ليقابلنا، لم يستطع المكوث.[2] هذه العائلة لها ممتلكات كبيرة وتجارة مزدهرة في البحرين، حيث إنها في هذا الوقت دخلت في نزاع بسيط مع الوكالة السياسية البريطانية.

بكل صفات «الكفاءة» في جميع المؤسسات البريطانية في الشرق، كانت الوكالة مهتمة بشق طريق مستقيم يحيط عبر بعض ممتلكات الذكير عكس رغبة الملاك، الذين زعموا أنه سوف يؤثر بصورة وخيمة على قيمة البناء في الأرض. ولقد تعهدت أن أمثل وجهة نظرهم لدى الجهات المختصة، بيد أنني لم أعرف أبداً ماذا حدث في

(١) حلوه (بلح أحمر كبير)، شقراء (التمر المطلوب باستمرار في عنيزة ومن الصنف الممتاز)، قطار (تمر بني صغير) وأمحمام (تمر كبير يميل إلى اللون البني)، سكري وهو منتج آخر يلقى تقديراً كبيراً، على الرغم أنه يكون أفضل عندما يكون يابساً أكثر مما يكون طازجاً، ونوع أصفر كروي يسمى روثانا كان مفضلاً هذه الأيام في مرحلة الليونة أو نصف النضج. (فيلبي).

(٢) مقبل الذكير المتوفى عام (١٣٦٣هـ/١٩٤٣م) في البحرين، ويعد من مؤرخي نجد، يذكر أنه تولى مالية الأحساء بعد دخولها تحت نفوذ الملك عبدالعزيز الفيصل عام (١٣٣١هـ/١٩١٢م). (ابن جريس).

النهاية. وملأ الحديث الفترة الفاصلة بين دخولنا والانتهاء من إعداد القهوة، وهو عملية معقدة وأحياناً مملة. ثم صُبّت القهوة ودارت علينا مع دورة من الشاي ثم القهوة مرة أخرى، وعندئذٍ نهض واحد لينصرف، إلا وأمسك به للطيب أو البخور[١]، الذي بعده يستطيع المرء أن يرحل.

لم نكد نحط رحالنا في البيت، آملين أن نستمتع بفترة عصر هادئة قبل أن نشرع في ارتباطات المساء، إلا وتتبخر آمالنا بدخول عبد العزيز بن قنيّر وهو جار قريب ويتصل بالمصاهرة مع مضيفنا. واضطررنا بحكم الظروف أن نقبل دعوته الملحة ورافقناه عبر الشارع حتى بيته، حيث في مجلس بالطابق الأرضي، أنيق ونظيف، استسلمنا لمزيد من شرب الشاي والقهوة. دخل الطفل عتيق وجلس بجواري ودار الحديث عن التعليم، الذي لا يُقدّم منه إلا النزَ اليسير في عنيزة، وفي الحقيقة لا شيء إلا مدارس تحفيظ القرآن. كان الولد يستطيع أن يقرأ أو يتهجى النص المقدس ببعض الصعوبة، ولكنه لا يقدر على الكتابة. ولدى مضيفنا ولدان، أصغرهم يستطيع القراءة بينما الأكبر لم يصل حتى إلى هذا المستوى ـ وكلاهما لا يستطيعان الكتابة[٢] وقد ـ تعجبا عندما سمعوا أن ابني، الأصغر من عتيق بسنتين، يكتب مراراً خطابات لي[٣].

---

(١) البخور والطيب من عادات عرب الجزيرة العربية، وتقديمه للضيوف يعد من أفضل مراتب الاحتفاء والإكرام للضيف. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الاطلاع عن التعليم في عنيزة، وعموم بلاد القصيم قديماً، انظر: السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ١٢٤-٢١١، (ابن جريس).
عبدالله أبو راس وبدر الدين أديب. الملك عبدالعزيز والتعليم (معلومات النشر بدون، ١٤٠٧هـ) ص ٥١، ٧٥، عبدالله الشبل «التعليم في نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب» مجلة كلية الشريعة بالأحساء (١٤٠٢هـ/١٤٠٣هـ) عدد (٢) ص ٥٠٧، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٧٣-٨٩. (ابن جريس).

(٣) مقارنة فيلبي لمستوى التعليم عند أبناء الإنجليز مع مستوى التعليم عند أبناء نجد غير ممكن، لأن التعليم في إنجلترا قديم جداً. أما جزيرة العرب فقد سادها الجهل والأمية لعصور عديدة، وبخاصة أهل البوادي والقرى والأرياف. (ابن جريس).

أول موعد لنا في المساء حوالي الرابعة عصراً، كان لشرب القهوة مع مقبل الذكير الطاعن في السن، الذي لم نجده في الصباح في حفلة ابن أخيه. ومعه وجدنا أخاه الأكبر، يحيى، الذي يكبره بأربع سنوات ومعافى وبصحة جيدة وحسن الشهية في عامه الثمانين على الرغم من أنه كان أصم مثل العمود. هذا العيب لم يؤثر على روح الدعابة الطيبة السارة لديه، ولقد شارك مشاركة نشطة في الحديث بمساعدة ابنه، الذي يكرر له كل شيء يقال بصوت الرعد. وأخرج الرجل الأصم قطعة معدنية لكي أفحصها تركب في الأذن والتي قال إنه قد تركها منذ وقت طويل لأنها عديمة المنفعة، وسخر من عجزه بالمزاح، مدعياً أنه استفاد من أذنيه لسنوات طويلة أكثر مما يعيش معظم الناس. ومقبل نفسه يعاني أيضاً من الصمم الخفيف وتعرض لمزيد من المرض مؤخراً، ونتيجة لذلك عاد إلى مدينته الأصلية بعد غياب لمدة خمسة وعشرين عاماً ليتعافى من تأثيرات مناخ الخليج الفارسي الوخيم. فلما يزيد عن أربعين عاماً كان يدير ثروات العمل التجاري لعائلته في البحرين، وزار الهند والعراق، وموانيء الخليج وحتى جدة. لقد كانا زوجاً من الرجال المبتهجين والرائعين، مواطنين فاضلين في مدينة فاضلة كأنهما تويدلدم وتويدلدي (Tweedledum and Tweedledee) في هيئة عربية، الآن، واحسرتاه، اجتمعا مع آبائهم بكامل سنوات العمر والشرف. وقدّم مقبل بندقية رياضية ذات عيار صغير من صنع ألماني على أمل أنني ربما أكون قادراً على استكمال النقص في مخزون ذخيرته المنخفض. وهو يعتقد أن السلاح إنجليزي لأن النقوش عليه كانت بتلك اللغة، بيد أنني اضطررت إلى أن أقول له: إن عليه أن ينتظر لذخيرته حتى نهاية الحرب. وعلى كلا جانبي مؤخرة البندقية يوجد ختم بالعلامة التجارية ليون آند سن (Lion and Sun)، والسلاح، الذي كان من الواضح أنه من مصدر فارسي، قد أعطاه له العقيد روس (Colonel Ross)، أول قنصل حسب ذاكرته في البحرين. وسألني «لماذا لا تنطلق وتصطاد الأرانب البرية؟». فقلت: «أنني لم أر إلا القليل منها، وقد أكد لي أنها كثيرة جداً في

النفـود حـول وحـلان. ولقـد لاحـظت عـدداً من الأرانب ذات لونين أبيض وأسـود، ربمـا تكـون أرانب برية، في كـل مـن البيـوت الخاصـة للبيع في السوق. وقـالوا لي: إنها تأتي من العارض[١]. كانت الجلسة التي قدموا لنا فيها عصير الليمون بالإضافة إلى الشاي والقهوة، قد انفضت بوصول فهد البسام باحثاً عن عبدالله. فقد كانت ابنته، فاطمة مرضت بالحمى في الليل، والشيخ الكبير يعتصره الحزن الكئيب خشية وقوع الأسوأ[٢].

بعدما تركنا عبد الله ليرافقه، ذهبت ومحمد السليمان لنرى واحداً كان قد تحدث معي عنه من قبل، وعند دخول مجلس علي بن حمد المرخم، وكان في غرفة بالكاد تبلغ عشرة أقدام مربعة وقذرة وسوداء بسخام الدخان، كنا قد جوبهنا بأغرب مشهد على الإطلاق، كما لو كان خزانة عرض في محل ساعات. فقد مُدّت أمامنا في صفوف نحو مئتي ساعة يد وساعة حائط من مختلف الأنواع، والأشكال، وآلية الساعات ولمبات أخرى، وماكينة خياطة ماركة نومان (Naumann) من درسيدن (Deresden) ومواد ميكانيكية أخرى. ففي بواكير حياته اهتم علي بمنتجات الساعات قد أرسل إلى مكة ليتعلم المزيد عن هذه الأشياء. وبعد سنتين في المدينة المقدسة عاد ليستقر كمصلح للساعات في عنيزة، وبعد ذلك بخمس سنوات ذهب للبصرة، وهناك خلال إقامة مؤقتة لمدة سنتين انشغل بأجهزة الحاكي (فونوغراف).

ثم عاد لموطنه وجمع زبائن كثيرين امتدوا حتى بريدة، التي منها ـ حتى ونحن جلوس معه ـ جاء رسول يستفسر إذا ما كانت دفعة من الساعات كان قد أحضرها لإصلاحها جاهزة للتسليم أو لا. حتى هذه اللحظة لم يكن عندي أدنى فكرة أن

(١) لمزيد من المعلومات عن النباتات والحيوانات في بلاد القصيم، انظر: الشريف، منطقة عنيزة، ص ١١٣، ١١٤، السلمان مدينة عنيزة، ص ٣٤، الربدي، ج١، ص ١١٢-١١٥ (ابن جريس).

(٢) الأحوال الصحية في الجزيرة العربية كانت سيئة خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) وبخاصة في مناطق البوادي والأرياف. للمزيد انظر محمد مفتي، ص ١-٨٦، بدر الربيعة، ص ١-٢٩ (ابن جريس).

الساعات شائعة الاستخدام بهذا الشكل في الجزيرة العربية، ولكنه أكد لي أنه من الناحية العملية فإن كل ما لديه من مجموعات يخص الزبائن، وهو دائماً يحتفظ بأعدادها على الرغم من أنه دائماً يعيد إرسال الساعات بعد إصلاحها إلى أصحابها. لم تكن بريدة خالية تماماً من مصلحي الساعات، لكن علياً كان بوضوح فذاً في فئته. إنه يملك موهبة غريبة في تلك الأمور التي ـ تحت التدريب المهني وفي مجال أوسع ـ قد تكسبه شهرة عظيمة. ومع ذلك فهو يبدو سعيداً تماماً وهو محاطاً بأطنان الساعات الرخيصة أو العتيقة التي نادراً ما تستحق عناء إصلاحها، واعترف لي أن متعته الخاصة تكمن في فحص ودراسة أسرار أي اختراع ميكانيكي يصادف طريقه. فقد كان يحدق فيها بعينه المجردة، وفور أن يشعر أنه قد استوعب مبادئ أي قطعة آلية، فسوف يبدأ في اختبار معرفته النظرية بتفكيكها وإعادة تجميعها. بهذا الشكل زاد بتعب وعناء من مخزونه من المعرفة والخبرة، وهذا نوع لا يُرى إلا نادراً في نجد[1]، العالم الدنيوي. وكان عقله يأبى التعصب الضيق في المذهب الوهابي، الذي يعمل فيه أبوه مثل واعظ غير معين في وظيفة دينية. لقد كان يدخن علانية في عرينه الصغير، وقام بلف السجائر لنا عندما كان يتحدث بحماسة عن علمه الذي أحبه. وفي مظهره كان عجيباً تماماً. فدون شعر في وجهه، كان يبدو أنه في الثانية والعشرين أو ربما الخامسة والعشرين من العمر؛ لأن محياه يحتفظ بنضارة الشباب، وقد زعم أنه ليس أقل من ثمانية وثلاثين عاماً[2]، وأن رفاق اللعب في صباه كان بالفعل، كما قال، لهم لحى رمادية.

---

(١) فيما يظهر أنه كان في بعض مدن نجد ومن المؤكد مدن الحجاز وغيرها من جزيرة العرب بعض الفنيين والخبراء في التعامل مع الآلات والأدوات الدقيقة كالساعات وربما الكاميرات وغيرها. كما كان هناك بعض الصناع الذين يتعاملون مع إصلاح السلاح والحديد بأنواعه وبعض المعادن الأخرى كالذهب والفضة وغيرها. (ابن جريس).

(٢) هذا الرجل (علي بن حمد المرخم)، الذي يتحدث عنه فيلبي، وعن عمله مع بعض الآلات الدقيقة كالساعات وغيرها، قد اكتسب بعض خبراته من الأسفار العديدة إلى الحجاز والطرق، كما أن أسفاره أيضاً ربما أثرت على هيئته وشكله الخارجي كشرب الدخان وما شابه ذلك. (ابن جريس).

عاد إلينا الآن الدكتور عبدالله بفكرة أننا قد قبلنا دعوة لتناول القهوة مع إبراهيم بن حمد السليم، الذي كما اتضح بعده، لم يكن يتوقعنا، على الرغم من أنه أصر على بقائنا معه لشرب القهوة التي أعدها لنفسه. وكان يدخن السجائر دون أن يعرض علينا أي واحدة. وبالإضافة إلى داوتي عدّد لنا تشارلز هوبر وأعتقد، أيضاً أويتنج من بين معارفه الأوروبين منذ عهود طويلة مضت. على أن الحديث أصبح فاتراً؛ لأن مضيفنا كان فيما يبدو لديه انشغال آخر في ذهنه ولم يشأ أن يقول ذلك، بينما كان عبدالله يشعر بالضيق من خطائه. وقد أدى ظهور عبدالله بن رشيد، تابع الأمير، إلى نشوء التحول اللازم؛ ولأنه لا يزال هناك بعض الوقت قبل الظلام، فقد انطلقت بمفردي معه عبر الحقول وبساتين النخيل حتى قرية الجناح القديمة[1]، وهي في هذه الأيام ليست أكثر من قرية حديثة نسبياً على أنقاض موقع قديم. كانت أجزاء من السور القديم ترى هنا وهناك على أن القسم الوحيد الطويل نسبياً هو ذلك الذي كان ذات يوم يحمي القرية من عنيزة المهيمنة الآن. وتحجب الآن عدة مئات من اليادرات من هذا السور أحد جوانب بستان نخيل واسع، الذي كانت تجري خلاله قناة مائية مرتفعة من الطين قادمة من بئر مجاورة. وكان جزءاً من سور المسجد القديم، الذي يطوق الآن بصورة جزئية رقعة زراعة وموقع المجلس للشيوخ السابقين في الجناح قد بينه لي عبد الله، ثم في الغسق البهيج عدنا من خلال أحياء القاع والهفوف إلى بيت عبد العزيز، الذي وجدناه ينتظرنا على العشاء الذي قُدّم لنا فوراً في رواق معمد بالطابق العلوي، وانصرفنا بعد دورة من القهوة في الفناء الأرضي المفتوح للقيام بزيارة قصيرة للأمير عبدالله.

(١) قرية الجناح: تقع في شمال مدينة عنيزة، وقد نزلها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بطن من بني خالد، حيث أقاموا مساكنهم في أحد أجنحة وادي الرمة على الضفة الغربية للوادي فسمي المكان مع ساكنيه بـ (الجناح). انظر: تقرير دكسيادس عن عنيزة رقم (٥) وكالة وزارة الداخلية لشؤون البلديات (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ص ٩٣، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٩. (ابن جريس).

والقادمون الجدد من المدينة، الذين كانوا مسافرين بطريق الرس، جلبوا معهم مزيداً من الأخبار عن غارة ابن رشيد على قبيلة حرب. والمتضررون هم بعض أفخاذ صغيرة من المدارين وليس أهل ابن نامي كما قيل من قبل، وأن معركة قد وقعت عند الهميلية والتي بعدها انسحب ابن رشيد بغنائم من ثلاثين جملاً نحو السميراء[١]؛ لأن معسكره الرئيس في فيد وقد خسر ثمانية رجال وعشرين من الخيل التي قتلت من أصل القوة الإجمالية وقدرها ست مئة، وتشمل حوالي خمسين فارساً. وكنا نأمل أن يحاول ابن سعود بقوته المتفوقة بشدة قطع انسحابه هذا، وقد أشيع أنه أثناء مجلس حرب قدم الدويش هذه النصيحة على عكس الرأي العام للإخوان، الذين كان رأيهم أن ينقضوا على معسكرات شمر في بقعاء شمال شرق حائل.

في بيت الأمير السابق قابلنا أيضاً روابط أخرى بأيام داوتي وزامل، هما رجلان من ذوي المكانة الوضيعة ولكنهما يؤتمن عليهما بشدة في خدمة الأمير. هذان هما شعيثان أخو ـ أو على الأرجح ـ ابن عم الزنجي، علي الشعيثان الذي على بيته دق داوتي أول مرة والذي رافقه بعد ذلك بانتظام في أسفاره بموجب أوامر من زامل[٢]، وعلي، حفيد علي المذكور من قبل. وقالا وهما يصحباني عبر الشوارع في ذلك المساء إلى بيت حفيد زامل، عبد الرحمن بن عبد العزيز، «يا له من فرق عظيم، منذ تلك الأيام. فلقد رافق علي العجوز خليل مثلما نذهب معك الآن، ولكن ليس هناك أطفال اليوم وقحون حتى نضربهم ليبتعدوا»[٣]. ولقد لاحظت في الحقيقة مراراً أن الأطفال هنا لا يشكلون مصدراً للإزعاج أو الشكوى. فإذا رأوني قد يصطفون في صف عند مروري ويحيوني بشكل حاد بالطريقة التركية حيث يضعون أيديهم على

(١) قرية السميراء تعد اليوم من أكبر قرى منطقة حائل وهي تبعد عن مدينة حائل الرئيسة جنوباً بحوالي (١٣٠كم). انظر: فهد العلي العريفي، حائل، ص ٤٤-٤٥. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على معلومات أكثر عن رحلة داوتي إلى بلاد القصيم، انظر: روبن بدول، ص ٧٧-٩٠. (ابن جريس).

(٣) قابل داوتي متاعب كثيرة في رحلاته في الجزيرة العربية خلاف فيلبي الذي وجد الرعاية والحماية والتشجيع من الملك عبدالعزيز، فكانت ثمار هذه الرعاية، أن ترك لنا كماً هائلاً من تاريخ وتراث وحضارة الجزيرة العربية (ابن جريس).

وسط جبينهم وتنتهي بابتسامة متبادلة. والبنات الصغيرات بخصلات شعرهن الطويلة المضفرة وملابسهن الزاهية، التي عادة ما تكون فساتين فضفاضة من قماش الموصلين (Muslin)وسراويل واسعة. لقد كن جميلات بصورة فاتنة عندما يلعبن في الشوارع والأماكن العامة مثل فراشات صغيرات حكم عليهن القدر بمدة قصيرة من السعادة؛ ذلك لأنهن لخمس أو ست سنوات فقط كن يتمتعن بحرية غير مقيدة، يجرين بجموح وتهور، قبل أن يجبرن بقانون صارم على الاختفاء من العالم خلف الأبواب أو خلف خمار من اللون الأسود الكئيب[1]. وعندما يبلغن الثانية عشرة يصبحن في سن الزواج، والكثيرات منهن يصبحن محجوزات من قبل أزواجهن الراغبين أو آباء أزواجهن الراغبين منذ الأيام التي سبقت انسحابهن من الشوارع. وفي الغالب يتزوجن عند سن الرابعة عشرة، ولكن يحدث أحياناً أنه إذا كانت الفتاة غير كاملة النمو عند زواجها فإن زوجها يتركها عاماً أو عامين قبل أن يقربها. ونادراً ما يلدن أطفالاً قبل السابعة عشرة. وهكذا فإن حظ النساء قاس في الجزيرة العربية بفرض الزواج عليهن بهذا الشكل قبل الأوان[2]، وهنا تكون الفساتين الفضفاضة الخضراء أو السوداء هي الشائعة عند النساء، ونادراً ما يرى اللون الأحمر.

قضينا ساعة رائعة ذلك المساء في مجلس حفيد زامل، فعصير الليمون الطازج من الحديقة المجاورة قُدّم إلينا بالإضافة إلى القهوة، كما دارت السجائر علينا بلا قيد، وكنت أدخن الغليون كالعادة دائماً.

---

(١) الحجاب ليس كئيباً كما يقول فيلبي، وإنما هو جزء من دعوة الإسلام، فالواجب على المرأة البالغة أن تستر نفسها بالخمار، أو الحجاب عن عيون الأجانب، ماعدا زوجها وقرابتها، كالأبناء والأخوان ومن هو في حكمهم. ولا يستغرب من فيلبي هذا القول فهو وأمثاله من المستشرقين جاؤوا من مجتمعات تنادي بالحرية والاختلاط ومشاركة المرأة للرجل في جميع أمور الحياة، بصرف النظر عن خصوصيتها وما يترتب على ذلك من هدر لإنسانيتها وكرامتها. (ابن جريس).

(٢) لا أعتقد أن الزواج المبكر للرجل أو المرأة قاسٍ، لأننا نجد كتب الشريعة والتراث الإسلامي تورد لنا نماذج عديدة عن الذين تزوجوا في سن مبكرة جداً في عصر الرسول ﷺ والسلف الصالح، وكانوا في غاية السعادة والتوفيق. (ابن جريس).

هنا لا يوجد تعصب أعمى، ولقد تجاوزونا بالفعل أكثر من نصف ساعة بعد صلاة المغرب قبل أن ندرك أننا ربما نكون قد تخطينا حدود الترحيب بنا، على الرغم من أنه في احتدام الحديث لم يسمع أحد الآذان. فقال عبد الرحمن: «المسجد قريب، لا داعي للعجلة، فأي وقت سوف يكفي». كان الحديث عن الجراد وعواقبها الوخيمة. فاليرقة، تسمى دبة، تخرج من البيضة، كما يقولون، في خمسين يوماً . تحفر الخنادق الضحلة (زبيّة) لاصطيادها وهناك، وهي غير قادرة على الخروج زاحفة يتم هلاكها. أحياناً تكون هذه الطريقة فعالة تماماً، وفي أحيان أخرى يأتي الجراد من كل حدب وصوب، ربما من مناطق بعيدة. هذا الجراد يواجه بضرب الطبول التي تخيفه فيبتعد. وطبقاً لأحاديث الرسول ﷺ سيكون الجراد أول مخلوق يختفي عند اقتراب يوم القيامة. وقد وقع ذعر كبير إما في عهد أبي بكر أو عمر بسبب الغياب التام للجراد لعدد من السنين. ليس هناك رغبة كبيرة في فناء العالم بالجزيرة العربية هذه الأيام، وكم كانت راحة الناس كبيرة عندما قُدّمت عيّنة قبضت حديثاً من الجراد للسلطات الدينية وتيقنوا فعلاً أنها جراد. إن الجراد والسمك فقط من بين المخلوقات لا يحتاجان إلى شهادة رسمية لذبحهما ليكونا طعاماً حلالاً، والجراد الذي يُعثر عليه ميتاً يكون أيضاً طعاماً حلالاً[1].

إن عبدالرحمن يتمتع بذخيرة من المعارف البسيطة، ويسعى بصورة حقيقية للتنوير، واعتدال ملابسه الذي يستدعي إلى الأذهان بقوة وصف داوتي لزامل. ومع ذلك كما أعتقد فإن ذلك مثل حال الأمير القديم لعنيزة أيام عزها. وقلت له: «ينبغي أن تأتي معي، وترى في يوم ما بلدنا الإنجليزي، وسوف أريك باريس وأوروبا». واعترض على ذلك خشية أن يجد صعوبات هناك في مسألة الصلاة، ولكني أكدت له أن عندنا مساجد قليلة لعبادة المسلمين. فردّ قائلاً: «لا، فذات يوم عندما يسود

(١) الجراد كان من الآفات التي تهلك الحرث والمزروعات خلال العهود الماضية، وهناك طرق عديدة عند الناس للتخلص من الجراد إذا أغار على مزارعهم. (ابن جريس).

العالم السلام سوف أسافر إلى المدينة وأستقل من هناك القطار إلى دمشق[١]. وغير ذلك ليس عندي رغبة فيه». وبعد سنوات لاحقة تقاطعت دروبنا للحظة وجيزة في شوارع جدة. فسألني: «هل تعرفني، أنت يا فلبي؟» وأجبت: «نعم حقاً، أنت يا زامل، كيف سافرت وما جاء بك إلى هنا؟». لقد كنت في ذلك الحين مرتدياً ملابس أوروبية ودون لحية، وقد قيل له من أنا عند مروري أمامه. لم يكن قد تغير. وفي صحبته، ربما بسبب ذكري جدة، كنت دائماً أجد متعة عظيمة في عنيزة.

وآخر مناسبة اجتماعية لنا في المساء كانت زيارة إلى فهد البسام. كان بيته وعدة بيوت أخرى لعائلته تتاخم المجلس الكبير على شكل هلال رائع يضيف جمالاً وتميزاً على وجه السور العالي بنوافذه الصغيرة. في الميدان نفسه يوجد المسجد الرئيس وقصر زامل القديم ذو البرج المربع في أحد زواياه والذي يبدو قزماً بجوار المئذنة الطويلة المستدقة الطرف[٢]. يمتاز فهد بأخلاق ومظهر رجل الأعمال الناجح بشدة، مع تحضر مهذب من النوع التركي، وقليل من الرياء وكثير من التصنع الواضح أكثر من صالح الفضل. وهو قادر على أن يكون مسلياً بشدة وربما أقدر رجل في ذلك بعنيزة. ومع ذلك كان بسيطاً، فقد قدّم زجاجة من عصير الليمون المنعش ماركة روز (Rose) لكي أفحصها قبل إرسالها إلى الطابق العلوي لكي يتم خلطها لفائدتنا، وأصرّ على أن يشرب كل واحد منا كأسين، وهنا لا يوجد الرشف برقة للمشروبات المبردة مثلما في أوروبا. فلا بد أن تشربها جرعة واحدة، والخادم يقف أمامك ليأخذ الكأس الفارغ أو شبه الفارغ، ويعرض عليك فوطة لتجفف شفتيك

(١) كانت نظرة الناس يوم رحلة فيلبي في عنيزة عام (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) محدودة، فلا يوجد لهم أسفار بعيدة، وإنما حدود ذهاب وإياب أعيانهم تكون داخل الجزيرة العربية فقط، بعكس اليوم الذي أصبح العالم قرية صغيرة يسافر من أقصاه إلى أدناه في ساعات محدودة. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن المسجد الرئيس في عنيزة، وعن أحياء المدينة أثناء زيارة فيلبي لها، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٩-٢٠٨، الشريف، مدينة عنيزة، ص ٢٠٨، ٢١٢، حافظ وهبة، ص ٤٣، توتيشل، المملكة العربية السعودية وتطور مصادرها الطبيعية: ترجمة شكيب الأموي (القاهرة) ١٩٥٥م، ص ٨٣. (ابن جريس).

وأصابعك[١]. وكان اثنان من أولاده في الحفل، أحدهما شاب في حوالي السابعة عشرة وعينه اليسرى دامعة وضعيفة، والآخر، عبد الله، طفل في السادسة أو السابعة. وهناك أيضاً إبراهيم، فتى في الثالثة عشرة، ابن عبد الرحمن البسام، المتوفى في هذا الوقت[٢]، الذي ركب في قافلة داوتي للزبدة إلى الحجاز. وفهد، ببراعته التركية في الإطراء والتملق، كان طيباً بما يكفي للتنبؤ بوظيفة دبلوماسية رفيعة لي!! وقال: «أستطيع أن أحكم بذلك، من التوقير الشديد الذي يكنه ابن سعود لك».

وهكذا انتهى اليوم، يوم عادي من الضيافة الكريمة من أشخاص لم يتركوا عقيدتهم، التي يخلصون لها بدرجة كافية في كافة النقاط الجوهرية، أن تعمي رؤيتهم لعالم كان بعضهم قد نال منه لمحات وراء حدود أرضهم الصحراوية. ولهذا العالم يدينون بازدهارهم المادي الذي بكل صفاته سريعة الزوال يقدرونه كثيراً. وأكبر نقيصة في جلساتهم الاجتماعية كانت عدم وجود هواء. ففي الساحات المفتوحة هناك قليل مما يُشتكى منه، ولكن في المجالس المعطرة بروعة الأدخنة الرقيقة من نيران أشجار الغضا عندهم والبخور كانت الدورات الأبدية للشاي والقهوة تثير وشلاً رقيقاً من العرق الذي يدوم إلا في فترات متقطعة قليلة طوال اليوم بكامله، وهو قد يكون غير مطاق في مجتمع ينهمك بشدة في أعمال العالم. بيد أن عنيزة باريس نجد، مدينة الراحة والمتعة، حيث لا يُتصوّر العمل بشكل دقيق أكثر من مجرد النقاش البطيء للصفقات التجارية، التي قد يكون الاتفاق عليها غداً أو اليوم سيان، على أقداح من القهوة والشاي والسجائر[٣].

---

(١) هذا التعامل الاجتماعي في طريقة الأكل والشرب التي يشرحها فيلبي في بيوت وجهاء وأعيان عنيزة تدل على التمدن والتحضر الذي وصلوا إليه. وربما حصلوا على بعض تلك الصفات من الأسفار في بعض النواحي داخل الجزيرة العربية وخارجها، ثم وجود عنيزة على الطريق التجاري الرئيس الذي يصل ما بين الحجاز والطرق. (ابن جريس).

(٢) أسرة آل البسام في عنيزة تعد من الأسر الكبيرة والقديمة، وظهر منها علماء وقضاه في عهود مختلفة. (ابن جريس).

(٣) كسبت عنيزة هذا الإطراء الذي يورده فيلبي ربما بسبب التنوير الثقافي والفكري الذي كان يتصف به بعض رجالها وأسرة مثل: آل الزامل، وآل البسام، وآل الذكير وغيرهم، والذين كانوا كثيراً ما يجالسون هذا الرحالة ويتحدثون إليه. (ابن جريس).

واليوم التالي (الخامس عشر من سبتمبر) بصورة عامة تكرار لسابقه، ولكن الحياة الاجتماعية بعنيزة لا تكون أبداً كئيبة أو مملة، هنا لا يوجد الصمت الرهيب لجلسات القهوة المعتادة في نجد؛ فالحديث هو الفن المفضل لقوم متبطلين خالين من العمل يهتمون اهتماماً شديداً بالعالم من حولهم. وبحسابنا كان هذا هو اليوم التاسع من ذي الحجة، شهر الحج الأكبر في مكة، الذي سوف يُتوّج بعيد الأضحى ويجري الاحتفال به ليس فقط في عرفات ومنى ولكن في العالم الإسلامي كله.

وكانت هبة حارة من رياح السموم من الجنوب، بالحساب الزراعي بداية موسم الصفري قد جعلت ساعات الظهر متقدة ومضجرة؛ لأن المباني العالية في المدينة تحجز الريح بعيداً عن الحدائق والساحات، ولكنها امتصت تماماً حرارة الشمس. على أن السوق في هذه الأيام استعداداً للعيد أصبح يعج بالنشاط والحركة، والحشود المشغولة تندفع في المحلات والدكاكين، حيث التمور، والخضراوات، والبطيخ تُعرض بوفرة مع القهوة، وقشر الرمان والملح، وكلاهما من النوعين الأبيض والقرنفلي، وأشياء أخرى تغري ربة البيت. وقد بيعت بندقيتان من مزايدين جائلين. إحداهما وصل سعرها أربعين دولاراً وهي من طراز ماوسر الألماني (German Mauser) نموذج عام (١٩١٦م)، والأخرى ثمانية وثلاثين، وكانت بندقية جديدة إنجليزية قصيرة، ارتفعت بعد ست ساعات من المزايدة المتقطعة إلى ستة وأربعين. وقد مررنا والأخوان سليمان وعبدالعزيز الذكير جالسان على إفريز محل يتحدثان، وبالقرب منهما مجموعة من الأغنام السوداء تجذب اهتمام حشد كبير من الناس. سعر الخروف في تلك الساعة يتراوح من ستة إلى سبعة دولارات، وكلها ذوات صوف أسود إلى أبعد ما رأيت. وكان العمل التجاري النشط يجري على قدم وساق، كل زبون يختار ما يروق له بأيدي خبيرة، وهو يفرك الأجزاء الرقيقة من كل حيوان قبل أن يقرر[1].

(١) كون عنيزة إحدى المحطات التجارية الرئيسة التي تقع على درب طرق الحجاز، والمعروف بـ (درب زبيدة). وكذلك توفر المحاصيل الزراعية المختلفة بها. كل هذا جعل منها سوقاً تجارياً نشطاً يرتاده التجار من داخل بلاد القصيم وخارجها. للمزيد، انظر: أبو علية، الدولة السعودية الثانية، ص ٢٧٣، العثيمين، نشأة إمارة آل رشيد، ص ٩٠، سيد بكر، الملامح الجغرافية، ص ١٨. (ابن جريس).

وبحلول المساء كان السعر قد زاد إلى عشرة دولارات، وهكذا فأولئك الذين اشتروا باكراً قد ابتهجوا. يرتدي الرجال من الطبقة الميسورة العقال من النوع السائد في بلاد الرافدين، حزم ثقيلة من وبر الإبل المفكك الموصول على مسافات فاصلة بحزم من الخيوط الفضية[1]. والبعض يرتدي عقالاً من اللون الأسود غير المزخرف والفترة إما بيضاء أو حمراء مثلما الحال عند البدو. وعباءاتهم بنية اللون أو سوداء من القماش الصيفي الخفيف، الشفاف ولكنه يُعمّر طويلاً. ولما توجهنا تلقاء العودة لبيوتنا مررنا على مجموعة من البنات الصغيرات يمرحن بثياب العيد. وكانت خدودهن مطلية بمسحوق التجميل الأحمر الخفيف، ووقفن يحدقن فينا حتى نعجب بهن، واندفعن في ضحكة مرحة من نجاحهن مع الإنجليزي. كانت ثيابهن من الحرير الشفاف الناعم ذي الألوان المتنوعة، ومعظمهن كن يرتدين العقال المطرز بخيوط الذهب والمزخرف على نحو أنيق بحبات الفيروز فوق شعرهن المضفر والمكسو بالشحم. لقد ظهرن رائعات فاتنات حقاً.

كان الأمير عبدالله مسؤولاً عن استضافتنا هذا اليوم، وذهبنا لتناول الفطور بعد زيارة ابتدائية إلى عبدالله بن حمد السليم أخي إبراهيم الذي ذكره داوتي، وهو وأخوه كانا في القافلة التي انضم إليها هوبر. وهو يميل إلى الطول، يتمتع بصحة طيبة في حوالي الخامسة والستين، ويبدو أصغر بكثير من سنه بسب الصبغة السوداء على لحيته الصغيرة، المشذبة. ولقد سافر حتى وصل إلى بونا منذ عشرة أيام مضت في رحلة استمتاع، وبالطبع يعرف بغداد ودمشق، وحتى القاهرة. وفي فنائه توجد مُهر، قيل: إنها من الريف العراقي اشتراها حديثاً من البدو.

والأمير الآن في ريعان شبابه، وقد قضى بعض السنوات في المنفى من (١٨٩١م) حتى (١٩٠٤م)، وخلال تلك المدة اشتغل في المشاريع التجارية التي تقاذفته

(١) وربما سمي هذا النوع من العقال باسم (المقصب). (ابن جريس).

بعيداً حتى الهند. وعلى الرغم من ذلك، ليس لديه أي طموح إضافي للتجوال. فلقد رأى ما يكفي من العالم، والآن أصبحت الراحة التي ناضل من أجلها فوق كل شيء، وكان يعد العمل شيئاً مؤلماً على الرغم من أنه انقطاع حتمي عن الغاية، وقال: «اليوم على سبيل المثال، ليس عندي عمل أؤديه، وعندما ننتهي من تناول الفطور سوف أخلد للراحة في مضجعي كما تعودت». فقلت له: إنه في أوروبا إذا أخذ أي شخص بمبادئه فسوف يموت حالاً من الجوع. لقد كان مهتماً بالموقف النقدي. وهو يعتقد أن أكبر صعوبة في سبيل إدخال عملة فضية مستقرة في البلد لتحل محل الدولار والعملة الفضية التركية الصغيرة ستكون تجميع هذا الكم الهائل من تلك العملات بخسارة على ما يبدو، ولذلك لابد أن يبقى الدولار أساساً للعملة العربية.

إن ثلثي صفقات الذهب في القصيم كانت بالجنيه الإنجليزي والباقي بالليرة التركية. وذهب نابليون، الذي يسمى بنتو (Binto) نادراً ما يُرى، والذهب الألماني غير موجود تماماً، كما أن العملات الذهبية الروسية تستعمل على نطاق ضيق فقط. كذلك يتعجب من تسمية دولار ماريا تريزا ذي المنشأ النمساوي باسم فرنساوي (أي فرنسي)[1]، بيد أنه لم يلاحظ أنه ـ على الرغم من أن هذه العملات كانت مصنعة حديثاً حسب احتياجات السوق ـ إلا أنها كانت دائماً تحمل التاريخ نفسه (١٧٨٠م). وبالنسبة لتقدم سير الحرب، فقد توقفوا منذ زمن طويل عن وضع ثقتهم في الأوراق.

فدليل عيونهم كان جيداً بما فيه الكفاية. ولا يمكن أن يسوء شيء كثيراً ما دام العراق في أيد بريطانية أمينة. ولقد ذكرت له أنه بوجود معظم بلجيكا وجزء كبير من فرنسا في أيد ألمانية فإن حجته ليست سليمة تماماً على الرغم من أن استنتاجه كان في الحقيقة صحيحاً.

---

(١) لم يكن أهل القصيم هم فقط الذين يطلقون اسم (الريال الفرنساوي أو الفرنسي، أو الفرانسة) على ريال ماريا تريزا النمساوي، وإنما كان هذا المصطلح يطلق على هذا الريال في عموم الجزيرة العربية. (ابن جريس).

ومن المعتاد في عنيزة أن تبدأ كل وجبة بزوج من التمر اعترافاً بنعمة الله، وبعد ذلك ليس هناك ترتيب محدد للهجوم على المحتويات المختلفة في الصينية. وعلى الرغم من ذلك، كان حمد بن هذال مخطئاً بالخروج على العُرف الاجتماعي؛ لأنه سكب الزبادي على نصيبه من الأرز وخلطهما معاً. وطبقاً «للتقاليد» يُعد هذا انتهاكاً مقيتاً لآداب المائدة في مجتمع (بدوي) فاضل على الرغم من أن ذلك يمارس بصورة طبيعية في قبائل معدن البدائية في العراق، وحتى من قبل الزيجرت[1] خدم البيوت الأجلاف، وأصلهم من بني خضير أساساً في نجد.

وواصلنا سيرنا لزيارة أحمد بن سويعر، الذي عاد مؤخراً من مكة، في مجلسه القذر، المليء بسخام الدخان، ومساحته (١٢×١٠) أقدام وسقفه قصير. وهناك دخل علينا رجل مسن في السبعين من عمره، يتصل بالمصاهرة (رحيم) مع مضيفنا، طالباً من الدكتور عبدالله بعض الدواء لبصره الذي أصبح ضعيفاً، وهذه إعاقة مؤلمة في عمله خلال السنتين الماضيتين. وهو يدعى إبراهيم بن صالح، المهندس المعماري الرائد والبناء في المدينة. فقد بدأ حياته صبياً متدرباً مع بناء دون أي تعليم إضافي بخلاف ما جمعته عيناه، ونال الشهرة بسرعة وشيّد المئذنة الطويلة في المسجد الجامع منذ ثمانية وعشرين عاماً مضت[2]. وهي بطول خمسين ذراعاً، كما قال، أو تقريباً ثمانين قدماً في الارتفاع. كما أنه بنى أيضاً المقر الحالي لإقامة الأمير، وبيت محمد السليمان الذي كنا نسكن فيه، وفي الحقيقة جميع أفضل البيوت في عنيزة. وقد أكد بفخر أن لا شيء من تحفه التي بناها قد انهار على الإطلاق، ومع ذلك فإنها كلها قد بُنيت دون أي نوع من التصميم أو التخطيط، ودون الخيط أو الميزان،

(١) هذه الكلمة اشتقها الأتراك من الكلمة الفرنسية التي تعني «الأمن أو الحراسة (Securite) التي أصبحت على أفواه العرب تتطلق عادة «ساكيورتا». (فيلبي).

(٢) في الماضي لا تخلو منطقة في الجزيرة العربية من وجود بنائين مهرة يقومون بتشييد الحصون والقصور والمساجد وما شابهها، وقد كسبوا تلك المهنة وتمرّسوا فيها من خلال طول الممارسة والتجارب. (ابن جريس).

وفي الحقيقة دون أي شيء يوجهه أو يرشده إلا عينه وخبرته. وقال لي: «انظر إلى رافع سنجر التي شيدتها مستديرة وقارنها بتلك المربعة عند ابن السلوم فقد بقيت لأنني بنيتها أفضل وسوف تصمد بعد ذلك لأزمان كثيرة". ومقابل تشييد المئذنة الكبيرة، التي تلقى إمداد الطين والملاط لها في الموقع، فقد حصل على مبلغ أربعين دولاراً. وكان مستعداً للتعهد ببناء واحدة أخرى أطول منها مرتين، ولكنه بالطبع سوف يبنيها على قاعدة أوسع. وسألته كيف ظهرت وتطورت الواجهات المنحنية[١] في بيوت عنيزة، على الرغم من أنها ليست واضحة في أي مكان آخر بالجزيرة العربية[٢]. وقد زعم أنها من اختراعه الخاص، وأنها أسهل في البناء وتدوم طويلاً. وبعد ذلك لاحظت مئذنة عالية في منطقة القاع. وسألته: «من بنى هذه؟» فكانت إجابته المقتضبة الجافة «إنها تميل نحو الجنوب». وفي الآونة الأخيرة اتجه إلى تبطين الآبار بدون خبرة سابقة في هذا العمل، ولكنه صار الآن مرجعاً معترفاً به، على الرغم من أن عينيه الضعيفتين تتعارضان بصورة خطيرة مع المهمة التي تحتاج إلى دقة غير عادية.

وقضينا فترة العصر جزئياً في بيت علي الخنيني والجزء الآخر في بيت يحيى الذكير، وكان الأمير السابق حاضراً في كلتا المناسبتين. وعندما قدم لي علي السجائر تحولت إلى عبد العزيز لأسأله إن كان يعترض على قيامي بالتدخين. فردّ قائلاً: «لا على الإطلاق فأنا نفسي اعتدت أن أدخن». وهو قد عانى من قبل بصورة دائمة من نوع من الصداع الذي شرح أعراضه لنا بإسهاب مستفيض. وفي الهند

(١) الكلمة هي مبرم ومن الواضح أنها تطلق دون تمييز على المنحنيات المحدبة المقصرة، والأخيرة تسمى أيضاً مكعب. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن الناحية العمرانية قديماً في عنيزة وغيرها من مدن القصيم الرئيسة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٧-٢١٨، الهويمل، بريدة، ص ١٧٢، محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ١٨٤ وما بعدها. (ابن جريس).

عثر على علاج ناجع في دواء شراب مخلوط يشمل عصارة صفراء الضبع[١]، ولكن هنا في نجد، ربما بسبب بعض الأحوال الجوية، فإن هذا الدواء نفسه لا فائدة منه، وهي التي سوف يحل عليها عن قريب بلاء الإنفلونزا الفظيع الذي قيل أنه قد أصاب خمسة وعشرين ألفاً من السكان المستقرين في المدن، وعدداً لا يحصى من البدو. كان المرض نادراً باستثناء الجدري، الذي حتى ذلك الوقت كان يتفشى في المدينة على الرغم من أنه أقل انتشاراً من السنة الماضية عندما كانت تشهد صلاة العصر يومياً جنازة أربعة أو خمسة أطفال ماتوا قبل أوانهم[١]. وقد أصبح مهتماً بالحديث عن التطعيم، وتعهدت بأن أرسل طلباً لتوريد دواء الليمف (Lymph) ليستخدمه عبد الله في العلاج. وكانت أحد الاعتراضات على التطعيم هي أن التوريدات الجديدة ليست متوفرة دائماً، وأن الكارثة تنشأ كثيراً من استخدام الدواء القديم بواسطة الانتهازيين الذين يكسبون قوتهم من استغلال حاجة الناس. كان يحيى ومقبل مرة أخرى في حالة جسدية طيبة. فقد أنعم على الأول ببطن هائلة بارزة، وهو دائماً يبدو في كرب عظيم عندما يضطجع على مخدته تحت كتلة ضخمة من الشحم. ذلك وحالة الصمم ربما قد نغّصا عليه حياته ولكن مزاجه بدا رائعاً، واشترك مع عبد الله في دعابة لطيفة عندما سخر منه قائلاً: «لا أستطع أن أفعل شيئاً لأذنيك، ولكن إذا ما كانت المقويات (أي المثيرة للشهوة الجنسية) هو ما تريده فتعال إليّ». فقال الشيخ الكبير «الحمد الله، لم يحن الوقت بعد لذلك».

تناولنا العشاء عند الرابعة والنصف عصراً بناءً على طلب خاص من الأمير، وأكلنا حتى التخمة على الرغم من الساعة المبكرة والحر، بيد أننا كنا سعداء عندما زحفنا ببطء إلى الانعزال في مسكننا، وخلدنا للراحة في برودة الجو على

(١) مرير الضبع. (فيلبي).

(٢) الجدري والطاعون والسل وغيرها من الأمراض التي كانت تفتك بالناس وتقضي على أعداد كثيرة منهم خلال القرون الماضية، وفي معظم أجزاء الجزيرة العربية. (ابن جريس).

السطح آملين عدم إزعاجنا في المساء. وناداني الدكتور عبد الله قائلاً: «تعال وانظر» وعندما تتبعت عينيه إلى الخارج على السطح المجاور، يا للعجب من المنظر!! ثلاثة نساء شابات بجمال عظيم. لقد كن في الحقيقة مجرد فتيات، عذروات متأهبات لسوق الزواج ويسعى في طلبهن، كما قيل، كثير من الخاطبين، الذين من بينهم ابن سويدان، الذي يشتهر بأنه خانع للنساء مثلما كان متعصباً في الظاهر. وأحياناً يبدو لي أن تعصبه لم يكن عميقاً؛ لأنه كان يُظن أنه يتودد سراً للنساء طلباً للعشرة المحرمة. أما عبد الله فقد جذب اهتمامهن بالفعل ولكنهن كن يمرحن بأنفسهن بلا خجل أمام عيوننا ولم يهربن عندما أحضر عبد الله المنظار ليقرّب الصورة. لقد كن جميلات بشدة جمالاً يبرر التفاخر الذي يسمعه المرء أحياناً بجمال نساء القصيم. وفي الحقيقة ليس على المرء إلا أن ينظر إلى الأطفال ليكون مقتنعاً بصحة تفاخرهم، إذا كانت النساء فقط يحتفظن عند كبرهن ببشائر جمالهن الذي يظهر في الطفولة. وما يثير الشفقة أكثر أنهن يُحجبن بعيداً في عزلة لا معنى لها من أجل متعة وبهجة الأفراد، دونما تعليم أو تدريب لخدمة المجتمع. كانت البنت الكبرى ترتدي فستان العروس بلون زاه مع كثير من الحلى الذهبية التي تومض في شمس الغروب، بينما أخواتها، المنشغلات بتزيينها ولبسها والإعجاب بها، كن في فساتين عادية فضفاضة حمراء، وتلك هي أول مرة أرى هذا اللون في عنيزة. وعند الغسق اختفين عن تحديقنا وتركننا نتساءل إذا ما كنا قد شهدنا الأعمال التمهيدية لليلة عرس أو مجرد قياس لثياب الاحتفال بالعيد القريب.

والتفسير الأخير نال بعض التأييد من الأحداث التي وقعت في المساء التالي. فعندما عدنا عند غروب الشمس من نزهة سيراً على الأقدام في الواحة وجدت عبد الله بالفعل على السطح يجدد متع المساء السابق، وقال لي: إن البنات الثلاثة كن يمتعنه بعرض راقص. في تلك المرة رأيتهن في لمحة قصيرة قبل أن يلفهن

الظلام، وكن كلهن في فساتين العيد[١]، من قماش الساتان الناعم بلون الذهب القديم. ولقد كان أشد روعة وجمالاً مما سبق على الإطلاق. هذا الظهور الثاني بالروعة المضاعفة الذي يستحق التوبيخ والزجر بشدة طبقاً للمعايير المحلية في الذوق واللياقة، لم يكن عرضياً بكل تأكيد. فالزواج غايتهن في الحياة وربما كان اقتراب العيد عذراً كافياً لهفوة صغيرة مفعمة بالاحتمالات الآنية. إن أمهم أو خالتهم؛ لأنهن كن يتيمات من بنات واحد صالحي متوفى، ربما تكون قد تسترت عليهن أو شجعتهن على عرض جمالهن. ومما لا شك فيه أن آخرين غير عبدالله قد متعوا أعينهم الجائعة بجمال أجسادهن. وفي المساء التالي، ليلة العيد نفسه، انخفض الثلاثة إلى واحدة وحُلّ اللغز. فقد ذهبت الكبيرتان إلى أزواجهن فوراً بعد رؤيتنا لهن آخر مرة، والصغيرة وحدها، مكسوة ببهاء العروس، وقفت على السطح تلك الليلة منتظرة النداء لمضجع عرسها. وكان القميص التحتاني الشفاف يتدلى بروعة فوق الصدرية الضيقة والسروال الواسع. وعباءة خفيفة سوداء أكملت ملبسها، وكان وجهها وخصلات شعرها المضفرة دون غطاء. لقد تزوجت البنات الثلاثة من ثلاثة إخوة من عائلة القبلان ولم نعد نراهن ثانية[٢].

طلع صباح السادس عشر من سبتمبر وكل الناس شديدو الانشغال بتحضيرات العيد في الغد لكي يستضيفوا ضيوف القهوة في الأيام العادية. وتبعاً لذلك قضيت وعبدالله يوماً هادئاً كعضوين من أهل بيت محمد، فبدأنا يومنا بالفطور المقتصد من

(١) الأعياد في الجزيرة العربية قديماً كانت أفضل حالاً مما نعيشه اليوم، حيث كان الناس يستعدون لمجيء العيد باللباس الجميل، وتنظيف المنازل وتزويقها، بل كانت تسودهم المحبة والألفة والتقارب فيما بينهم أما اليوم فأصبح الناس أيام العيد أقل فرحة واستعداداً عما كان يحدث في الماضي، والسبب سعة الخير الذي عم الناس، فأصبحوا طوال أيام السنة منشغلين بأعمالهم المتنوعة، بالإضافة إلى وفرة المال في أيديهم، مما أثر ذلك في طباعهم وسلوكياتهم. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن عادات الزواج والأعياد في عنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٦٥-١٧٠. (ابن جريس).

الأرز المطبوخ مع الزبيب والبصل المبهر، وشرائح البطيخ والشمام والتمر. إن نوعية البطيخ والشمام تبدو بصورة عامة رديئة هنا ولا طعم لها تماماً، ولكن في الآونة الأخيرة ظهر بعض الميل إلى استيراد بذور من الزبير. وتحول النقاش إلى وادي الرمة، الذي كان مستجمع أمطاره كما قال محمد في مكان ما بين المدينة وينبع. وهو الذي لم يسمع أبداً عن وادي الحمض على الرغم من أنه قد ذهب إلى المدينة[1]. ولم يقبل أي فكرة من آرائي بأنه ينشأ في الحرة شمال شرق المدينة، وترك الأمر ليبت فيه ذات يوم خبير حربي الذي تعهد بأن يقدمه لي ليقنعني. وكان كل واحد منا يراهن بعباءته على هذا الموضوع. وعلى مدى حوالي خمسة عشر عاماً قبل هذا الوقت كان الوادي يتعرض لفيضانات منتظمة، التي كانت تهطل أحياناً لما يصل إلى خمس أو ست مرات في العام، وأحياناً تُحوّل منخفض الزغيبية إلى بحيرة عظيمة يبقى الماء فيها أحياناً طول العام حتى الفيضانات القادمة، ومع ذلك ففي الأزمان القريبة نقصت الفيضانات بشكل أو بآخر في كميتها وانتظامها، ولكن في العام الماضي كانت هناك فيضانات طيبة حيث امتلأ منخفض الزغيبية عن آخره. وفي هذه السنة لم يأت فيضان على الإطلاق.

ثم انتقلنا إلى مناقشة في علوم الأرض «الجيولوجيا» واتخذ مضيفي موقفاً خلف ستار من الدليل القرآني لا يمكن الهجوم عليه، ومن المستحيل النيل منه. فبالنسبة له فإن عمر العالم يبلغ خمسة آلاف سنة في الخارج، وأن حيوانات نوح كانت الأسلاف لجميع المخلوقات الحية الآن على الأرض. وتصادف أن كان بجواري الكتاب السنوي للموسوعة البريطانية، الذي قدمته له محتجاً بأنه من بين جميع بلدان العالم كانت جنوب إفريقية قد بقيت طويلاً فوق البحر. فقال: «هراء، إنها عندنا في كلام الله نفسه أن جودي كانت أول أرض تظهر فوق مياه الفيضان العالمي». وبهذا الاسم أيضاً

(١) للمزيد عن وادي الرقة وفروعه، انظر: الشريف، جغرافية المملكة، ج١، ص ٨٧-٨٨.

يعرفونا آرارات. ولكن حتى في أثناء حديثنا وقع شيء جعل ثقته تهتز في الطرق العلمية التي عليها يعتمد بصورة ضمنية شديدة. فقد صاح أحد الخدم وهو يندفع في الغرفة: «سنقيم العيد اليوم فقد أعلنه الشيخ واليوم سوف نضحي، والصلاة ستقام غداً صباحاً». وتحولت بنشوة الانتصار إلى مستمعي قائلاً: «ألم أقل لكم أمس من كتبي أن اليوم سيكون العيد، أنا، مجرد كافر، وأنتم المسلمين لن تصدقوني بينما شيوخكم الآن يصدقون مجرد قول واحد من البدو البسطاء حاد النظر أكثر من معظمكم أو ربما نظر من بقعة ما كانت فيها السماء غير معتمة بالسحب. لابد أن يكون عندكم شاهد بشري على أشياء تتجاوز قدرة الإنسان». فقال محمد الذي كان أصم قليلاً وبطيء الفهم أيضاً: «والله، لقد قلت لنا في الحقيقة». في هذه المرة، طبعاً، لم يتحول النزاع إلى رؤية القمر في الليلة السابقة؛ لأن عيد الأضحى يكون في العاشر من الشهر القمري، ووصلت الأخبار متأخرة وأن الهلال الجديد قد شوهد في اليوم السابق على رؤيته في عنيزة وما حولها، واحتج بأن هذه الأخبار لابد أنها جاءت من مسافة بعيدة، ربما من الساحل أو من البصرة[1].

في عصر ذلك اليوم وبعد الانتهاء من الأضاحي وتوزيع كثير من اللحم على الفقراء، زرنا محمد بن أحمد الذكير، الذي كان أبوه، المتوفى منذ زمن طويل، الأخ الأصغر لمقبل ويحيى. وأخته، المقيمة معه، ما تزال مدرجة على القائمة السارية لحريم ابن سعود وأنجبت حديثاً منه بنتاً، سميت جوهرة مجاملة للملكة الرئيسة. في مجلسه الواسع المؤثث تأثيثاً حسناً لاحظت وجود كرسي هزاز كبير من الحديد الذي اشتراه منذ بعض سنوات مضت في بومباي. ودار الحديث عن موضوع المجوهرات الذي أوحى به اسم بنت ابن سعود الرضيعة. فعلاوة على اللؤلؤ فإن معظم الأحجار

(١) يتضح للقارئ أن مناقشة فيلبي مع بعض رجالات عنيزة تدل على وجود فكر وثقافة حسنة عند أهل عنيزة، وإلا ما استطاعوا مناقشة هذا الرحالة في قضايا علمية دقيقة مثل: العلوم، الجغرافية، والتاريخية، أو حركة النجوم، وتعاقب الأيام وغيرها من المواضيع التي لمسناها في أكثر من مكان على صفحات هذا الكتاب. (ابن جريس).

الكريمة المشهورة هي الفيروز من بلاد فارس والياقوت من بورما، ولكن الماس نادر على الرغم من أنه يُلبس أحياناً قرطاً في الأذن[١]. وكان رأيي في مستجمع أمطار وادي الرمة قد نال هنا بعض التأييد، بيد أنهم أبدوا جهلاً عظيماً بمسار وادي حنيفة، الذي كنت قادراً على تزويدهم بمعلومات موثقة عنه[٢]. إن معلوماتهم الجغرافية تبدو صبيانية إلى درجة ما، وفي المدن لم تكن فكرتهم عن عقارب البوصلة حسنة مثل المواطن الهندي العادي. مع أنه فيما يبدو أن لديهم فهماً غريزياً لحقيقة أن الشخص يكون صاعداً نحو الغرب ونازلاً للأسفل نحو الشرق. هنا انضم إلينا إبراهيم بن زامل، نجل الأمير الشهير، ولكنه من النوع المتعصب وهو أول عينة من هذا النوع أقابله. لقد كان يعتني تماماً بملابسه الحسنة وعقاله الصوفي الثقيل، ولكنه بكل تفاخر حجب سلامه عني، وأنا بالقدر نفسه من التفاخر نهضت لأنصرف.

أمامنا كان يسير يحيى العجوز ويتهادى في مشيته بتلك السرعة التي يسمح لها بها بطنه العظيم على رجليه القصيرتين ذات الحجم الهائل. وقد ألقى علينا التحية بحرارة عندما مررنا بجواره ومضى في طريقه إلى أحد الجلسات لشرب القهوة. عند باب بيتنا قابلنا جاراً قريباً لنا، رجلاً عجوزاً يدعى سليمان السعيد، الذي توقف ليتبادل الحديث معنا وأعلن رغبته الشديدة في دعوتنا لتناول الطعام معه. واعتذرنا بأنه سيكون كافياً لو شربنا القهوة معه، وحيث إن احتفالات العيد وهي الزيارات المتبادلة بين جماعات المؤمنين بعد صلاة العيد الجامعة[٣]، سوف تجعل

(١) لمزيد من التفصيلات عن العلاقات والنشاط التجاري في عنيزة، وما يرد إليها من سلع مختلفة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥-١٤٩، السويداء نجد في الأمس القريب، ص ١٢١، أبو علية، الدولة السعودية الثانية، ص ٢٧٣، العثيمين، نشأة إمارة آل رشيد، ص ٩٠. (ابن جريس).

(٢) يتصل بوادي حنيفة واد آخر يسمى وادي السهباء، ويبلغ طول الواديين معاً حوالي (٧٠٠) كم. للمزيد انظر: الشريف جغرافية المملكة، ج١، ص ٨٨-٨٩. (ابن جريس).

(٣) الزيارات المتبادلة بين الناس يوم العيد كانت من أجمل ما تتصف به الأعياد، أما اليوم فقد خفت بشكل ملحوظ، وربما انعدمت في بعض النواحي من المملكة العربية السعودية. (ابن جريس).

مثل هذه الزيارة صعبة في الغد، فقد وافقنا على زيارته فوراً، تاركين له وقتاً كافياً فقط ليعود إلى بيته ويوقد ناره. وخلال دقائق قليلة كنت ومحمد، وعبدالله، مصحوبين بعتيق الصغير الذي كان يرتدي حُلة العيد ـ كوفية من الحرير القرنفلي الرقيق، وعقال رائع صغير من بلاد الرافدين، وعباءة سوداء وعصا خيزران ـ في طريقنا إلى مجلسه المريح. هناك وجدنا عجوزاً آخر يزيد عن السبعين خريفاً مثل مضيفنا. كان هذا يُدعى عبد العلي العلي وهو أصلاً من الزلفي[1]، وجاء ليستقر هنا منذ زمن يقترب من زيارة داوتي وقد تذكّره تماماً.

لقد بدأ سليمان العجوز حياته تاجراً، وقضى عشرين سنة في البصرة بهذه الصفة لمدة ست عشرة سنة، عندما عاد بعد وفاة أبيه، الممارس الطبي الوحيد في عنيزة ليخلفه في مهنته. ومن الواضح أنه لا يملك أي مؤهلات أخرى للوظيفة ما عدا أنه كان بالصدفة ابن أبيه. ومع ذلك فقد انكب بهمة على ممارسة مهنته التي تغطي القصيم كله، ولكنه يشتكي من أنه لا يوجد مجال ولا دلائل تبشر بالربح والنجاح في هذا البلد. فالمرة الوحيدة التي نال فيها مبلغاً كبيراً أكثر من مجرد كلمة «شكراً» مقابل خدماته هي عندما اعتنى بمبارك بن صباح في مرضه الأخير (المميت)، ولم يدفع له ورثة الشيخ العجوز فقط بل إنهم زودوه بمخزون من الأدوية عاش عليه منذ ذلك الحين.

وقد طلبت رأيه في موضوع الأرواح الشريرة وعلاج الأشخاص الذين بهم مس من الشيطان. فقال بكل جد: «مس الشيطان مرضٌ شائع من السهل جداً تشخيصه، فالجان[1] مخلوقات على هيئة بشرية إلا أن عيونها لوزية (مستطيلة وضيقة)، والتي تكون رأسية وليست أفقية. وهي تدخل أجسام الضحايا دائماً عن طريق أصبع

(١) لمزيد من الإيضاح عن مدينة الزلفي، انظر: عبدالرزاق بن أحمد اليوسف السعود. الزلفي (منشورات الرئاسة العامة لرعاية الشباب) ص ١٩ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) جمع جني: (فيلبي).

القدم الكبير. ولكن في جميع الحالات تقريباً نجحت في إخراجهم بتلاوة رقى من كلام ربي ـ أي من كلام الله ـ مع حرق البخور». من الواضح أن لديه عيوباً مهنية، ولكن ليس هناك ما يعيبه كمضيف، وشعرت في ذلك الحين أنني ـ حتى في تجربتي كلها بعنيزة ـ لا أجد حريتي أبداً كاملة مثلما أجد في مجلس هذا الطبيب العجوز غريب الأطوار. واعتذر عن تقصيره في دعوتنا قبل ذلك بسبب مرضه. وأردف قائلاً "على كل حال، لا أخرج إلا نادراً وأنتم على الرحب والسعة متى ما شئتم زيارتي وأنت، وعبد الله، لا تخجلا من المجيء هنا فنحن إخوان» (في الطب). وقد زعم أنه يعرف داوتي، ولكنه قال بكل وضوح، وهو يتحدث عنه بصفته اختصاص تطعيم، أنه في الحقيقة لم يره، وكان انطباعه هذا قد أكده عبد العلي. ولكي يكمل ضيافتنا قدم صينية، وضع عليها أربع سلطانيات من أشهر التمور التي ذقتها على الإطلاق في المنطقة، تشمل نوعين هما: نوع كبير جداً بلون بني خفيف يسمى خوخه هنا ويشتهر في المناطق الأخرى باسم دقلة، وتمر كبير بني اللون يميل للحمرة يسمى حمر المذنب تبعاً لمكان منشأها الشهير[1].

بعد أن تركنا مضيفنا أتينا إلى مجلس ثانوي أو مساحة مفتوحة نحو طرف ضليعة من المدينة، مساحة محفوظة على الدوام من تعدي البناءين عليها؛ لأنها وقف للسبيل (لله)، أي مخصصة لخدمة الله. وكانت مساحة بيضاوية غير منتظمة تحيط بها مجموعة من البيوت عند كل زاوية من محيطها، ويبدو أنها تستعمل سوقاً للحطب والوقود كما يتضح من أكوام الخشب مختلفة الأنواع التي تسدها. وبعدما خرجنا الآن من المدينة عبر سلسلة من الحارات الضيقة التي تقطع بساتين النخيل المسورة، وصلنا إلى حديقة، حوالي أربعة أو خمسة أفدنة في مساحتها، تخص فهد البسام. لقد كانت في السابق بقعة باهية بغزارة الأشجار الباسقة، بيد أن الإهمال

(١) تعتبر القصيم من البلدان المشهورة بأصناف عديدة من التمور الجيدة والمتنوعة في أحجامها ومذاقها (ابن جريس).

المستمر قد ردها مرة أخرى إلى ما هي عليه، مجرد بستان نخيل به مجموعة من أشجار الزيزفون والليمون حسنة النمو. والمعلم الرئيس فيها هو بئر صغيرة مبنية بعمق يبلغ عشر قامات ذات شكل مستطيل فيه خمسة دواليب عليها تسحب الإبل قرب الماء على جانب واحد. وتفرغ المياه في حوض كبير من البناء طوله مئة قدم وعرضه ستة أقدام، وبه قنوات مبنية ضيقة موزعة في مختلف أجزاء الحديقة من سلسلة من المخارج. والماء يقف فيها عند عمق حوالي قدمين وهو مغطى بصورة كبرى بالأعشاب الضارة. وقد استفاد منه محمد لأداء وضوئه لصلاة العصر، التي أقامها هو وعبد الله في الحديقة بينما كنت أتجول جيئة وذهاباً. وعدنا عن طريق حلة ضليعة، مارين خلال جزء من السوق الرئيس حتى وصلنا بيتنا[1].

في وقت لاحق من العصر نفسه انطلقت مع حمد، وعايض، ومروج عن طريق القاع الذي ما يزال كما كان في عهد داوتي مساحة فضاء كبرى مكدسة بأكوام عالية من نفايات وقمامة المدينة، تعلوها العظام البيضاء من الإبل والغنم المذبوحة للبيع. في أحد أركانها خارج سور حديقة توجد قناة صخرية عميقة كبيرة لسقيا الحيوانات، هبة على سبيل الوقف من أصحاب الحديقة، وهم بعض أفراد عائلة البسام الكبرى. ثم سرنا بعد ذلك في الطريق الشمالي، المسور على كلا الجانبين، والذي من بداية قرية ملح فصاعداً يتشابه تماماً مع قاع السيل الرئيس وهو طريق عام واسع جميل يؤدي إلى المقابر الكبرى قرب ضيا ومنها ـ بعدما سرنا بصورة عشوائية ـ تجولنا في حقول البرسيم وحدائق السوق والبساتين المسورة حتى وصلنا النفود بالقرب من بئر كبيرة على مقربة شديدة من فجوة مفتوحة في السور

(١) لمزيد من المعلومات عن الطبيعة الجغرافية لمدينة عنيزة، انظر: الشريف، منطقة عنيزة، ص ٤٠، أمين الريحاني، ملوك العرب، ج٢، ص ١٢٠. وقد سمي أمين الريحاني عنيزة باسم (باريس نجد) حيث قال: «وهي أجمل من باريس، إذا أشرفت عليها من الصفراء لأنه ليس في باريس نخيل وليس لباريس منطقة من ذهب النفود» محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٢٠، أحمد الشامخ، «نظام التصريف المائي بمنطقة القصيم» مجلة الدارة، سنة (٥) عدد (٤) (١٤٠٠هـ) ص ٧٠. (ابن جريس).

الدائري. كانت البئر[١] ثمانية دواليب تحركها أربعة جمال على أحد الجوانب، وثلاث أبقار وحمار على الجانب الآخر. وهي مبطنة بالحجر وعمقها نحو تسع أو عشر قامات. وعندما تركنا البئر من الخارج دخلنا الواحة مرة أخرى من فجوة أخرى مماثلة وعدنا نحو بيتنا عن طريق منطقة الجناح، وقابلنا فهد البسام على الطريق وهو خارج من حديقة تخص أحد أقاربه. وعندما مشينا معاً دار الحديث عن داوتي، الذي اقترح على عبد الله البسام تحويل مزبلة القاع إلى حديقة عامة للترفيه عن مواطني عنيزة. وكان عبد الله البسام الشاب في تلك الأيام، والذي قُدّر لي أن أقابله لاحقاً، ما يزال على قيد الحياة كما قال لي، على الرغم من أنه يحيا حياة من العزلة في إحدى الحدائق، ولكن الشيخ ناصر الكبير في السن قد توفي من زمن طويل. وبعدما وصلنا عند المجلس الكبير استدار جانباً ليصلي في المسجد الرئيس، وواصلت سيري نحو البيت من خلال السوق الرئيس.

في الماضي، كما قالوا لي، من المعتاد أن تستمر احتفالات العيد لثلاثة أيام من الرقص والغناء والمرح العام الصاخب، ويشمل عروضاً عسكرية ورقصاً من نساء البدو. ولكن منذ احتلال ابن سعود للقصيم تحول إلى احتفال ديني محض من الصلاة وذبح الأضاحي[٢]، والشيء الوحيد الباقي من الجاهلية القديمة هو ضجيج بغيض من الأغاني والضوضاء يرددها طول الليل صبيان المدينة، وكل حي له عصابته الخاصة من ناشئة مواطنيه الذين يستعرضون في حاراته وأزقته وبكل غيرة يبعدون جميع المنافسين لهم بعملية بسيطة تنطوي على قتالهم إذا استدعت الحاجة ذلك. وكل مجموعة إخوان من الفتية يجمعون اشتراكات ليوفروا لأنفسهم الحلويات

(١) هذه البئر والحديقة الكثيفة التي ترويها تعرف باسم معاوية، كانت من أملاك عائلة الخنيني، وقد ذكرها داوتي الذي زارها. (فيلبي).

(٢) من حسنات دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية أنها سعت إلى محاربة العادات الخارجية عن إطار الشريعة الإسلامية مثل: رقص النساء أمام الرجال، والغناء وغيرها من الخرافات والمعتقدات التي نص القرآن الكريم والسنة المطهرة على تحريمها (ابن جريس).

والمـرطبات في الاحتـفال، والضجيج الذي كانوا يحدثونه كافٍ ليبقيني ساهراً جزءاً من الليل.

في غضون ذلك كنت قد قضيت المساء مع ناصر الشبيلي، من عائلة من عنيزة لها أمـلاك واسعـة في بساتين التمـر الغنيـة بالبـصرة، وبعض من أصـدقائه على مساحة السقف الضيقة التي تربط بين بيتيه على كلا جانبي الشارع. هذه كانت أفضل بكثير من المجلس المعتاد ذي الجو الخانق، وهناك سماط رائع من الفاكهة خوخ وبطيخ ممتاز، للتناول بين دورات القهوة والسجائر. وقد أثارت هذه الجلسة لدى عبد الله وعندي كلٌّ على حدة تماماً انطباعاً بأنها عراقية أكثر منها عربية، فالرقة والدماثة المبالغ فيها تقريباً ولكنها طبيعية في عنيزة قد تلطفت بشيء من الفظاظة والسوقية المرحة من البصرة[1]. وكان ناصر غائباً منذ فترة قصيرة مضت في أرض له تسمى زبيدة بالوادي، حيث يوجد نبع جديد حاز على اهتمامه؛ ولذلك اعتذر عن إهماله الواضح لنا ودون لغط أكثر دخل فجأة في الموضوع الذي بسببه كانت دعوته الحالية. إن بعضاً من مزارع تموره في معقل قد صودرت من قبل السلطات العسكرية البريطانية بتعويض يعتبره غير كاف. ولقد خلقت شيئاً من الإثارة عندما اعترفت بأنني كنت المسؤول عن تقدير القيمة، الذي حدد بالطبع على أساس القيمة العادلة قبل الحرب، وليس على أساس الأسعار المرتفعة التي نشأت من الاحتلال العسكري. وفي الوقت نفسه ذكرت حقيقة أنه لم يأت بصورة واضحة أمامي، كمدعو بإشعار عام، ليحتج على التقدير. فرد قائلاً: إنه قد فعل ذلك بعد سنة مع خليفتي، عندما تم التخلي عن الخطة العجيبة لحيازة أراض كبيرة بصورة دائمة، وتقلصت القضية إلى مجرد التعويض عن الضرر الحقيقي الذي وقع. وفي

(١) ربما حياة التمدن العراقية أثرت على بعض أهل عنيزة بسبب ترددهم على مدن العراق، والعيش فيها بعض الوقت، ثم العودة إلى مواطنهم الأصلية في بلاد القصيم. (ابن جريس).

الختام اقترحت عليه أنه يستطيع دائماً أن يمتحن صحة التقدير في المحاكم، واختتم الموضوع بعرضه عليّ أن يأخذني ذات يوم لمشاهدة مزارعه في الوادي[١].

في الصباح التالي استيقظت قبل الفجر وخرجت مع عبد الله وكنت أحمل كاميرتي، مخبأة بعناية تحت عباءتي لنرى ونلتقط صوراً ضوئية لصلاة العيد، التي تُؤدى فوق منحدر رملي منخفض جنوب السنجر الجنوبي الغربي. هذا المكان على الرغم من أنه الموقع المنتظم للصلاة في مثل هذه المناسبات، لا يختلف كثيراً عن النفود المحيطة به إلا بوجود منبر من ثلاث درجات لا تزيد في الارتفاع عن ثلاثة أقدام. وفي طريقنا إلى موقعنا الممتاز، قمة رملية قرب حديقة الخريجية، مررنا على حشود هائلة من الناس كلهم يسرعون الخطى في الاتجاه نفسه، ومن بينهم لاحظت نسبة طيبة من النساء في فساتين خارجية فضفاضة ذات لون أزرق يميل للخضرة وعباءات سوداء. من البوابتين الجنوبية والجنوبية الغربية كانت مواكب متصلة كثيفة من البشر تسير مقتربة من «المسجد»، حيث خلف المنبر جلست مجموعة من الرجال يزيد عددهم باستمرار وخلفهم على مسافة معقولة اجتمع حشد مماثل من النساء ولكنه أصغر نسبياً. وعلى طول وقت الصلاة يتقاطر المتأخرون على أقدامهم أو على ظهور الخيل ليملؤوا المكان، وكانت الخيول توقف معاً أمام الطرف الأيسر لصفوف الصلاة.

وبعد شروق الشمس مباشرة جاء موكب ذو مظهر أشد جلالاً ومهابة من المواكب المتواصلة المفككة من البشر التي احتلت المكان حتى الآن، جاء بارزاً من الركن الجنوبي الغربي للواحة، ونهض المصلون كلهم عندما تقدم الإمام، صالح القاضي[٢]،

(١) يغلب على بلاد القصيم توفر الأراضي الزراعية المتنوعة في أحجامها وموارد مياهها ومنتوجاتها. (ابن جريس).

(٢) تولى الشيخ صالح بن عثمان القاضي القضاء في عنيزة من عام (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، حتى وفاته عام (١٣٥١هـ/١٩٣٢م). انظر: محمد القاضي. روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين (د. م. د. ن، ١٤٠٠هـ) ج١، ص ١٥٢، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ٦٦. (ابن جريس).

ابن عم إبراهيم القاضي، إلى مكانه أمام المنبر. ودون لغط كثير بدأت الصلاة الأساسية من ركعتين وكان الصوت الواضح الرفيع للإمام يتردد صداه بنغم عذب فوق هواء النفود الصافي الله أكبر، الله أكبر!! وكلما وقف وركع وانحنى وسجد، كان المصلون كلهم يفعلون ذلك وراءه. وبعد انتهاء هذا صعد المنبر، وواجه الحاضرين الجالسين، الذين تزاحم الكثير منهم من الجناحين متقدمين للأمام ليأخذوا أماكنهم على الأرض أقرب ما يكون للخطيب، ومع ذلك كان آخرون، بعدما أدوا الحد الأدنى مما هو مطلوب حسب الشريعة الرسمية، قد تسارعوا منصرفين نحو المدينة ليهتموا بتحضيرات العيد والتصدق على الفقراء.

والآن في إنشاد غنائي، كما لو كان يتلو ولا يعظ، ألقى الإمام الخطبة وهو يقلد الخطبة السنوية على جبل عرفات، التي تكون الشعيرة المتوجة للحج الأكبر بمكة. وكلما حكى قصة إبراهيم وكيف كان سيضحي بولده إسماعيل[١] كانت النساء وحتى كثير من الرجال من بين المصلين يبكون بنشيج عالٍ تعاطفاً مع الأب الذي كان يخاف الله كثيراً. بعد ذلك دخل في شرح النواحي العملية من شعيرة التضحية. من كل حيوان سيضحى به كل أهل بيت من البيوت ينبغي أن يخصص ثلثه للفقراء والمحتاجين، وثلث آخر يجب أن يوزع بين الجيران، وثلثه الأخير يمكن الاحتفاظ به لاحتياجات أهل البيت.

وفي منتصف الخطبة كان هناك وقفة واضحة، منها استفاد جزء كبير من المصلين لينصرفوا إلى واجباتهم. ثم استمر الإمام حتى النهاية، عندها حدثت جلبة شديدة وهرولة نحو البيوت[٢]. لكنني لاحظت أن النساء من المصلين قد تخلفن بعد أن ذهب الرجال وتزاحمن حول المنبر، واستمرين في صلاتهن في هيئات من

(١) في التقاليد الإسلامية كان إسماعيل هو الذي ناداه أبوه ليضحي به وليس إسحاق (فيلبي).

(٢) تظهر دقة ملاحظة فيلبي في وصف صلاة العيد، وهيئة المصلين وهم يؤدون هذه الشعيرة العظيمة. (ابن جريس).

التواضع والتوقير الذليل. ربما كان هناك قيمة في لمس الأرض نفسها والمنبر الذي وقف عليه الإمام[١]. وبعضهن وهن يصلين، كن ينتحبن ويبكين بحرقة.

في أثناء عودتنا عن طريق البوابة الجنوبية الغربية لاحظت سمطاً مفروشة أمام أبواب بيوت عديدة في الشارع الترابي وهي مصنوعة من الحصير عليها أطباق من العصيدة[٢] والسمن، وحولها جلس الضيوف يأكلون. بيد أنه وقد لاحظت في هذه الأطباق غياب اللحم، ربما كانت مساهمة متواضعة من الفقراء أنفسهم إلى المعدمين. وفي كل الأحوال في ذلك اليوم لم يكن هناك جائع في عنيزة، حيث احتفلوا بالعيد بطريقة الترفيه الوحيدة المعروفة لمواطنيها، وهي جولة لا نهاية لها من الزيارات لتقديم التهاني المتبادلة وتناول القهوة. وبالنسبة لي كان العيد مناسبة لتوزيع الهدايا على أطفال مضيفي وخدمه. وجاء جارنا، عبد العزيز القنير، ومعه ولده الصغير لينال حظه؛ ولأنه لم يكتف بهذه الصدقة فقد ذكر لي ولده الآخر الذي لم يكن في البيت تلك اللحظة، ولهذا أضفت مساهمة صغيرة للولد الغائب. فقال أبوهم: «وماذا عني أنا؟». لقد كان هذا سلوكاً غريباً على عنيزة، وعبد الله، الذي سمع طلبه ، قد احمرّ وجهه من الخجل. وقد رفضت طلبه بمزاح ضاحك، وانصرف عبد العزيز مخيب الآمال ولكنه غير خجلان.

كان صالح الفضل أول زائر لنا بتحيات رقيقة ودعوة في الغد. ثم جاء عبدالرحمن البسام، أخو عبد الله الذي كان شاباً في عهد داوتي. وهذه أول مقابلة لي معه وكما لو كان يجد عذراً لنفسه عن عدم زيارتنا من قبل، فقد شجب «غلظة» الناس. ولقد استنكرت هذا الوصف بخصوص عنيزة، ولكنه أصر على وجود زيادة

(١) هذه الطريقة تتعارض مع الشريعة الإسلامية الصافية، فلا يجوز التبرك بالأرض أو المنبر الذي كان عليه الإمام، أو ما شابه هذه الأشياء. (ابن جريس).

(٢) جريش (فيلبي). للمزيد عن بعض الأكلات الشعبية في القصيم. انظر: الهويمل، بريدة، ص ١٦٧-١٧٠، السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٧٠-١٧١، المقوشي، البكيرية، ص ٢٣، العيد، البدائع، ص ٩٣-٩٥. (ابن جريس).

في التعصب الأعمى بالمدينة منذ أيام داوتي، وأعرب عن أمله في أن أزوره ذات يوم في حديقته خارج المدينة. وقال لي: إن أخاه، عبد الله، قد شغل نفسه لسنوات كثيرة بجمع مذكرات مخطوطة عن كثير من الموضوعات العويصة ليشكل ما يمكن أن يكون مثل دائرة معارف لاستخدامه الشخصي. وتناولنا طعام الفطور، بدعوة منه، في بيت عبدالله الحمد السليم، مع عدد من الضيوف الآخرين الذين لا أعرفهم جلسنا حول وجبة مقتصدة من الأرز المبهر بالبصل، والخبز، ولبن الزبادي، والبطيخ والشمام، والتمور. بعد الفطور فوراً نهضنا للانصراف، على الرغم من أن مضيفنا بذل جهداً شكلياً لبقائنا لتدخين السجائر. كانت هذه القاعدة من الانصراف الفوري بعد الطعام تبدو دائماً لي أنها السمة الوحيدة الفظة في كل ضيافتهم الكريمة.

دار الحديث على موضوع النساء الأرمنيات في الجزيرة العربية. إن حوالي مائة وعشرين منهن، ربما يشملن بعض الشركسيات، قد انجرفن إلى القصيم في السنة الماضية على إثر طوفان الاضطهاد الذي دمر وطنهم. وقد جاء معظمهن معدمات واتخذهن قصمان كثيرون زوجات لهم، بعدما وجدن في دينهن الجديد الراحة وفي بعض الحالات النعيم المحرومات منه في وطنهن. وقد أدركت السلطات الدينية حاجتهن الخاصة للحماية فأصدرت فتوى تمنع طلاقهن إلا بشرط أن يوفر لهن الزوج قوتاً شهرياً وفيراً لمعيشتهن. وقد أرسل بعضهن إلى ابن سعود على سبيل الهدايا، ولكنه تنازل عنهن إلى المفضلين من رجال حاشيته. وقد عرضت واحدة منهن على محمد السليمان، الذي رفض هذه الهدية الخطيرة خوفاً من الإساءة إلى زوجته الرسمية. وقالوا لنا عن أخرى جميلة تسلب اللب قد ترملت حديثاً، والتي كانت أمها الطموحة تستهدف زواجاً رائعاً مقروناً بشرط أن تعمل هي نفسها في الخدمة المنزلية ببيت زوج بنتها. هؤلاء النسوة الأرمنيات كن مشهورات بأنهن طباخات ماهرات وبارعات في فنون ربات البيوت.

بعد صلاة الظهر خرجنا على مهل لنسلم على العجوز عبد العزيز، الأمير السابق، الذي وجدناه جالساً على الأرض مع جماعة صغيرة من الزوار في الممر المؤدي إلى مكان استقباله الخارجي. وكان مستغرقاً في قراءة كتاب صغير بعنوان: **تقويم العيوني** وهو نوع من رزنامة الظواهر الجوية أعده أحد العلماء في الأحساء ليبين فترة تمتد إلى مئة وخمسين عاماً، منها ثمانية قد انقضت بالفعل والتواريخ والنجوم التي بموجبها تبدأ المواسم الزراعية المختلفة. وكنا الآن في موسم الخريف حسب هذا الكتاب، وكانت الوسم أو الصفري أي فترة الوسمي وهي أشد الأمطار فائدة على وشك أن تبدأ في العاشر من محرم، أي بعد شهر من الآن. وهو يحاول أن يكتشف تفسيراً لنوبة الحر التي كانت في هذا الوقت شديدة الوطأة بالمدينة، حيث إن درجة الحرارة قبل شروق الشمس في يوم العيد هذا تبلغ ثمانين درجة فهرنهايت. ثم تحول النقاش إلى السفر والتعليم، وطلب رجل طاعن في السن من عائلة البسام، أعمى تقريباً، من الحاضرين أن يلاحظوا التقدم الكبير في هذا الاتجاه الذي جلبه الإنجليز معهم إلى الشرق[1].

في طريقنا للالتزام بموعد مع سليمان الذكير صادفنا ولداً آخر من أولاد زامل الكبير، ولكن محمداً، مثل أخيه إبراهيم، قد أفسدته قرحة التعصب الأعمى. ولقد كان من المحزن أن يدرك المرء أنني بهذا الشكل قد حُرمت من ما هو أكثر من مجرد معرفة عابرة مع أولاد واحد اشتهر كثيراً بالتسامح في ماضي الأيام العظيمة. كان مقبل ويحيى وعبد العزيز الذكير من بين جماعة الضيوف في بيت سليمان الذي دخلناه في الوقت نفسه مع عبد الله البسام الشاب الذي كان من معارف داوتي.

(١) يظهر أن مدينة عنيزة أثناء زيارة فيلبي لها عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م) كانت لا تخلو من المنتديات والمجالس العلمية الفكرية التي تناقش مواضيع متنوعة في أبوابها ومعلوماتها. للمزيد عن الحياة العلمية والفكرية في عنيزة انظر: عبدالشبل، التعليم في نجد، ص ٥٠٧، محمد السلمان، التعليم في عهد الملك عبدالعزيز (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٢٣١ وما بعدها. (ابن جريس).

والآن شيخ فوق الستين، ولكنه بصحة حسنة، منتصب القامة ذو لحية مشذبة بشكل حسن، والشعر الرمادي فيها قد أخفته الصبغة السوداء تماماً. إنه رجل عجوز أنيق في مظهره ذو شخصية متحذلقة. فقد احتكر الحديث، وتكلم بصوت عال، عن الطب بصورة أساسية. ففي إحدى المرات كان داوتي قد قدم له جرعة أو حبة من زيت الكروتون (Croton-Oil) ليعالج معدته، وقد عملت عملها بقوة شديدة لدرجة أنه لبعض الساعات ظل بشكل حقيقي حبيساً في مرحاضه. وبعد ذلك بقليل تورم جسمه كله ولكن الطبيب أكد له أنه لا داعي للقلق، وفي اليوم التالي وجد نفسه في صحة أفضل لم يتمتع بها أبداً من قبل. ومما أثار ابتهاج يحيى العجوز كثيراً الذي كان سليمان يصيح راوياً له القصة في أذنه الصماء بعد إضافة بعض المحسنات. حكيت لهم حكاية الرجل الذي سمح أو جعل أمه تبلع في مرة واحدة ست جرعات من مادة ما أعطاها لها داوتي لتنال شفاءً سريعاً، وكيف أن الأخير، بعدما سمع ما حدث، أمر الرجل أن يركض للبيت بأقصى سرعة يستطيعها، وإذا وجد أمه نائمة أن يسقيها محتويات فنجان قهوة!! وكانت التجربة الوحيدة ليحيى في العالم الخارجي قد تمت منذ حوالي ثلاث وخمسين سنة مضت عندما زار القاهرة ومعه بعض البضائع، وعاد عن طريق جدة ومكة. ومنذ ذلك الحين كان مقبل يدير تجارة العائلة.

كان عشاؤنا، مثل فطورنا، في بيت عبد الله الحمد السليم، حيث ذهبنا إلى هناك في حوالي الخامسة مساءً. وكان مضيفنا قد زار الهند مرة، ولكن لأنه قضى وقتاً طويلاً في التجارة بالبحرين ومسقط، فقد وجد نفسه في حالة صحية شديدة الضعف لا تمكنه من الاستمتاع بكراتشي وبومباي. وعندما تحدث عن داوتي قال: «في الحقيقة، لا يسعني إلا أن أعتقد أنه تنقصه الحكمة والكياسة. فلو كان نهض، عندما نودي للصلاة، قائلاً عبارة «حلت البركة»[1] لكان قد لقي استقبالاً وترحيباً مختلفاً

(١) بارك الله فيها. (فيلبي).

تماماً، ولربما كان الله قد رضي عنه أيضاً. لماذا، كان هناك شخص عظيم في المدينة، مسلم بالطبع، ولكن ليس من المذهب الوهابي، والذي جاء إلى نجد، وبعدما وجد أهلها ليسوا ملائمين للصحبة بدأ يتحدث عن العصافير[1]. وعندما رأى أن مضيفيه الكارهين له يعتبران الطائر طعاماً نادراً ليس سهل المنال في كل الأحوال بدأ يتحدث بتفاخر «انتظروا حتى تأتوا إلى المدينة، حيث أزرع نوعاً غريباً من الدخن به مسامير في البذرة تقتل الطيور. وعندي منه آلاف وسوف أقدم لكم وليمة من العصافير». فقال المضيف لخادم عنده «اذهب، واذبح شاة طيبة وتأكد من أن عشاءً حسناً قد أعد لضيفنا الكريم». واختتم عبد الله قائلاً: «هذا هو طريق الانسجام مع العالم».

قُدّم العشاء في الرواق المفتوح بالطابق العلوي، وكان مضيفنا، جرياً على عادة أشد شيوعاً في عنيزة عن غيرها، قد جلس على اللحم معنا. إن الفرق الكبير بين مستوى المعيشة في عنيزة والمناطق الأخرى من نجد يرجع ـ كما قال ـ لحقيقة أن مواطني الأولى موجودون في جميع المراكز التجارية الكبرى حول الجزيرة العربية، ليسوا مجرد عابرين وإنما مقيمون دائمون. وليس هناك شك في التأثير الحضاري من الاختلاط مع أشتات مختلفة من الناس في العالم الكبير. إن أهل بريدة، على سبيل المثال ـ وهذه حقيقة ـ يمكن أن تقابلهم في بغداد، ودمشق، وأماكن أخرى، ولكن كمجرد زوار موسميين الذين تقع بيوتهم الدائمة في نجد.

ولقد حكيت لهم قصة المزارع الشاب الذي أحضرت له المال الذي ائتمنني عليه قريبه في بغداد والذي لم يدعني أبداً إلى بيته. وقلت: «إن عنيزة قد سرتني كثيراً لدرجة أنني أشعر أنها وطني. هل ستقبلونني إذا أردت أن أستقر بصورة دائمة بينكم؟» فردّ قائلاً «بالتأكيد، ولسوف نبحث لك عن فتاة عنيزية لتتزوجها، وإذا اعتنقت الدين كان خيراً وأفضل». فقال الدكتور عبد الله: «لا، ليس الأمر كذلك على

(١) عصفور، في هذه الحالة يحتمل أن الكلمة تشير إلى طائر صغير آخر، على الرغم من أن العصافير بالطبع تؤكل في نجد مثل الأماكن الأخرى حيث تُقدّم مثل طيور الشعير. (فيلبي).

الإطلاق، عليه أن يختار بين الإسلام وجهنم»[١]. إن مضيفنا الذي كان في مقابلاتنا الأولى يصعب إلى حد ما انتزاع الحديث منه، قد تطور بسرعة وأصبح من أفضل المعارف، وفي هذا اليوم أظهر قدرته كشخص مضياف وممتع؛ ففي هذا المساء أصر إصراراً مطلقاً على بقائنا لشرب دورة أو دورتين من القهوة والسجائر قبل أن نرحل، وكان عشاؤن ممتازاً على الرغم من بساطته[٢].

عند رحيلنا كنا لا نزال في وقت الغروب، وقمنا بزيارة واحد من ذوي المكانة الدنيا في عنيزة يدعى محمد الحمد الخريفاني. وهو شاب أصله من شمر والذي قضى سبع سنين في القاهرة وزار البصرة. وهو وابن خالة، محمد الحمد الخرداني، يعيشان معاً، ويسكنان واحداً من أصغر وأقذر المجالس التي رأيتها، حوالي ستة أقدام مربعة.

على كل حال، كان الوقت يمضي بسرعة؛ ولأن عبد الله كان في عجلة لكي يأخذ لمحة من النساء الشابات على السطح، فقد انصرفنا بعد دورة واحدة من القهوة. وانقضى اليوم بزيارة قصيرة وشكلية للأمير عبدالله، الذي وجدنا معه عبدالرحمن بن عبدالعزيز الزامل، وسليم وآخرين. ولقد أمطرت بأسئلة تخص نجاح عمليات التصوير التي قمت بها خلال صلاة العيد، وفوجئت باكتشاف كثرة الأشخاص الذين لاحظوني جالساً بمفردي على القمة الرملية وهم يعلمون الغرض من وجودي هناك. ولم أسمع كلمة واحدة حتى ولو من باب النقد المقنع لسلوكي هذا خلال ذلك اليوم. وعندما قلت: إنني كنت شديد البعد لدرجة أنني في الحقيقة لم أتمكن من التقاط صورة فعالة، فقد سئلت لماذا لم أقترب أكثر. فأجبتك «سيكون هذا من غير اللائق»، وأثارت كياستي طنيناً من الثناء والتقدير.

---

(١) الهاوية: (فيلبي).

(٢) يتضح من كلام فيلبي أن أهل عنيزة اجتماعيون في سلوكهم وتعاملهم مع الغريب، بعكس بعض السكان في مدن القصيم الأخرى. وقد ذكر هذا الرحالة إعجابه بأخلاقهم وحسن معشرهم وطيب مجالسهم. (ابن جريس).

إن كل يوم من إقامتي المؤقتة في عنيزة يزيد من شكري وامتناني للعطف المتزايد دائماً من جميع الذين لهم أي شأن أو علاقة معي، فحتى هذه الساعة كان يدنو منا ويبادرنا بالحديث في الشارع محمد وعبد الله، أولاد علي بن زامل، اللذين أخّرنا دعوتهما لفنجان أخير من القهوة إلى يوم آخر.

لم أكد أستيقظ في صباح اليوم التالي إلا والزوار قادمون، واضطررت إلى التعجل في الاستحمام واللبس. وعندما نزلت إلى غرفة الاستقبال وجدت الأمير السابق مع إبراهيم القاضي وآخرين يستنشقون الدخان المعطر من المبخرة التي جُلبت إلى هنا للتخفيف من جو الليلة السابقة من التبغ المبتذل. وجيء بكامرتي لفحصها عن كثب، كما فعلوا بجهاز البارومتر أيضاً؛ لأن هؤلاء القوم لديهم فضول طبيعي في فحص الأجهزة العلمية التي تدل على الإمكانيات الكبرى من الإنجاز الفكري، فقد أفسدتهم بصورة جزئية آفة الكسل الطبيعي للإنسان الذي يعيش في جو لا يشجع على العمل، ولكن أتلفهم بصورة رئيسة الحظر الديني العربي على فحص أسرار الخالق عن كثب شديد.

إن علي ـ ابن مضيفنا ـ كان من بين الجماعة، فقد وصل لتوه من الأحساء حيث ذهب في عمل تجاري مع جماعات هندية يرتبط بها[1]، وكان فرد من عائلة الربدي من بريدة قد جلب أخباراً عن وصول قافلة حديثاً هناك من الكويت ومعها أخبار محزنة عن وفاة حمد آل محمد في الزبير، وهو أحد أفراد عائلة البسام الكبار في السن.

في ذلك الصباح تصادف أن دُعينا على الفطور مع فهد، الذي جاء رسوله الآن ليأخذنا[2]. وقد تقدم محمد السليمان أولاً عند دخولنا، وقبّل مضيفنا على خديه

(١) لمزيد من التفصيلات عن الحياة التجارية في عنيزة وبلاد القصيم عموماً، ثم علاقاتها مع العالم من حولها في مجال البيع والشراء، انظر: عبدالفتاح أبو علية، الدولة السعودية الثانية، ص ٢٧٣، سيد بكر، ص ١٨، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٥-١٤٩. (ابن جريس).

(٢) ليأخذنا: أي يستلحقنا، أو يبحث عنا ويصطحبنا معه. (ابن جريس).

الاثنين، وأعرب عن تعاطفه مع العائلة في مصابها، قائلاً: «عظم الله أجرك»، أي بالصبر على تحمل المصيبة[١]. ورد فهد في نغمة خفيفة من الشفقة الشكلية: «شكر الله سعيك وأسكنه الجنة». ولمقابلة الإحسان بالإحسان أضاف: «وقرت عينك»[١]، في إشارة إلى عودة ابن محمد إلى وطنه. ثم تحدثنا عن آخر أخبار الحرب التي جاءت بها جماعة من الكويت. فقد أعلنت روسيا الحرب على الحلفاء ونفذت ألمانيا أعمالاً عسكرية معادية نحو الشرق عن طريق بحر قزوين، وكانت السفن البريطانية تصب القوات في مختلف موانيء الخليج الفارسي، وهناك مليون رجل قد تجمعوا بالفعل في جبل اسمه غير معروف، وتسببوا في إحداث قلق واضطراب بألمانيا. فقلت: «بالتأكيد نسيتم أن تذكروا أن بغداد قد أعيد الاستيلاء عليها من قبل الأتراك». إن الكويت تحت حكم سالم كانت مصنعاً وفير الإنتاج للخداع والدعاية ضد بريطانيا العظمى، وكان فهد يعلم أن جميع الأخبار التي يرويها زائفة ولكن حديثه فيه نكهة من الخبث والمكر، فقد كان مؤيداً للأتراك، ولديهم اعتقاد طفولي بأن سرد الزيف الواضح طريقة لا بأس بها في استنباط الحقيقة، أو الزيف المضاد الذي بينه وبين الواقع الفعلي سوف يُمكنه ذكاؤه من إيجاد غاية مرجوّة. ولم يكن عندي إلا قليل من الأخبار عما كان يحدث خارج الجزيرة العربية[٢].

يواجه منزل فهد المجلس الكبير، وتؤدي مجموعة متواصلة من درجات السلم من بابه الأمامي إلى مجلس القهوة، ولكن في هذه المرة دخلنا من الباب الخلفي من شارع مظلم، ومنه يوجد ممر مليّس بالجبس يؤدي إلى المجلس نفسه. وقُدّم الفطور

(١) عظم الله أجرك: هذه العبارة تقال عند مواساة أهل الميت، ومن الأدعية التي ما زالت سارية المفعول في المجتمع السعودي حتى الآن. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية وخارجها خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: السعدون، ص ٨٤ وما بعدها، فؤاد حمزة، البلاد العربية، السعودية (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٩٦٨م) ص ٢٠ وما بعدها، فتوح الخترش، ص ٧٣ وما بعدها، خزعل، تاريخ الكويت، ج٢، ص ١٨٦ وما بعدها. (ابن جريس).

على صينية كبرى جلسنا حولها فوق مخدات، في غرفة جدرانها طينية جرداء. وقد تنازل فهد عن شرف الجلوس بجواري، وتساءلت ما إذا كان ذلك نابعاً من التواضع الذي يصاحب كرم الضيافة في هذه الأصقاع أم أن هذا من أعماق قلبه، بعدما أجرى حسابات سريعة للمجازفة المؤكدة فسعى بهذه الطريقة المتواضعة إلى تفادي الأكل من الأطباق الصغيرة نفسها مثل النصراني[1].

وواصلنا سيرنا لنزور عبد الرحمن بن عبد العزيز الزامل، الذي كان معه في بيته الشاب زامل، بن صالح الزامل، صديق ورفيق التضحية لشكسبير في معركة جراب، يقال: إنه يرقد على فراش المرض. وظن الدكتور عبد الله أن من واجبه أن يعوده فلربما استطاع أن يقدم له فائدة. وقد وجدنا الباب مقفلاً من الداخل، وبعد تأخير كبير فتح عبدالرحمن نفسه لآخر زيارة لنا؛ لأننا قد حرمناه من متعة الفطور بصحبة زوجته وحرمنا زوجته من فطورها، الذي دعينا إليه بكرم بدلاً منها. وقد اعتذرت وعبدالله عن مثل هذا الانتهاك للحرمات بحجة أننا لم نأكل إلا متأخراً، ولكن محمد السليمان انضم إلى مضيفنا وبينهما لم يتركا شيئاً إلا فضلات من طعام كان مقتصداً ومميزاً في الوقت نفسه. فقد كانت سلطانية كبيرة من التمر وسلطانية من اللبن هما الطبقين الرئيسين فيها، وبراعة عبد الرحمن الزائدة مع بندقيته قد وفرت الباقي من مزارع النخيل، تشكيلة من الطيور الصغيرة، تضم الحمام، وطائراً له ريش أصفر يعرف باسم صفراء وآخر طويل الرقبة يسمى قرنوق[2] والصفراء، كما يقول مضيفنا، يُعتقد أنه كان الطائر الذي جعله الله يهبط من الجنة ليقتات عليه بنو إسرائيل خلال تيههم في الصحراء.

---

(١) يظهر على فيلبي أنه يمتلك حاسة جيدة لمعرفة أحاسيس الناس ومشاعرهم، وعاداتهم وأعرافهم، وهذا المثال الذي أشار إليه في المتن يعتبر أنموذجاً على اطلاعه الجيد على أحوال الناس وطباعهم، حتى وإن كانت في بعض المواضيع المهمة كالعقائد وما شبهها. (ابن جريس).

(٢) وهذا طائر ذو ريش يميل إلى اللون الأبيض ربما يكون طائر الأرز. (فيلبي).

فقلت له: إنه طبقاً لتعاليمنا فإن الطير محل التساؤل هو السمان، الذي نزل ليس من الجنة ولكن كما لا يزال يفعل حتى الآن، من أرضنا الجميلة في أوروبا.

إن نصب المصايد للطيور تسلية شائعة لأولئك الذين لا يملكون بندقية، وبعد عدة أسابيع لاحقة في الشماسية رأيت اختراعاً عبقرياً. فقد كان الصياد يجلس في حفرة مفرغة من الأرض مع متراس مرتجل ليخفيه عن ضحيته، ويمسك بطرف حبل طويل مربوط من الطرف الآخر بقطعة من الخشب، طولها نحو ست بوصات ومستندة على لوح من الحجارة موضوع مائلاً على حفرة صغيرة، التي تنزل فيها الطيور إما للاستحمام بعد المطر أو لتأكل الحب الموضوع فيها. وعندما يكون الطير داخل الحفرة، يُشد الحبل ويهبط لوح الحجارة على الحفرة، فيحبس الطير[1]. قد تبدو هذه عملية مملة، ولكنها قد تكون ممتعة جداً وتستحوذ على الانتباه تماماً مثل براعة صياد السمك.

«إن التقاليد المحمدية»[2] ـ كما يقول عبد الرحمن ـ الذي كان ينادي بصورة شائعة باسم زامل وهو اسمٌ حبيب في عنيزة، «تقول إن الله قد أنزل الحكمة والفلسفة على ثلاثة أجناس فقط، هم اليونانيون، والصينيون، والعرب، ولكن مما رأيته من شعبكم وما سمعته عن بلدكم قد أضيف رابعاً، نعم سوف أضيف الإنجليز». فقلت: «إننا لم نجمع إلا ما كان في المستودع الذي أهمله العرب ردحاً طويلاً، وحتى هذا اليوم نستخدم الكثير من الألفاظ العربية في مفردات العلم، في

(١) يوجد هناك طرق وحيل أخرى عديدة عند المزارعين في شبه الجزيرة العربية كي يحموا مزارعهم مما قد يداهمها من الطيور والحيوانات واللصوص. (ابن جريس).

(٢) تعبير فيلبي وغيره من المستشرقين حول عبارة (التقاليد المحمدية) أو (الديانة المحمدية)، أو ما شابه هذه العبارات، كلها خاطئة، لأن ما جاء به الرسول ﷺ من تعاليم، أو ما نزل عليه من آيات قرآنية، إنما هي تعاليم الدين الإسلامي الشامل العام الباقي إلى يوم القيامة. ونجد معظم الكتب الأجنبية عندما تتحدث عن دين الإسلام، أو معارف التراث الإسلامي تستخدم مثل هذه العبارات غير الدقيقة والصحيحة في الوقت نفسه. وينطبق ذلك على مصطلح (المذهب الوهابي)، فهو أيضاً ليس مذهباً، كما أشرنا سابقاً، وإنما هو دعوة لتعاليم الدين الإسلامي الصحيح. (ابن جريس).

الرياضيات والفلك وأمثالها. إننا أخذنا منكم وطورنا ما أخذناه». فسألني: «هل ما يزال يوجد من بينكم إذاً قوم يدرسون النجوم؟ ومع ذلك عندنا شيء واحد نملكه، نحن عرب نجد، أشد كمالاً مما سوف تجده في أي مكان آخر، وأنت تعلم ما أقصد». فأجبت «نعم، دينكم، ودينكم في عنيزة أشد كمالاً مما في باقي نجد؛ لأنكم تلطفوه بالإنسانية والتسامح، اللذين لم أجدهما في مكان آخر». وهكذا تحدثنا بسرور حتى حان وقت ذهابنا. إن صحبة حفيد زامل الكبير هي دائماً تجربة رائعة، فكرم الضيافة اللطيف والود الصريح في ملامحه يوحي دائماً لي بالصورة التي رسمها داوتي لزامل نفسه، على الرغم من أنهم قالوا: إن أقرب شخصين أحياء لملامح الرجل الكبير البدنية هما ابنه محمد وحفيده زامل بن صالح، الذي جئنا لزيارته على الرغم من أنه لسوء الحظ لم يكن في بيته ولم يكن لحسن الحظ مريضاً بالرغم من أنه كان ضعيف الصحة. لقد كان عبد الرحمن يعتني عناية كريمة مفرطة، مثل النساء تقريباً، بابن عمه، الذي هو أيضاً أخوه من أمه، فقد كان الاثنان أبناء أخوين ومن أم واحدة. وسألت عن كتب التاريخ المتوفرة عن الفترة التي عاش فيها زامل، ووصيت بدراسة كتب ابن غنام وابن بشر[1]، فالأخير مؤلف تاريخ كامل لنجد تحت حكم أسرة آل سعود حتى تاريخ وفاته هو في عام (١٢٢٠م) هجرية[2].

جاءت فترة العصر ونحن مرة أخرى في جو زامل، فقد كان مضيفونا حفديه عبدالله ومحمد، البالغين من العمر تقريباً خمساً وثلاثين وثلاثين سنة على التوالي وينحدران من ابنه الثاني علي، الذي قتل في معركة المليدا سنة (١٣٠٨) هجرية[3].

---

(١) المؤرخ حسين بن غنام الأحسائي المولود في المبرز بالأحساء، والمتوفى في الدرعية عام (١٢٢٥هـ/١٨١٠م)، ودون كتابه عن تاريخ نجد المسمى بـ روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلامي. أما المؤرخ ابن بشر فهو عثمان بن عبدالله بن عثمان المعروف بـ (ابن بشر)، ولد في جلاجل بمنطقة سدير عام (١٢١٠هـ/١٧٩٥م) وتوفي بها عام (١٢٩٠هـ/١٨٧٣م). وكتابه يعرف بـ: عنوان المجد في تاريخ نجد. (ابن جريس).

(٢) هذا التاريخ يوافق بالميلادي (١٨٣٤م) فيلبي + ابن جريس).

(٣) هذا التاريخ يوافق بالميلادي (١٨٩١م). وكان زامل نفسه قد قتل في تلك المعركة (فيلبي). وللمزيد من التفضيلات عن معركة المليدا التي وقعت بين ابن سعود وابن الرشيد، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٤٧، ٧٢-٧٣. (ابن جريس).

وقد جلس الإخوان خلف موقد القهوة، وكنت أنا قريباً من أكبرهم مع ضيف آخر، عبدالعزيز ابن ميمان، على يساري. والاسم الأخير هذا مواطن من عنيزة لم أقابله من قبل[١]. إن عبد الله قد سافر قليلاً، ولكن من كلامه يبدو أنه خال تماماً من أي تعصب، بينما أخوه الأصغر قد رأى قدراً كبيراً من العالم الشرقي وهو يستعد بعد فترة قصيرة لينطلق مرة أخرى إلى البصرة والهند. وكان يشتكي من أنه في هذه الأيام أصبح من الصعب الحصول على تصريح للسفر[٢] إلى بغداد، التي يرغب أن يدرجها في رحلته، وابتهج بامتنان عندما تطوعت بالتغلب على العوائق في طريقه نيابة عنه ورداً بسيطاً للجميل مقابل كرم الضيافة التي استمتعت بها في مدينته الأصيلة. وقد تحدثنا بالطبع كثيراً عن زامل، اسمٌ مشرّف، كما قلت بين البريطانيين. وقالا لي: إنه كان عنده عشرة أولاد[٣] وست بنات، والابن الأكبر، عبدالله، وصفه داوتي بأنه فتى فظ قليل التهذيب. وكان علي السليم، الأمير التنفيذي المتعصب في زمن داوتي قد توفي في الثمانين من عمره عام (١٣١٤) هجرية[٤]، وقد قابلت واحداً من أولاده، وكان ذا لحية رمادية هو نفسه، في مجلس الأمير عبدالله الليلة البارحة، على الرغم من أنني لم أدرك في ذلك الحين هويته. والضحية الأخرى في معركة مليدة هو والد الأمير نفسه، خالد السليم.

وعندما تكرما بوضع سكر في الشاي لي أوقفهما الدكتور عبد الله قائلاً: إنني أفضله دون سكر، وحينئذ وهما يعتريهما شبه شك قدما لي كوباً من الشاي المر، كما

(١) في الحقيقة كان جارنا المباشر. (ابن جريس).

(٢) كان أهل القصيم وغيرها من سكان الجزيرة العربية يذهبون خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) في رحلات تجارية بعيدة تصل إلى العراق وأحياناً إلى الهند. (ابن جريس).

(٣) لقد استطعت أن أحصل على أسماء سبعة فقط كما يلي: عبدالله، وعلي الذي قتل في المليدا وخلفه أولاده عبدالله، ومحمد، وعبدالعزيز أبو عبدالرحمن، وصالح الذي قتل في معركة جراب وخلفه ابنه زامل الذي كان عمره خمسة عشر عاماً، ومحمد وإبراهيم وكلاهما أحياء ومتعصبون بشدة ويحيى الذي توفي بلا أطفال. (فيلبي).

(٤) هذا التاريخ يوافق بالميلادي عام (١٨٩٧م) فيلبي + ابن جريس).

يسمونه، وأعربا عن تعجبهما من شربي له بهذا الشكل. إن العرب يحبون السكر وإن صدقهم المرء فإن استخدامهم المفرط له لا يؤذيهم[١].

عندما كنا عائدين للبيت تصادف أن مررنا على باب مفتوح كان صاحبه المضيف يودع ضيفاً. «تفضل» قالها لنا بكرم فدخلنا. ذلك هو عبدالعزيز التميمي، الذي كان فناء بيته، المسقوف جزئياً، يؤدي وظيفة المجلس. ولم يكن فيه إلا الرمل الناعم من النفود للجلوس عليه. وكان بصحبتنا هنا عبد العلي العلي، الرجل الكبير في السن المذكور آنفاً، والضيف الوحيد الآخر هو عبد الله الحمد السليم. ودار الحديث عن الخيول، التي منها مجموعة من أربعة عشر قد جمعها مؤخراً تاجر، يسمى محمد الشملان، ليأخذها إلى الكويت لشحنها إلى الهند. وقد رأيته في وقت لاحق من اليوم بصحبة عبدالله الحمد، الذي عرّفني على أخي التاجر، ناصر، وعلى عبد الله التميمي. والمجموعة تبدو لعيني غير الخبيرة اختياراً رائعاً من الحيوانات، على الرغم من أن معظمها صغير نسبياً. وكان أغلبها كستنائي اللون (أحمر)، ويشمل أفضل ما في المجموعة، حيوانٌ مشترى من ظافر، وبالتالي يحتمل أن يكون أصله من بلاد الرافدين وليس نجدياً. وحيوان جميل آخر كان من عتيبة وهم مع حرب ومطير كانوا الموردين الرئيسين لهذا السوق على وجه التحديد. والخيول كلها فحول، واحد كستنائي داكن (أشقر)، واثنان رماديان (أصفر) واثنين بلون قشر الرمان (رماني). كان السوق الهندي قد وصل إلى حالة الركود بسبب الحرب، وقيل: إن هذه أول مجموعة تُجمع منذ زمن.

إن عنيزة بجوها الذي يشبه كما قالوا جو بومباي ـ لأنه رطب ـ تملك شهرة خاصة بأنها مربط، أي مركز تجميع، ولكنها هي نفسها ليست أرضاً لتربية تلك

(١) استخدام السكر بكثرة في القديم لا يؤثر، لأن ظروف الناس كانت شاقة، فكل ما يتم أكله وشربه يتم أحراقه بشكل سريع، وذلك لكثرة حركة الناس من أجل كسب عيشهم. أما اليوم فأمراض السكري وغيرها انتشرت في المجتمع السعودي بشكل ملفت للنظر لتوفر الراحة وتنوع الأطعمة والأشربة، وكذلك ضعف ممارسة الرياضة وما شابهها. (ابن جريس).

الحيوانات. إن مناطق التوريد الرئيسة المعروفة للمشترين الهنود هي، كما قالوا، الجزيرة، أي الأجزاء العليا من بلاد الرافدين، والغرف أو الأجزاء السفلى من بلاد الرافدين، والعجم، التي يُقصد بها بلا فارس أو كردستان، ونجد. وكان كبار تجار الخيول العرب في بومباي في هذا الوقت هم جار الله بن طالب من الموصل، وابن فارس من الزبير. وفي الماضي كان هناك ابن مانع، مواطن من شقراء، وربما هو الرجل الذي أشار إليه داوتي، والذي توفي قبل سنوات. وكان أخو جار الله، علي، قد صادق، الأمراء البريطانيين من كوت الإمارة وهم في طريقهم عبر الموصل، وبناءً على طلب من الجنرال تاونشند (Townshend) قدم لهم خمس مئة جنيه إسترليني. هذا المبلغ قد أعادته بعد ذلك الحكومة الهندية إلى جار الله، مع هدايا لجميع أفراد العائلة وشكر الحكومة. وقد حكى عبد الله التميمي هذه القصة في وجودي ذات يوم إلى مستمعين شديدي التقدير لها كمثال على اعتراف البريطانيين بجميل الخدمات المقدمة لهم.

عندما وصلنا البيت، حيث جرى أطفال مضيفنا الرائعون إلى الخارج في الشارع ليحيونا كما كانوا يفعلون مراراً، وجد الدكتور عبد الله مريضاً يطلب علاجاً من نوبات الصرع التي يتعرض لها، وسرعان ما جاء آخر، زامل بن صالح، مصحوباً بعبدالرحمن. لقد كان نوعاً ساراً من الشباب وبدا في صحة جيدة بما فيه الكفاية على الرغم من أنه يتعرض لنوبات الملاريا، التي أعطاه الدكتور عبد الله كمية من الكينين (Quinine) علاجاً لها. عند ذلك، على الرغم من أن الساعة لم تكن إلا الخامسة عصراً، فقد حان الوقت للانطلاق إلى العشاء، الذي، مثل فطور ذلك اليوم، كان على نفقة فهد البسام. في هذه المناسبة وبسبب مناورة ـ ربما متعمدة ـ من محمد السليمان، لم يُترك لفهد أي خيار إلا أن يجلس بجواري، بل إنه تمادى بعيداً ليختار أفضل لقيمات من هنا وهناك ليضعها من نصيبي في الصحن، ولكن، بدقة كما لاحظت لم أره يأكل من أي من الأطباق التي تدخل فيها أصابعي. قد يكون ذلك عرضياً، بيد أنني عندما سألته إذا كان من الممكن أن ألتقط صورة شمسية له

رفض بحجة أن ذلك سيكون حراماً. وأردف قائلاً: «ولكني أبغي صورة لصلاة العيد». إن دينه كان بالتأكيد عثمانياً أكثر منه وهابياً في ملامحه[١]، ونظرته السياسية كانت تركية أكثر منها عربية في مظهرها، فلقد كان أخوه محمد في ذلك الوقت ـ كما لا يزال إلى الآن ـ واحداً من كبار تجار دمشق، حيث، طبقاً لما قاله فهد، كان يأوي جواسيس إنجليز.

إن عائلة البسام كانت تؤيد ابن رشيد في أيام الصراع على القصيم بينه وبين ابن سعود، ولكن فهداً نفسه نأى عن تلك الخيانة؛ لأنه بلا شك قد أقنع نفسه بطريقة تتم عن الدهاء باحتمالات النجاح لأي من الجانبين. وظل مخلصاً لقضية عنيزة وابن سعود، والنتيجة أنه هو وحده من بين العائلة الذي سُمح له بالبقاء بعد الانتصار النهائي للأخير، ومنذ ذلك الحين انجرف الأعضاء الآخرون من العائلة عائدين إلى ابن سعود[٢].

بناءً على اقتراح محمد السليمان ودون أن نرى أي هدف محدد من ذلك، سألت فهداً عن واحد يُقال له إبراهيم القاضي، ليس ذلك الرجل بهذا الاسم الذي قابلته ولكن ابن عمه، وكان أيضاً ابن عم رئيس الوعاظ صالح وخال فهد. وقد اشتهر بالعلم الواسع، على الرغم من أنه يقال عنه: إنه متعب ومسرف إلى حد ما في إظهار ولائه لابن سعود. إن هدف محمد الغريب نسبياً، كما علمت منه بعد ذلك كان لكي يستنبط إبراهيم ذاك أنني قد سألت عنه على أمل أن هذا الظرف قد يدفعه ليكون ودوداً معي. إن فهداً، الذي يشتهر بصورة سيئة أنه رجل فضولي من الناحية الاجتماعية كان متأكداً من أنه سوف يعرف، ولكن كل ما قاله رداً على سؤالي أن

(١) ليس هناك دين عثماني ووهابي كما ذكر فيلبي، وإنما دين الإسلام هو واحد بصرف النظر عن مكان وزمان وجنس من يعتنقه ويعمل بتعاليمه. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن الصراع بين ابن سعود وابن الرشيد على أرض القصيم، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٦٣ وما بعدها. (ابن جريس).

موضوع تساؤلي حقاً هو رجلٌ ذو علم واسع ولكنه نادراً ما يخرج من بيته. وفي ذلك طعنة خاطفة ماهرة لخطة بارعة ربما علم ما وراءها.

كان ابن عمه الشاب، عبد العزيز البسام، لحين من الدهر في سجلاتنا السوداء بسبب نشاطه في تهريب البضائع من الكويت إلى الأتراك عن طريق حائل[١]. ولقد مازحته في ذلك وذهلت من أخذه الأمر بجدية تامة، نافياً أن يكون ذلك صحيحاً. بيد أن حمداً ـ الذي أخبرني بذلك ـ قد سبب له ارتباكاً غير قليل بسرده لقصة مقابلته عبد العزيز في قافلة متجهة إلى حائل. وقد تجاهلت الموضوع عندما أقسم لي مؤكداً أن الرجل كان ما يزال في الكويت، ولكن شعرت أن فهداً لأسباب تجارية كان شديد الشغف بأن يقف موقفاً سليماً مع جميع أطراف الصراع، ولمحة خفيفة إلى أن عائلته متهمة عند بعض الجهات لا يمكن أن تسبب أذى. وعلاوة على ذلك شعرت بأنه لم يطوّر من معارفه وصلاته وخاصة عندما اشتغل بفضائح الحرب. واستفساراته الإضافية قد أظهرت للعيان المعلومات التي تقول إن نشرة إخبارية رسمية قد صدرت في الكويت تفيد أن الملك قسطنطين قد أعاده الألمان إلى منصبه قيصراً على روسيا، وإنه أعلن الحرب على الحلفاء[٢]. هذا هو الهراء الذي يسمعه المرء في تلك الأيام من أفضل الأصحاب ثقافة بعنيزة. ومن جهة أخرى، على الرغم من ذلك، إذا كان يحتفظ بمذكرات يومية كما أفعل، فإن الضحك والابتهاج سيكون في جانبه؛ لأنه أخبرني أن السيد لويد جورج (Lloyed George) قد أعرب في مكان ما عن رأيه في أن الحرب سوف تنتهي في هذه السنة، وقد رددت على ذلك مشككاً وقلت: إنها في نظري سوف تدوم أربع سنوات أخرى[١]. وقد وافق مراعاة لمشاعري بأنني كنت بلا شك على حق.

---

(١) للمزيد عن أوضاع الإنجليز والأتراك وعلاقاتهم بالجزيرة العربية، انظر: لوريمر، تاريخ البلاد السعودية، ص ٥٠١-٥٢٢، ٥٢٩-٥٣٧. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن الصراعات بين أوربا وروسيا الحرب العالمية الأولى، انظر جرانت دهارلود تمبرلي. أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلادي (١٧٨٩-١٩٥٠م) ج٢، ١٧٩ وما بعدها. لابن جريس.

(٣) فعلاً لقد استمرت الحرب العالمية الأولى أربع سنوات من عام (١٣٣٣-١٣٣٧هـ/١٩١٤-١٩١٨م) انظر: جرانت وهارلود تمبرلي، ج٢، ص ١٨٠ وما بعدها (ابن جريس).

بعدما عملنا تحويلة في طريق عودتنا للبيت لمشاهدة الخيول، التي كانت في بعض الحقول وراء ملح عدت قرب الغروب لأجد عتيقاً الصغير مرتدياً جميع ملابس العيد المبهرجة ومحاطاً بسرب من الفتيات الصغيرات في مثل عمره يلعبون لعبة ما، كان يبدو فيها أنه البطل. حياني بالضحك المرح عند رؤيتي، وواصلت سيري حتى صعدت للسطح حيث وجدت الدكتور عبد الله هناك يحملق بشوق حزين في المشهد الخالي من المتع البالغة بالحسناوات الثلاثة. وفي الحقيقة لم يرجع خالي الوفاض تماماً؛ لأن البنات الثلاثة مصحوبات برابعة قد ظهرن بالفعل للحظات قليلة. وقال إنهن عرضن عليه إشارات وتكلمن معه بصوت عال على الرغم من أنه لم يستطع أن يسمع ما قلنه. كانت الرابعة على ما يبدو الأخت الكبرى للثلاث الأخريات، والتي منذ سنوات كانت زوجة جارنا الملاصق لنا، الثمانيني عبد العزيز ابن ميمان. ولدى هذا الأخير من قبل زوجتان طاعنتان في السن، ولكن الفتاة، التي كان عمرها في ذلك الحين حوالي ستة عشر أو سبعة عشر ربيعاً فقط، قد فرضت فوراً على الأخريات الاعتراف بحقوقها ومركزها وقدمت لزوجها إنذاراً، كان من نتيجته أن الزوجتين القديمتين قد طردتا من البيت.

هذه هي المأساة العظمى في شرائع الزواج الإسلامية، ترك النساء المنبوذات بلا مال أو وسيلة تمكنهن من العيش عندما تنقطع عن خدمة الغرض الرئيس الذي من أجله تزوجهن الرجال[1]. واللاتي بلا أطفال عندما يأتي دورهن يستحققن فعلاً الشفقة والرثاء. ومرة أخرى في المساء التالي اكتشفت أنا والدكتور عبد الله أن السيدات الشابات لم ينسيننا بالمرة، على الرغم من أنه في هذه المرة كانت واحدة فقط منهن، أصغرهن على ما يظهر، مجرد صبية في الثالثة عشرة من عمرها وآخر

(١) الشريعة الإسلامية سمحت للرجل أن يجمع بين أربع زوجات في وقت واحد، على أن يعمل بواجباته تجاههن، وعلى رأس تلك الواجبات العدل، وإذا كان لا يستطع القيام بواجبه الشرعي نحوهن، فإنه يقتصر على واحدة فقط. أما إذا كان عنده أكثر من زوجة وقصر في واجباتهن أو بعضهن فإنه يأثم على هذا التصرف، وشرائع الإسلام بريئة من سلوكه الخاطئ الذي جعله ينحرف عما نادى به القرآن الكريم والسنة النبوية. (ابن جريس).

المتزوجات قد برزت على السطح. وهي مرتدية جميع ملابس عرسها المبهرجة، عباءة بلون اللهب مع خمار شفاف من اللون البنفسجي الزاهي مُلقى بإهمال حول كتفيها حيث تخلصت منه تماماً بعد ذلك لتظهر خصلات شعرها المضفرة المتوجة برباط صغير مسطح على رأسها من الذهب والفيروز. ودون أي تظاهر بالحياء وقفت لنراها رؤية واضحة بينما هي تتجاذب أطراف الحديث مع شخص لا نراه. لقد كانت بالتأكيد فاتنة الجمال، صورة من نماذج الجمال والبهاء الشرقي، وهي تعد تقريباً طفلة بمقاييسنا.

بعد صلاة المغرب زرنا صالح الفضل وقضينا ساعة سارة في مجلسه الخارجي. وبعد دورة من القهوة قدموا لنا شربات بطعم التوت في كؤوس زجاجية طويلة موضوعة على صينية نظيفة من الخزف الأبيض لها حافة من النيكل. وقُدّمت فوط بيضاء نظيفة لكل واحد منا لكي يمسح فيها يديه وشفتيه، وتلا ذلك شرائح البطيخ والذي قُدّم بنفس مراعاة أصول النظافة. إن زوجة صالح، على الرغم من أنها هي نفسها من عنيزة، إلا أنها قضت أعواماً كثيرة في المدينة ولم تنس الدروس التي تعلمتها في المجتمع التركي الراقي في ذلك البلد[1]، إن المستوى العام لربات البيوت رفيعٌ في عنيزة، على الرغم من وجود بعض الاستثناءات التي يجدر ذكرها، إلا أن بيت صالح كان بلا ريب المثال بين البيوت. كانت مصابيح ديتز (Dietz) واللمبات الأخرى ذات الكرات الزجاجية توجد بصورة شائعة في تلك البيوت، ولكن النوع

(١) ما من شك في أن عادة صنع الطعام والشراب في الحجاز كانت أفضل من حيث الجودة والنوعية، وذلك مقارنة بأي جزء من أجزاء الجزيرة العربية، والسبب في ذلك يعود إلى عدة أمور منها:

أ - بلاد الحجاز، كونها أرض الحرمين الشريفين، يرتادها عناصر بشرية مختلفة من جميع أقطار الأرض، وكل عنصر يحمل معه ثقافات وأعرافاً تختلف مع غيره ممن شاهد ورأي بالحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وبالتالي حدث الانصهار وتبادل الخبرات المتنوعة، وكل ينعكس إيجابياً على الحجازيين أنفسهم.

ب - دخل بلاد الحجاز تحت سيطرة حكومات وحضارات مختلفة من عهد خلفاء بني أمية حتى العصر العثماني، وهذا مما جعل سكان الحجاز أحسن تقدماً وتطوراً حضارياً وغيرهم في جزيرة العرب. (ابن جريس).

المعتاد هو لمبة بلا كرة زجاجية تعمل بآلة مثل آلية تشغيل الساعات، والتي كانت كافية تماماً وتغني عن الضرورة الملحة لتبديل الزجاجات المكسورة. والمصابيح الإعصارية شائعة الاستخدام أيضاً وبكل المقاييس أفضل نوع في الاستفادة. ولم يسمع المرء أبداً على ما يبدو عن بيوت تشب فيها حرائق في تلك البلاد، على الرغم بلا شك من أن مثل هذه الحالات لم تكن غير معروفة بالمرة. إن صالحاً يُكّن على وجه الخصوص في قلبه حباً للمدينة، بل ويبدو أنه يأسف «للتحسينات» التي تمكن الأتراك من تنفيذها من ناحية توسيع الشوارع بسبب الانخفاض الكبير في عدد السكان نتيجة الهجرة وقضايا الحرب الأخرى. ويقال: إنهم سوف يمدون السكك الحديدية حتى المنطقة المجاورة مباشرة للحرم، التي قد أزالوا منها بالفعل كل "الفساد الديني". وكان الرأي العام يقول: إن فخري باشا سوف يتمكن من الصمود وعدم الإذعان إلى ما لا نهاية إلا إذا أخترقت التحصينات القوية بهجوم مفاجئ، والذي كان من غير المرجح بصورة قوية. إن فرار السكان قد نتج عنه وجود مساحة واسعة من النخيل مهملة بسبب الحاجة إلى العمال، ولعدم وجود الماء سوف تهلك تدريجياً.

في التاسع عشر من سبتمبر جاءت أولى الأخبار التفصيلية عن تحركات ابن سعود، التي سوف يرد ذكرها في القسم التالي من هذا الفصل. وفي تلك الأثناء كان واجب استضافتنا في هذا اليوم قد خُصّص لعبد الله البسام وأخيه، عبدالرحمن[1]، وأن دعوة خاصة قد أعدها لنا على هيئة زيارة «للريف».

ففي حوالي السابعة صباحاً، كنت والدكتور عبدالله مصحوبين بمحمد السليمان وابن صغير لأخيه والذي كان أبوه تاجراً في الأحساء، قد مشينا ببطء على أقدامنا عن طريق ملح، وبعدما غادرنا الضبة على يميننا، مشينا في درب غير ممهد

(١) أخوان آخران توفيا منذ اثنتي عشرة سنة وسنة واحدة على التوالي (فيلبي).

متفرع من الطريق الرئيس، وبعد مرورنا تحت قنطرة، أي قناة ماء من جذوع النخل، وصلنا إلى حديقة الرميحية. وهي بستان رائع كثيف من النخل الطويل المحمل بالثمار مع أشجار الفاكهة الغزيرة التي تنمو تحته من التين والليمون والذي يخص علي البسام، الذي قابلناه عند مرورنا خلاله. هذه الحديقة لم تكن مسورة، وكانت تجاور بستان المحيرية المسور الذي دعانا إليه عبد الله البسام للفطور. قبل دخوله، على كل حال، ملنا جانباً لنفحص مجموعة من الآبار الغارقة حتى عمق ثماني أو عشر قامات في جيب من الماء العذب وتستعمل في سقاية عدد كبير من الحدائق. كان على أحدها تركيبات علوية من عشرة دواليب، خمسة على كل جانب، ونصفها يعمل في المرة الواحدة بجر الجمال. وكانت معظم جمال عنيزة سوداء، على الرغم من أن الألوان الأخرى لم تكن غير موجودة تماماً والأكثر شيوعاً هو الكُميت الداكن.

لقد رحّب بنا عبد الله وأخوه الذي كان لقائي الثاني له قد جرى في لندن عام (١٩٢٧م)، بحرارة شديدة عند دخولنا في حديقتهما، حيث تجولنا الآن في أرجائها ونحن نشرب القهوة أو نتناول فطورنا في بيت صيفي من أغصان النخيل مع فرش من رمل أحمر ناعم من النفود ليحل محل السجاد. ومكثنا على هذا المنوال إلى أن حان الوقت لنعود أدراجنا من الطريق الشمالي في حوالي منتصف النهار.

هذه الحديقة تشتهر بأنها الأفضل في الواحة كلها، على الرغم من بعض التدهور الذي أصابها في السنوات الأخيرة؛ لأنه ذات يوم ـ كما قال عبدالله ـ يوجد هناك عدد كثيف من أشجار الفاكهة النامية تحت، كما كانت النخلات الرائعة ترتفع في صفوف هزيلة فوق غطاء من الدُخن الأخضر. وتتكون التربة من الطفل الرملي الخفيف التي تستلزم تكرار إضافة السماد[1] لها.

(١) سماد (والجمع أسماد) تعني مواد التخصيب بشكل عام، أما دمل فتنطبق فقط على روث الإبل والحيوانات الأخرى، ومياه الصرف الصحي وأقذارها تعتبر غير نظيفة ولا تستخدم. (فيلبي).

وتغطي الحديقة مساحة من ستة أجربة[١] أو ثلاثة أفدنة. وفي وسطها توجد بئر عمقها عشر قامات، يستخرج الماء منها بجر الجمال، ويُصب في حوض من الحجر، ومنه يتدفق الماء إلى حمام سباحة مسور يعكس لمسة بهيجة من الحضارة[٢]. من هنا يمر الماء على كلا الجانبين إلى خزانات طويلة مبنية من الحجر، ومنها تنقله قنوات التوزيع الصغيرة إلى كل أجزاء الحديقة. قرب المدخل يوجد صف من أكواخ الطين للعمال وعوائلهم، بينما يقوم المنزل الصيفي عند حافة النخل، المزروع في صفوف مستقيمة ويحتل حوالي ثلثي المساحة كلها، والباقي مخصص لزراعة البرسيم. ويتكون المنزل الصيفي نفسه من عدة غرف، مجلس وغرفة طعام وشقق لعبد الله وأخيه وعوائلهم عندما يخرجون للتغيير من بيتهم في المدينة[٣]. كان ابن عبد الله، محمد، يقوم بالواجب عند موقد القهوة، ولكنه خلال ذلك لم يشارك في سير عمليات الضيافة. بدأت النزهة الخلوية بتقديم البطيخ والشمام في المجلس، بعدها انتقلنا إلى غرفة الطعام للفطور، الذي يتكون من أرز مسلوق عادي ولحم ضأن مع تشكيلة من الطيور الصغيرة، تشمل الصفراء، التي كانت بلا طعم إلى حد ما، ومع كثير من أطباق اللحم الصغيرة في مرق مبهر كثيراً مثل بهارات الكيري الهندية.

وهناك طبعاً التمور بأنواع مذهلة، حوالي إثني عشر نوعاً مختلفاً، كلها من الحديقة التي كانت في الحقيقة تحتوي على حوالي ثمانية وعشرين نوعاً مختلفاً.

---

(١) الجريب من الطعام والأرض، يقول الأزهري: الجريب من الأرض مقدار معلوم الذراع والمساحة وهو عشرة أقفزة، كل قفيز منها عشرة أعشراء، فالعشير جزء من مائة جزء من الجريب، وقيل: الجريب من الأرض نصف الفنجان. للمزيد انظر: ابن منظور. لسان العرب (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م٩ ج٢ ص٢٢٨. (ابن جريس).

(٢) عرفت معظم أجزاء الجزيرة العربية طريقة رفع المياه من الآبار بواسطة الجمال والأبقار، وأحياناً الحمير منذ عهود سابقة للاسلام، واستمر تتمارس حتى أواخر القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي). (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن أنواع العمران في بلاد القصيم خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي). انظر: الهويمل، بريدة، ص ١٧٢-١٧٧، محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ١٦٩-٢٢٦، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٧-٢٠٨. (ابن جريس).

وكان عبد الله يزعم أن هذه تمثل بالكامل الأنواع الموجودة في الواحة كلها؛ لأنه لم يُقصّر أبداً في غرسه بحديقته الخاصة أي نوع جديد جُلب إلى عنيزة، وكان هو نفسه قد استورد أنواعاً كثيرة من العراق[1]. هنا، لأول مرة في الجزيرة العربية تذوقت تمر البريم والحساوي من البصرة والبرحي من المنشأ نفسه، وأراني بفخر أول نخلة من البرحي الوحيدة التي وصلت عنيزة، جذع طويل زرع منذ خمسة وثلاثين عاماً مضت. وأقدم نخلة في هذه الحديقة كان عمرها سبعة وثلاثين عاماً، وهكذا تكون الحديقة نفسها قد برزت إلى حيز الوجود منذ عهد داوتي.

والأنواع الأخرى التي رأيتها أو تذوقتها في هذه المناسبة كان السكري، وأم الخشب، وسميت بذلك بسبب الظروف التي تستدعي دعم أعذاقها الثقيلة من الفاكهة الحمراء الكبيرة بأعمدة خشبية خشية أن تنخلع من النخلة. وهذا النوع لا يُجمع مثل التمور الأخرى؛ لأن الغصن كله يجب فصله عن النخلة وتعليقه طول فترة الشتاء، وتظل التمرة طازجة طول هذه المدة، والحلوة، والقطار، والروسينية التي تشتهر بأنها ألذها جميعاً، وهي فاكهة رقيقة ذات لون بني خفيف من الحجم المتوسط، وأم الحمام، والكثير غيرها. وخلال الحديقة كلها كنت أمشي حافي القدمين على الرمل أو الحشائش الناعمة.

في هذه المناسبة ولاحقاً على العشاء في بيتهم بالمدينة، عندما صار عبدالعزيز، الذي كان حاضراً متحمساً للموضوع، تحدثنا عن طرق ووسائل زيادة إمداد المياه، وعن المضخات التي تعمل بالمحركات وعن الآبار الارتوازية. وربما ظنوا أن زيارتي الحالية قد تؤتي ثمارها في النهاية نحو هذا الاتجاه، على الرغم من أن عنيزة في حدود علمي ما تزال تُروى بالطريقة القديمة، بينما المدينة تملك مضخاتها منذ

(١) للمزيد عن أنواع التمور في بلاد العراق، انظر: عباس الغزاوي. النخيل في تاريخ العراق (بغداد، د. ن، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) ص ١٥ وما بعدها. (ابن جريس).

سنين. وقلت مقترحاً: إنه من غير المجدي من الناحية الاقتصادية إقامة محطة ضخ لحديقة صغيرة، بيد أن عبدالعزيز نظر إلى الموضوع من جهة تقليل العمل. فقال: «لماذا؟ إننا نستطيع أن نستخدمها لمدة ساعة كل يوم ونتركها عاطلة عن العمل باقي الوقت». ونصحتهم بأنه ينبغي لهم أن يختاروا ستة من الأولاد الأذكياء ويرسلوهم للهند ليدرسوا هذه الآلات، ولكنه قال: «هذا يتجاوز ذكاءنا. أنتم أيها الإنجليز مفعمون بالحيوية والطاقة، ولكننا مجرد قوالب من الطين إن العرب لهم عقول، ولكنهم لا يهتمون باستخدامها».

وقد تحدثنا أيضاً عن الطب، وهو موضوع كان المواطنون الكبار في المدينة يهتمون به كلهم ولهم فيه القليل من المعرفة[1]. وقد أخذنا عبدالله للخارج لنرى منطقة مسورة ثانية يملكها على الطرف الشمالي من حديقته. وقد سمح لهذه المنطقة بأن تنمو نمواً طبيعياً بأشجار الأثل لتشكل حاجزاً واقياً ضد هجوم رمل النفود. وهنا أشار إلى عشب متمدد منخفض يسمى جلب (Jalab)، الذي كانت جذوره تغلى لتشكل دواءً مقيئاً قوياً. هذا مع نبات آخر حددهما بعد ذلك من موسوعته بأنهما كانا على التوالي (Ipecacuanha) و (Jaborandi)، منها يُستخرج Pil-ocarpin. وقال لنا إنه اكتشف بالقرب من جدة نبات الكافيين المعروف في الجزيرة العربية باسم روح القهوة، ويعتقد أنه لم يصادفه في أي مكان آخر منذ ذلك الحين. في النفود كما قال ينمو نبات يسمى (غلقة)، الذي لا يمسه أي حيوان؛ لأنه سم قاتل. وبالنسبة للداتورة فإنهم اتفقوا على أنها لا توجد على الإطلاق أو ربما نادراً جداً في نجد، واعترفوا بجهلهم التام بنبات ذكره بلجريف وقال إنه يؤدي إلى نوبات

(١) يظهر من شروحات فيلبي في أكثر من مكان من هذا الكتاب أنه يؤكد على وجود نشاطات علمية وفكرية عند أهل عنيزة. فهناك من كان يعرف بعض الأشياء عن الطب، وآخرون عن النجوم والفلك، وفئات أخرى عندها بعض المعارف تجاه التعامل مع الصناعات المختلفة، والآلات الدقيقة كالساعات وغيرها، للمزيد عن الحرف والصناعات القديمة في عنيزة، انظر: حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٤٣، السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ١٣٥-١٥٤، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٥٤-١٥٧. (ابن جريس).

من القهقهة في أولئك المتهورين الذين يجربوه[١]. ولقد دُهشت من رضا مضيفي بأخذ صور لهما دون أي تردد، وتركتهما في حديقتهما على أن أراهما مرة أخرى في المساء بالمدينة.

كان مجلسهما كبيراً ذا جدران طينية جرداء ومتسخة نسبياً بالسخام من أثر الدخان، لا لياسة ولا محاولة في الزخرفة المعتادة، وكان فهد موجوداً أيضاً وجلس مرة أخرى بجواري، ولكنه أخذ الحذر وتعشى في بيته وتلاعب فقط بطبق من المهلبية. وبعد العشاء قدم عبدالله مجلداً مغلفاً تغليفاً جميلاً كتب فيه بخط يده، صفحة بعد صفحة، شجرة النسب الكاملة لعائلة البسام حتى اليوم، وهو موضوع كرّس له كثيراً من العناية والعمل. ولفرحتي سمح لي أن آخذه معي لأنسخ محتوياته. وتبدأ الشجرة من أصغر أعضاء الجيل الحالي إلى حمد، أول فرد من العائلة هاجر إلى عنيزة في عام (١١٧٣هـ)[٢] من وشيقر بسبب الاضطرابات المحلية. ومن هناك تتبعت الشجرة حتى بسام، الجد الأعلى الذي تسمت القبيلة باسمه، حتى تميم[٣] وتمتد بعد ذلك حتى النقطة التي يتفرع عندها الخط من السلالة التي انحدر منها النبي. وأخيراً من هناك عبر عالم من الأساطير المحضة حتى إلياس وما بعده.[٤] ومن المصادفة العجيبة أنه قال لي إنه قصر بسام في قرية بارود ليس له صلة بالعائلة، وإنما اشتق اسمه من رجل كان يسمى بذلك الاسم دون أن يكون له صلة بهم[٥].

(١) لمزيد من المعلومات عن أنواع الأشجار والنباتات في الجزيرة العربية، انظر: كتاب النبات، للدينوري بجميع أجزائه المنشورة. (ابن جريس).

(٢) (١١٧٣هـ) توافق بالميلادي عام (١٧٦٠م). (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن قبيلة تميم وفروعها ومواطنها، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٥٥، وما بعدها. (ابن جريس).

(٤) للمزيد عن قبائل نجد الكبيرة، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ٦٢، ١٣٠، ١٤٣، ١٥٥، ٢٥٩. (ابن جريس).

(٥) انظر الشجرة النسبية المنسوبة إلى آل البسام في نهاية هذا الكتاب، وهي من إعداد/عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البسام. (ابن جريس).

في طريق عودتنا من حديقة البسام وعند مرورنا خلال السوق قابلنا العجوز مقبل الذكير جالساً على العتبة المرتفعة في محل متواضع، محل عمله التجاري في بيع التجزئة، فكل صفقات البيع بالجملة تُعقد عادة هنا في البيوت الخاصة. واستجابة لدعوته سرنا إلى بيته في وقت لاحق لنلتقي مع أولاده وأخيه. وكان في تلك الجلسة الأمير السابق والأمير عبدالله نفسه، ودار النقاش على موضوع حقوق الورثة بالنسبة لوفاة حمد البسام حديثاً، الذي نشأ بعض النزاع في العائلة على عقاراته.

إن حكم الشرع بالطبع يُلتزم به هنا، والذي يعطي الثمن من جميع ممتلكات أي شخص متوفى لزوجاته الأحياء يُقسّم بينهن، ثم يُقسّم الباقي بين أولاده بمعدل سهمين لكل ولد مقابل سهم واحد لكل بنت. في القضية الحالية لم يكن هناك ورثة من الدرجة الأولى محل التساؤل، ولكن يوجد أطفال أبناء الإخوان والأخوات، ودار النزاع حول ما إذا كان للبنات من أولاد الأخوات حق في الميراث. كان المستفيدون من الذكور المحتملون يطعنون في الرأي العادل والمشهور بصورة عامة من أن البنات لهن حق في الأسهم وعلى الرغم من أن الذكور كانوا أغنياء موسرين إلا أنهم يحاولون أن يستبعدوا عشيرة من النساء الفقيرات نسبياً من أي شيء ما عدا حصة زهيدة. وتحسر الأمير السابق العجوز العطوف قائلاً: «هذه طريقة العالم، القوي لا يستحي، ولا يخاف الله، والضعيف يضرب رأسه بالجدار». في جميع مثل هذه اللقاءات كان عبد العزيز يأخذ الأسبقية دائماً على أولئك الحاضرين، وفي هذه المناسبة كان الأمير عبدالله، بعدما عُرض عليه الفنجان الثاني من القهوة قد أشار إليّ، ولكن عندما اقترب الرجل مني ليصب القهوة لي استنكرت هذا الشرف وقبل عبد الله بكلمات لطيفة الإجلال والتقدير لرتبته[1].

(١) يظهر من هذا الوصف أن فيلبي نفسه أصبح على دراية جيدة بعادات العرب في شبه الجزيرة العربية. ومن يقرأ عن رحلاته وحياته الطويلة التي قضاها تحت حماية ورعاية ابن سعود يتأكد له صحة ما ذكرنا. (ابن جريس).

هذه كانت أخلاقهم الدمثة الجليلة، نفائس فاتنة من عالم قديم. عندما ينهض المرء لينصرف يقوم المضيف يحتجزه دائماً للحظات قليلة، قائلاً «تطيب»[١]، ثم يأتي بالمبخرة[٢] ويعد الجمر والبخور[٣] بنفسه للضيوف الذين بعد هذه المراسم الجليلة يصبحون أحراراً في الانصراف[٤].

في المساء زرنا محمد بن سليمان الشبيلي، الذي، مثل ناصر ابن عمه، كان عراقياً أكثر منه نجدياً، ذا ملامح غير طبيعية نسبياً ومتذللاً وخنوعاً. لقد تزوج في بغداد عام (١٣١٨هـ)[٥] وقضى معظم عمره فيها وفي البصرة، حيث لم تكن مظلمته سوء تقدير التعويض الذي ناله مقابل أرضه، فقد كان يعتقد أنه معقول تماماً، وإنما احتلال بيت عائلته قرب جسر وايتلي (Whiteley Bridge) ويعيش في عنيزة مؤقتاً في بيت مستأجر إلى حين إعادة بناء بيته الخاص. وعلى يديه جربنا الابتعاد عن عادات نجد، فقد رش ماء الورد فوق رؤوسنا بعد تناول البطيخ والشربات الذي يبعث على الغثيان بشدة.

قضينا اليوم التالي، الجمعة، العشرين من سبتمبر، في هدوء نسبي، وكان واجب استضافتنا قد وقع على سليمان الذكير. وقبل الذهاب إليه للفطور عرجت ومحمد السليمان على سليم، الذي كان مجلسه مثالاً في النظافة والروعة. ومن بين الحاضرين أبو الفرج، وهو تاجر كبير من المدينة على الرغم من أن الحرب قد حطمته وهو مقيم هنا منذ مدة. وهناك أيضاً سليمان القبلان الذي يحتمل أن يكون زوجاً لواحدة من الجميلات الثلاثة، ولكنه ظل صامتاً تماماً. وكان يحيى بن سليم ذو

---

(١) خذ البخوب (فيلبي).

(٢) مدخن (فيلبي).

(٣) عود (فيلبي) أي عود البخور الذي يبخر به الضيف. (ابن جريس).

(٤) وعادة البخور عند سكان المملكة العربية السعودية ما زالت تمارس بشكل كبير في كثير من المناسبات الاجتماعية (ابن جريس).

(٥) (١٣١٨هـ) يوافق هذا التاريخ بالميلادي عام (١٩٠٠م) (ابن جريس).

السنوات الثلاثة يجلس بجواري، ولأنني في يوم أمس كنت رأيت خالداً، ابن الأمير السابق، وعمره ثماني سنين، وسمعت منه أنه قد تلقى لتوه أول درس له في الرماية، فقد سألته إن كان يستطيع أن يرمي. ودار الحديث على البنادق وصيد الطرائد. وطبقاً لما قاله سليم لم يؤد التقصير والتخفيض التدريجي للبندقية العسكرية الطويلة إلى أي أثر يذكر في دقة السلاح، الذي تعد خفته أمراً أساسياً لأولئك الذين يحاربون على ظهور الخيل السمة الآيلة للزوال سريعاً من حياة العرب. وقلت إنني حتى الآن لم يحالفني الحظ في مقابلة أي عربي يمكن في الواقع أن نسميه رامياً ماهراً[1].

وحكى لنا قصة ذلك الشخص «بعيون حادة» الذي صادف خلال سفره مع بعض رفاقه، خمس غزلان ترعى معاً. عندئذٍ، حذر أصدقاءه بعدم الرمي مهما كانت الظروف، ثم حشى بندقيته بالذخيرة وبخمس رصاصات حمل الغزلان جميعاً في كيس. إن البندقية العسكرية البريطانية القصيرة تعرف باسم شرفا والطويلة باسم سمحة أو أم أحد عشر. وبندقية اينفيلد (Enfield) القصيرة تعرف من تاجها وتسمى «أم تاج»، بينما النموذج القديم والجديد من ماركة موسر (Mauser) يسميان على التوالي أم عشرة وأم خمسة بسبب سعة خزانة الطلقات فيهما. أما البندقية من طراز وينشستر ربيتر (Winchester Repeater) فتعرف باسم أم سبعة عشر. من بين هذه البنادق كانت أم تاج هي الأشد تقديراً ورواجاً، وتليها البندقية الجديدة من طراز موسر وبعدها الشرفا، والأخيرة تأتي هذه الأيام بصورة حصرية من الشريف الذي يسربها للبدو دون تمييز لكي يبيعوها بدورهم في الداخل. كذلك فإن موظفي الشريف أيضاً قد ربحوا أرباحاً طيبة من هذا العمل التجاري في بيع البنادق بقصد

(١) كان عرب شبه الجزيرة العربية يمارسون مهنة الصيد، وكانت البنادق من الأدوات التي يستخدمها بعض الصيادين، بل كان بعض الصيادين جيداً في الرماية وتحديد أهدافه بدقة. وكون فيلبي لم ير ويشاهد رامياً بارعاً فهذا ليس مقياساً على أنه لا يوجد في الجزيرة العربية رماة جيدون (ابن جريس).

استخدامها ضد الأتراك إلى أتباع شخص سيكون في المستقبل القريب منافساً ناجحاً لسيدهم[١]. فقبل هذا بأيام قليلة فقط تمكن رجل من عنيزة من جلب نحو عشرين صندوقاً من الذخيرة أخذها معه حتى الأحساء، وهناك وافق ابن جلوي على شرائها. وفي أثناء عملية عد محتويات الصناديق سقط الرجل الذي لابد أنه قد أجهد قلبه في نقل الصناديق الثقيلة، فجأة مع نزيف شديد من الدم ينهمر من فمه. وقد نُقل، على أمل إنقاذ حياته بعد ذلك، إلى بيت صالح السليمان ولكن ومع استمرار تدفق الدم طول الليل، لم يسترد وعيه أبداً. ورافق سليم، وهو الآن في الخامسة والثلاثين من عمره، عندما كان صبياً بقيت عائلته في الغربة عن الوطن وزاول التجارة في مسقط وخلالها في أحد المرات صاحب والده ومعهم شحنة من البنادق إلى الكويت.

على الفطور، الذي قدم في الهواء الطلق على سقف منخفض مظلل بالنخل في حديقة مجاورة، كان يحيى ومقبل حاضرين بالإضافة إلى مضيفنا. أما على العشاء فقد تشرفنا بصحبة الأمير السابق وعلي بن محمد السليمان. وهذا الأمير كنت قد زرته أثناء النهار في بيته الجديد بالشارع نفسه الذي نقطن فيه، والذي اشتراه حديثاً بغرض اقتراب زواجه. والسبب الرئيس من زيارته الحالية لعنيزة، وذلك مقابل ست مئة دولار. وهو يستحق، كما قالوا، ثمان مئة تامة، ومن السهل أن يدر إيجاراً قدره أربعون دولاراً في السنة. كانت زخرفة المجلس منمقة بآيات قرآنية متنوعة ونقش يبين التاريخ (كرونوغرام) موضحاً بالأرقام بناء البيت في (١٣٢٨هـ)[٢] .

لقد قضى علي أربعة أعوام في العمل التجاري ببومباي وستة أشهر في الجبيل وسنتين أو ثلاثة في الأحساء، حيث تعلم هناك شيئاً من تجارة اللؤلؤ. يُباع اللؤلؤ

(١) يقصد فيلبي في هذا المنافس للشريف، أي ابن سعود (ابن جريس).
(٢) (١٣٢٨هـ) تعادل بالتاريخ الميلادي (١٩١٠م) (ابن جريس).

بالوزن طبقاً لنظام معقد في تقسيم عوائد البيع بين جميع المعنيين، وأكبر منظمة مشترية تمثلها إم. روزنثال في باريس (M. Rosenthal of Paris)، التي تعرف للعرب باسم (حبيب). وحسب ما قاله كانت الجبيل قرية بدوية لها ميناء طيب، يعوقه إلى حد ما حاجز أو سد، ولكن ليس بصورة شديدة السوء مثل مدخل العقير وهي أفضل من القطيف؛ لأن فيها مياهاً عميقة تصل حتى أرصفة الميناء بدلاً من المياه الضحلة التي تستلزم استخدام الصنادل لنحو ميل تقريباً.

لقد أذاع مقبل مرة أخرى مظلمته الصغيرة المتصلة ببعض أملاكه في البحرين، والتي ذكرناها آنفاً. ففي عهد الرائد تريفور (Major Trevor)، الذي كان وكيلاً سياسياً في ذلك الحين، عُقدت اتفاقية مرضية بموجبها يمر الطريق عبر أراضيه، ومنذ ذلك الحين ظلت الأرض خالية. ومع ذلك، في الآونة الأخيرة بيعت قطعة من الأرض لأغراض البناء عليها، وظهر موظف حكومي، فارسي يخفي حقداً وضغينة لمقبل، وجدد النزاع القديم حول الطريق المنحرف، الذي كان المبنى المقترح يتعارض معه على حد زعمه.

طرح الدين موضوعاً للحديث أثناء وجبة المساء. فقال عبدالعزيز: «ألاحظ أنك تقول إن شاء الله، ولكن هذه ليست بالتأكيد طريقة الإنجليز. لقد ركبت على متن سفنكم أحياناً، وعندما كنت أستفسر عن الميعاد المتوقع لوصلونا كان الربابنة يجيبون دائماً بكبرياء من الثقة المطلقة قائلين : سنكون هناك في وقت كذا أو كذا». وشرحت قائلاً: إنه في إنجلترا توجد صيغة لاتينية بمعنى نفسه إن شاء الله ليست غير نادرة الاستخدام، وأردفت، لسعادتهم الكبيرة، أن التجربة قد علمتنا أن ننسب الطقس للإله في مثل هذه الظروف. فقال الرجل العجوز مواصلاً حديثه: «إن شاء الله سوف يصبح فيلبي مسلماً؛ لأننا لن ندعه يذهب إلى النار». فأجبت: «سوف أنتظر حتى قدوم المسيح، الذي تؤكده لنا كتبكم وإذا أكد تعاليم النبي، فسوف أنضم لكم».

فقال عبد العزيز بن بحيى: «ولكن، سيكون الأوان قد فات، لأن الخلاص والنجاح فقط لأولئك الذين وضعوا ثقتهم وإيمانهم بمحمد»[١].

إن الخوف من النار حقيقي جداً عند العربي الورع، واقتبس الأمير السابق مع حسرة الحديث الذي يذكر طوائف اليهود، والنصارى، والمسلمين، الذين قُدّر عليهم كلهم أن يذهبوا للجحيم إلا طائفة واحدة. لقد كان مسروراً حقيقة عندما وافقته في الرأي وأكملت له الاقتباس أو الاستشهاد، علامة أكيدة على أني كنت أدرس تعاليم النبي، وازداد سروراً عندما اقتبست مرة أخرى من المصدر نفسه الحديث التالي: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُنصرانه أو يهودانه أو يمجسانه»[٢]. وتحدث مقبل العجوز عن إنجيل برنابا، الذي فيه رأى نبوءة بقدوم نبي يسمى أحمد[٣]، وبلهجة رقيقة مؤثرة اقتبس قطعة طويلة من القرآن عن كهنوت عيسى. وفي أثناء اقتباسه حذف المقدمة الجوهرية :"قال الله"، وبكل حلم قبل تصحيح الأمير السابق له، وبدأ الآية كلها مرة أخرى. وكان يشير إلى تلاميذ المسيح باسم الحواريين.

بعد صلاة المغرب أنهينا أنشطة يومنا بزيارة لعبد الله ومحمد، أولاد علي الزامل، اللذين كان معهما ناصر الشبيلي. كانت عنيزة تنتظر الآن بشغف كل نتفة من الأخبار عن تقدم سير حملة ابن سعود العسكرية وفي كل اجتماع كان الموضوع يبرز على السطح. وفي أحد كتبه صادف عبد الله قطعة ذكرته بشكسبير. وسألني: «هل كان هو شكسبير الذي جاء هنا، أو ربما أخوه أو أبوه؟». لقد كانت الإشارة إلى كاتبنا المسرحي العظيم[٤].

---

(١) يتضح من هذا النقاش أن فيلبي ما زال على نصرانيته، وكان هناك من يعرض عليه الدخول في الإسلام باستمرار، حتى نجده بعد عدة سنوات من رحلة هذا الكتاب يدخل الإسلام، ويقوم بأداء جميع شعائر الإسلام. (ابن جريس).

(٢) يتضح من نقاش فيلبي مع بعض وجهاء عنيزة أنه يعرف قضايا شرعية إسلامية عديدة وردت في القرآن والسنة النبوية. (ابن جريس).

(٣) المقصود بـ (أحمد) هنا أي الرسول محمد ﷺ. (ابن جريس).

(٤) الكاتب الإنجليزي يختلف عن الرحالة شكسبير الذي قدم إلى الجزيرة العربية، وفقد حياته في معركة جراب التي كانت بين ابن سعود وابن الرشيد (ابن جريس).

تشتق عائلة سليم اسمها من الجد الأكبر لزامل، الذي كان له خمسة أولاد: عبدالله، ويحيى، وإبراهيم، ومحمد، وعلي، كان الأخير[1]، كما ذكر عبدالله، رجلاً قاسياً بلا لباقة أو حسٍ سليمٍ. ومن المفترض أن يشبه عبدالله في البنية الجسمانية زاملاً أكثر من أي فرد آخر على قيد الحياة من العائلة، ولكن عندما كان يبتسم بطريقته اللطيفة المستهجنة كنت أظن أنني أرى الابتسامة المميزة للأمير عبدالله. ومن بين أشياء أخرى أخبرني عن بعض النقوش غير العربية على وجه جرف الصفراء على اليمين من الرفيعة سنجر، ولكن لم تسنح لي أبداً فرصة فحصها بصورة صحيحة، على الرغم من أنني والدكتور عبدالله قد خرجنا إليها في رحلة غير موفقة اليوم التالي، ولم نعثر على أي شيء إلا قليل من الوسوم ونص عربي قصير أو اسماً لم نستطع أن نفك طلاسمه.

ومرة أخرى في الجلسة الصباح التالي عندما زرت، والدكتور عبد الله سليمان السعيد، الطبيب الدجال، الذي ـ مثلما فعل المرة السابقة ـ غمرنا بكرم الضيافة، وأصر على تناولنا التمر، والبطيخ، واللبن الزبادي وعلاوة عليها قدم لنا سلطانية من عصير البطيخ الذي لم أشعر بملاءمته في هذه الساعة المبكرة. وكان غازي، الحربي أحد أعضاء مجموعتي، قد أظهر في الآونة الأخيرة علامات أصابته بمس من الشيطان، ففي اليوم السابق وبعد نزاع تافه سحب سيفه على أحد الأشخاص. ويؤيد الدكتور عبد الله ومحمد السليمان بقوة فصله من الخدمة فوراً، بيد أنني اقترحت أنه سيكون من الأفضل أن نُسلمه لمضيفنا ليعالج أمره، وعلى هذا وافق سليمان بحماس. وبتواضع شديد احتج على عدم زيارة عبد الله بصورة متكررة، كما كان يأمل، وكما قال، ليزيد من معرفته الطبية بالتحدث معه، وأجاب الأخير بشيء من الفظاظة، حسبما ظننت، كما كان يفعل أحياناً عندما يكون غير مهتماً، وتدخلت

(١) الأمير المسؤول عن عنيزة أيام زيارة داوتي لها. (ابن جريس).

لإنقاذ مضيفنا قائلاً: «مهتم كانت الأسباب في أي موضوع فليس لديك ما تتعلمه من عبد الله، لأنه ليست لديه قوة ضد الجن والعفاريت». لقد سُرّ الرجل العجوز كثيراً، على الرغم من أنني اعتقدت أن بعضاً من جديته في موضوعه المفضل ربما كانت مجرد تصنع[١].

بعد ذلك قضينا الوقت قبل الغطور في المشي على مهل خلال الحدائق جنوب المدينة مباشرة. فبعدما تجاوزنا حديقة المنيحية التابعة لفهد البسام، انتهينا في حديقة كبيرة رائعة من حوالي ثمانية أو تسعة فدادين تقريباً تخص عبد الرحمن العبد العزيز الزامل، التي توجد فيها أشجار تين كثيرة، خالية في الواقع الآن من الفاكهة، وكميات من الطماطم والباذنجان[٢]. تروى هذه المنطقة من بئر عمقها حوالي (٨) أو (٩) قامات، وتمد أيضاً بالماء خزاناً طويلاً ضيقاً مبنياً من الحجر مظللاً بصف مزدوج من أشجار التين، وتجاوره حديقة تخص إبراهيم الزامل. وقال لي العامل البستاني أن أعذاق (سبائط) التمر تترك دائماً على أشجار النخل إلى أن يأتي أول وابل من المطر عندئذٍ، سواء كان ناضجاً أو لا ، يُجمع التمر ويُخزّن. إن التمر، مهما كان مستوى نضوجه لا يسقط على الأرض، وعلى قول بالجريف تتكمش قشرته فقط.

في طريقنا لبيت ناصر الشبيلي لتناول الفطور صادفنا مجموعة تعبر المجلس الصغير الذي كان فيه إبراهيم القاضي وعبد الله العلي الزامل وآخرون، الذين حصلت على إذن منهم بتصويرهم. وبعد العملية اضطررت إلى شرح عمل الكاميرا، وكان إبراهيم على وجه الخصوص مثل طفل مسرور عندما نظر من خلال فتحة

(١) للمزيد عن النواحي الصحية والممارسات الطبية في الجزيرة العربية خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، انظر: محمد مفتي، تطور الخدمات الصحية في المملكة، ص ٥ وما بعدها، بدر الربيعة، تطور الخدمات الصحية في المملكة خلال مائة عام، ص ٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للمزيد من التفصيلات عن الحياة الزراعية في بلدة عنيزة، انظر: السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٣٣، ٢٤٦، ٢٤٧، الشريف، منطقة عنيزة، ص ٩٠ (ابن جريس).

العدسة. وبدا ناصر مضطرباً إلى حد ما عندما دخلنا حيث همس بسرعة شيئاً ما في أذن محمد السليمان. وكما علمت فيما بعد فلم يكن يتوقع إلا ثلاثة منا، ولكن في سلوكه ذاك كان مخطئاً تماماً طبقاً لآداب الذوق المحلية، التي تفرض عليه واجب استضافة حاشية الضيف كلها. وتبعاً لذلك نتج تأخير طويل في تقديم الفطور على مهل، وقد كان هناك ما يكفي لإطعام خمسين شخصاً، والخوخ يشكل إضافة سارة وممتعة لقائمة الطعام الخفيفة المعادة.

سرت عائداً إلى البيت مع علي الشعثان، الذي قابلته في المجلس الكبير ووجدت فهد البسام وصالح الفضل ينتظراني أو بالأحرى ينتظران آخر أخبار الحرب، بعدما سمعا أن ساعي البريد من الكويت قد جلب لي بريداً. لم يكن هناك شيء ذو أهمية على أنني أعطيتهما نسخاً من جريدة «بصرة تايمز» باللغة العربية ليقرؤوها ويرسلوها للأمير[1]. بعد ذلك زرنا جارنا الثمانيني، عبد العزيز الميمان الذي استقبلنا بحرارة في مجلسه الرحب ولكنه بسيط، والذي كانت جدرانه مزخرفة في الجزء السفلي بالجص الأبيض المتميز بأبراج مدرجة في الجزء العلوي منه. وهناك فرق بسيط عن الزينة المعتادة بخط أبيض يمتد عند قمة الأبراج، يوحي إلى حد ما بالإفريز الموجود على واجهات البتراء. وفوق الجزء السفلي المزخرف كانت الجدران من الطين الأجرد، باستثناء نقش يبين تاريخ البناء في عام (١٣٣٤هـ)[2].

---

(١) كان المستوى الثقافي والفكري في عنيزة حسناً خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) للمزيد انظر: عبدالله الشبل. عن التعليم في عنيزة، ضمن كتاب: الملك عبدالعزيز والتعليم، تأليف عبدالله أبو راس وبدر الدين أديب، ص ٧٥، إدارة التعليم في عنيزة، نشرة عن التعليم في عنيزة عام (٥ (١٤٠٧هـ) ص أو ما بعدها، السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ١٢٤، ٢١١، محمد القاضي، روضة الناظر، ج١، ص ١٦١، ٢٦٧. (ابن جريس).

(٢) (١٣٣٤هـ) تعادل بالتاريخ الميلادي عام (١٩١٦م). للمزيد من التفصيلات عن الحياة العمرانية في عنيزة خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٩٧- ٢١٨. (ابن جريس).

أعدت القهوة بالطريقة المعتادة على الموقد، ثم جيء باثنين من الصواني للداخل، أحدهما محملة بالكؤوس الزجاجية والأخرى بثلاثة من غلايات الشاي، فالشاي، الذي أعدته خصيصاً لنا زوجته، أكبر الجميلات الأربعة، كان من نوعين، أسود أو هندي، مع آخر أبيض ويُعرف أيضاً باسم إسطنبولي؛ لأنه شاي روسي يُستورد عن طريق القسطنطينية. إن الشاي لم يستخدم بصورة منتظمة في وسط الجزيرة العربية إلا منذ نحو خمسة وثلاثين عاماً، وقبلها كان مزيج الليمون الساخن مع السكر هو الشائع. واهتمام رائع آخر من الزوجة الشابة، التي ربما كانت تعلم أو لا تعلم من هم ضيوف زوجها، هو إسقاط حزمة من المراوح من نافذة علوية غير مرئية في الفناء الذي تناثر فيه الرمل، عندئذ أحضرها مضيفنا العجوز ووزعها بيننا. لقد كان يعاني من الأكزيما أو مرض ما فظيع آخر في الجلد، وكانت يده اليمنى مسلوخة الجلد بسبب المرض وأنفه مشوه بالجرب الشنيع[1].

ورحلنا إلى الأمير عبد الله الذي وجدناه منكباً على قراءة جريدة بصرة تايمز. واعترف أنه ليست لديه فكرة واضحة جداً عن الموقع الذي ربما يكون فيه بحر قزوين، وعند ملامسة موضوع الذهب أخبرنا أنه من سنوات مضت وجد خام ذهب ذي لون أحمر متلألئ في جبل حُليطة على مسيرة يومين جنوب غرب إلى جنوب جنوب غرب من عنيزة. وكان أحد البدو كلّفه شخص ما في البصرة، قد حمل إلى هناك عدة أكياس منه، ولكن منذ ذلك الحين لم يُسمع أي شيء إضافة على ذلك عن هذا الموضوع. وفي المكان نفسه يُقال إنه توجد بقايا مدينة قديمة، ربما مركز للتعدين من عهود موغلة في القدم[1].

---

(١) كان في الماضي ينتشر بين الناس العديد من الأمراض الفتاكة التي يصعب على الإنسان أن يجد لها علاجاً مفيداً، ومن تلك الأوبئة: الجدري، والطاعون، والسل وما شابهها. (ابن جريس).

(٢) عن المعادن والتعدين في الجزيرة العربية انظر: كتاب الهمداني الموسوم بـ (الجوهرتين العتيقتين ...) . (ابن جريس).

تناولنا العشاء في بيت الشبيلي وفي أثناء مجريات الحديث عن النقوش القديمة تطوع أحدهم بمعلومات عن وجود آثار على بُعد مسافة ساعة من عنيزة، ربما في الصفراء، وهي تل يسمى قرة الكس ويقال إنه هذا التل يحتوي على غرفة أو ممر كالكهف الغائر تحت الأرض والذي ـ بدءاً من المدخل بارتفاع قامة رجل تقريباً ـ يزداد في الحجم ولم يستكشفه أحد أبداً بصورة صحيحة خوفاً من مس الشيطان أو العفاريت. وفي كل مرة تُبذل فيها محاولة لدخوله كانت المصابيح تنطفأ فجأة. وقد أعربت عن رغبتي في النجاح فيما فشل فيه الآخرون، ووعدت بفرصة لبذل محاولة، ولكن أملت الظروف علينا خلاف ذلك. فالدكتور عبدالله بعدما شعر بالتعب، لم يُرد أن يخرج للعشاء، ولكن بعد شبه موافقته على اقتراحي بأنه ليس هناك حاجة لأن يأكل بالضرورة، قرر أن يخرج معنا على أساس أنه لن يكون من اللائق لضيف ذكر أن يتخلف في البيت بعدما يغادره مضيفه وجميع أعضاء العائلة الذكور، ولا يتركوا وراءهم في البيت إلا النساء. فقلت له: «ولكن ذلك قد حدث لي في يوم الجمعة عندما خرجتم كلكم لصلاة الجمعة». فأجاب قائلاً؟ «معك، الأمر مختلف تماماً». في طريق عودتنا للبيت دخلنا لنسلم على الأمير السابق الذي لاحظنا في مجلسه أن الأمير عبد الله يجلس في أوضع مكان، وعندما ذهبت نحوه لأسلم عليه، ابتسم كما لو كان يستنكر إظهاري لأي اهتمام به في حضرة الأقدم منه في الخدمة. في مثل هذه المناسبات يأخذ كل أفراد العائلة، ومن الحاضرين أيضاً إبراهيم الحمد وسليم وعبدالرحمن أبعد الأماكن ولا يجلس مع المضيف إلا الغرباء.

كان تعدد الزوجات الموضوع الرئيس في الحديث، وجازف الأمير عبد الله برأيه في أن خسارة أوروبا للرجال خلال الحرب سوف تجبرها على التخلي عن مبدئها في أحادية الزوجات لكي تعوض النقص الحقيقي في عدد السكان، وأيضاً تحقيقاً للعدل مع النساء اللائي حرمن من جميع فرص الزواج. وسألني: «وأنتم يا أهل أوروبا ألا تمارسون تعدد الزوجات أبداً؟» وشرحت له أن هذا بيننا يعتبر جريمة

جنائية على الرغم من أنه ربما توجد حالات نادرة من الجمع سراً بين امرأتين[١]. وتدخل الدكتور عبد الله الذي ربما لم يكن في أحسن حالاته، قائلاً: «لا، إن عشرة بالمائة تماماً من السكان الذكور في إنجلترا يعيشون في حالة تعدد الزوجات». وضغطت عليه ليقدم الدليل الذي بنى عليه قوله، فاتضح أنه بين العدد الصغير جداً من الرجال الإنجليز الذين عرفهم في القسطنطينية وأماكن أخرى قبل الحرب كان هناك واحد فقط عنده أكثر من زوجة. ثم سحب التهمة على أساس أنها كاسحة بشدة. إن الفاحشة والزنا كما قيل لي ليست نادرتين جداً في نجد كما تصورت، على الرغم من أنهما لا يُرتكبان إلا بسرية تامة؛ لأن الموت لكلا الطرفين هو عقوبة اكتشافهما[٢].

وجدنا في بيت صالح الفضل في اليوم التالي فهد البسام وعلي السليمان، ابن مضيفنا، شاب رائع ذو وجاهة وسلوك رصين جداً، مقرون بنغمة خفيفة متشدقة بالكلام والتي يكون لها أحياناً سحرها الخاص. وقال فهد: إن حكايته عن دخول روسيا الحرب مرة أخرى في جانب القوى المركزية كان فقط من استنتاجه الشخصي ومن تفسير كويتي خاطئ لتقرير وكالة رويتر عن حديث لأحد الأعضاء السوفييت، الذي قال: إنه من الضروري تماماً لروسيا أن تشارك بدور فعال في الحرب. والترجمة العربية لذلك قيلت بطريقة تجعل المرء يعتقد أن روسيا قد أجبرت فعلاً على الدخول في الحرب.

وانتقلنا إلى موضوعات أخف وطأة وتبعث في النفس السرور مثل مزايا التمارين البدنية المنتظمة، التي كان بطلها عبدالله بن عبد العزيز البسام، الذي على

(١) هذا النقاش بين فيلبي وبعض أعيان عنيزة يدل على وجود نوع من الوعي الثقافي والفكري عند السكان المحليين، وإلا لما ناقشوا هذا الرحالة في أمور علمية دقيقة شاهدناها على صفحات عديدة من هذا الكتاب (ابن جريس).

(٢) الفاحشة والزنا في الشريعة الإسلامية يعاقب فاعلها بأشد العقوبات، أما في أوربا فإنها من الأعمال المستحبة والممارسة عند شريحة كبيرة جداً من المجتمع (ابن جريس).

الرغم من أنه فوق الستين بكثير، فهو يعيش في الواقع بأرض حديقته ومنها يقوم يومياً بانتظام بنزهة على القدمين في النفود المتموجة. والحديث عن السباحة التي يبدو أنهم يعنون بها الاستحمام فقط بشكل عام[١]، قد قادنا إلى قصص صيد الأسماك، وإلى أسماك القرش في شط العرب، وهكذا إلى حكاية حكاها محمد عن حوت منذ بعض سنوات مضت قد سار مسافة بعيدة حتى وصل إلى القرنة؛ ولأنه قد انحبس بسبب انحسار المد فقد أصبح تائهاً وسدّ مجرى المياه، وقد جازفت بأن عرضت شكي وقلت كيف أن الأتراك في جزء ضيق من النهر قد فشلوا عند بداية الحرب في سد القناة بإغراق السفينة إكباتانا (Ecbatana) وسفينتين أخريتين، عندئذٍ عُدّلت قصة الحوت تعديلاً طفيفاً، فالنهر، بشكل حقيقي بما فيه الكفاية، استمر في التدفق على كلا الجانبين، ولكن ممر السفن قد انسد مؤقتاً، وقتل الحوت بنار البنادق من الضفتين، وتلوث الجو برائحته النتنة إلى أن قطعوه بالمنشار وأزالوه.

في فترة العصر مشيت والدكتور عبدالله على مهل متجاوزين القاع ومتجهين نحو الغرب خلال بساتين النخيل حتى وصلنا إلى ضفة رملية عالية تشكلت في فجوة بالسور الدائري بجوار حدائق حيفا الجميلة، وهي ملك فرع يحيى من عائلة سليم، الذي كان جميع أفراده الأحياء إما في حائل أو في العراق. وبينما كنا جلوساً هناك، نتمتع براحتنا على الرمل الناعم، انضم إلينا شاب ذو وجه مرح من المزارعين، وأخذ يثرثر عن حياته. لقد كان في القنفذة عندما استولت عليها قوات الشريف[٢]، وتحدث برقة وود عن البريطانيين الذين كانت قضيتهم قضيتنا كما قال، حالنا واحد. وفي الماضي كان يزاول مهنة صيد اللؤلؤ على الساحل الشرقي، ولكن مع

(١) بعض المنازل في بلاد نجد والقصيم والحجاز كانت لا تخلو من أماكن مخصصة للاستحمام، مع أن عامة الناس في الماضي كانوا يقومون بعملية الاستحمام في العراء، أو في مكان مستتر بالمنزل. (ابن جريس).

(٢) القنفذة: ميناء على البحر الأحمر، تقع إلى جنوب مكة المكرمة بحوالي (٣٠٠) كم، وكانت من المواني الرئيسة لبلاد تهامة والسراة الممتدة من الطائف حتى أبها، وبخاصة في القرن الثالث عشر الهجري، والنصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (التاسع عشر والعشرين الميلاديين). (ابن جريس).

تدهور هذه الصناعة خلال الحرب فكر في أن يغير حياته بالخدمة لدى الشريف. ولأنه سرعان ما تعب من ذلك، فقد قرر العودة إلى أرض وطنه، التي فعلها في صحبة إبراهيم الجميعة وجماعته. وهؤلاء كانوا عائدين من جدة بعدما ودعوا القنصل المتجه إلى مصر. وذكر أنه لم يقابل هذا الأخير. وقد تركته في جهله بأنني كنت «القنصل» الذي يتحدث عنه.

وشاهدنا القوم وهم يعملون في قطع الأراضي الزراعية حولنا، بينما مجموعة من الرجال منكبة على الحفر في بقعة من الأرض نرى امرأة عجوزاً تفتح سدود قنوات الري لتنساب تيارات الماء حتى تصل البرسيم العطشان. وكانت شجيرات الباذنجان بثمارها الفاتنة ذات اللون الأرجواني الداكن تنتصب واقفة في صفوف على كلا جانبي القنوات[1]. وهناك عدد من الآبار في حالة تشغيل تام، ففرق الإبل تقودها جيئة وذهاباً على منحدراتها النساء اللائي كن يسحبن بسرعة خمرهن الساقطة عند مرورنا. وبينما كانت الشمس تغرب خلف النفود بدأنا نعود أدراجنا نحو البيت سالكين الدروب المسورة بين البساتين، وعندما وصلنا البيت، جلسنا على وجبة عائلية فوق السطح، مجرد مضيفنا ونحن، وذلك تغيير سارٌّ عن دعوات الاستضافة التي لم تتوقف في الأيام السالفة.

بعد العشاء انضم إلينا عبد الله الحمد السليم، الذي جاء ليرى ما إذا كان عند الدكتور عبد الله غسول لعيني ولده الصغير المريضتين، وجلس معنا إلى حين وقت صلاة العشاء الأخيرة. وقلت له : إننا نفكر بعد فترة وجيزة في الذهاب إلى بريدة للتغيير، كما عزمنا حقاً أن نفعل حتى نخفف عبء وجودنا على القوم الكرام في عنيزة. فأجاب «لماذا تعود بلا سبب إلى مكان تضيق فيه قلوبكم؟». وحكى لنا عن

(١) للمزيد عن الحياة الزراعية في بلاد القصيم عامة وفي مدينة عنيزة خاصة، انظر: محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ٢٧١، ٣٢٩، حافظ وهبة، جزيرة العرب، ص ٦٠ - ٦٣، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣-١٤١. (ابن جريس).

شخص بغدادي (اسمه على ما أظن ابن صالح) جاء ليستقر في نجد وحط رحاله أولاً في بريدة، التي وجدها لا تطاق تماماً، ولذلك جاء إلى عنيزة، وفي النهاية انتقل إلى الرياض، وهو يعلن بصوت عال في كل مكان يذهب إليه رأيه السلبي عن أهل بريدة على الرغم من نصيحة أصدقائه بأن يظل صامتاً إن لم يجد خيراً يقوله. هذه هي حكمة العرب، أن يتحملوا في صمت كل شيء إلا الكفر[١]. وواصل حديثه، عندما تحول الحديث إلى داوتي، قائلاً: «إننا أهل عنيزة نفخر بحق باحترام كل واحد يحترمه ابن سعود، حتى ولو خلعنا عليه العباءة من أكتافنا، بينما إذا لم ينل الشخص احترام الإمام، فإننا لا نرغب فيه، حتى لو كان والدنا. ولم يكن لخليل[٢] أن يأتي بالطريقة التي أتى بها رجلاً بسيطاً دون توصية، وإذا كنت أتيت مثله لكنا قد رفضناك. لقد جاء هوبر بأسلوب رفيع من ابن رشيد ووجد الاحترام والتقدير، مثلما وجدته أنت أيضاً، عندما جئت مثله. ولم يكن ينبغي لخليل أيضاً أن يأتي مثلنا فعلا إلا إذا كان مستعداً للنطق بالشهادتين". وحكى أيضاً عن نصراني، ربما يكون أوروبياً على الرغم من أنه لا يذكر اسمه، عاش في الرياض لعشر أو إثنتي عشرة سنة أيام فيصل، معلناً دين أجداده، بل يقدم وعظاً في المساجد ولقي الاحترام والتقدير[٣]. بعد ذلك بسنوات عندما كان ابن مانع، تاجر الخيول، يمشي في أحد شوارع بومباي قد سمع الرجل نفسه يناديه، على الرغم من أن الأخير اضطر إلى أن يتذكر تفاصيل ذكرياته قبل أن يتعرف عليه التاجر. ولقد ظننت أن هذه القصة ربما تكون صدى من بلجريف ولكن الحقائق كما قيلت لا تتناسب مع هذه النظرية.

---

(١) الكفر والشرك أعلى مراتب الخروج من ملة الإسلام، والله عز وجل يغفر ويتجاوز عن المذنب، ماعدا الشرك والكفر بالله عز وجل. (ابن جريس).

(٢) خليل: المقصود به داوتي الذي تسمى بهذا الاسم، انظر معلومات أكثر، روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ٧٧ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) هناك العديد من الأوربيين جاؤوا إلى نجد والقصيم وغيرها من أجزاء الجزيرة العربية خلال القرون الماضية، وكانوا يختلفون في أهداف رحلاتهم، للمزيد، انظر: روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ص ١١ وما بعدها، جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ص ١٩ وما بعدها. (ابن جريس).

وكان عبد الله الحمد، خلال فترة اغترابه في الكويت برفقة أعضاء آخرين من عائلة سليم وآل سعود وآل مهنا، قد رافق حملة غازية ضد العجمان والعوازم نظمها مبارك، الذي وصفه بأنه طاغية قديم. وقد تكونت ثلاثة بيارق تمثل على التوالي الكويت نفسها، وعنيزة وبريدة، وبلد الساحل الشرقي، التي مروا خلالها، وهي مليئة بمواقع آثار وواحات وقرى. وقال: «هذه هي بلد السكن القديم، بينما هنا في نجد لا يوجد شيء قديم جداً».

كان الثالث والعشرون من سبتمبر آخر يوم كامل لي في عنيزة، وبدأنا بجلسة قهوة في بيت عبد الله الحمد. ولأنه يتوقع وصولنا، فقد ترك مكان الشرف الأقرب إلى الموقد خالياً لي، ووجدت نفسي بجوار أحد أفراد عائلة الربدي من بريدة، الذي لم أكتشف هويته إلا بالصدفة من خلال ملاحظة عابرة، على الرغم من أنني أدركت أنه ليس من عنيزة وأحسست بعدم الود في تصرفه. ولم تسنح فرصة مناسبة للإعلان عن رأيي في مدينته الأصلية؛ لأن الدخول المباشر في الموضوع سوف يخالف حدود الأخلاق الحميدة؛ لذلك جلسنا معظم الوقت في صمت بليد بينما يقوم عبدالله بعمل القهوة ويعد اللبن الدافئ الذي يحل في كثير من البيوت محل الشاي في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح، فلم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة إلا بقليل. وانصب الحديث المتقطع على آخر أخبار حملة حائل العسكرية، وعلى الوقائع البعيدة في الغرب حيث أصبح الشريف مرة أخرى نشطاً بشكل مشؤوم[1].

ثم مشيت على مهل مع عايض خارجين إلى سنجر رافع لنستمتع بالرياح المنعشة من الشمال، ولكي نلتقط بعض الصور الضوئية للواحة التي ـ بسبب الضيافة النشطة قد تركتها لآخر لحظة ـ وبينما كنا على وشك أن ندخل الواحة مرة أخرى من البوابة الشرقية فقد حيانا مزارع منهمك في ري قطعة أرض مزروعة بالبطيخ

(١) للاطلاع على تفصيلات أكثر من العلاقات السياسية الحربية بين ابن سعود، والشريف، ابن رشيد، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٥٧ وما بعدها. (ابن جريس).

تسمى المغيثة خارج الأسوار مباشرة ونادى علينا: "تعالوا من خلال الخضرة"[١]، وانتقى بطيختين ناضجتين من زراعته وسلمهما لنا لنأخذهما للبيت. لقد كان يسقي حديقته الصغيرة مرتين يومياً، وهي تحتوي على أنواع من البطيخ والشمام المحلي، رديئة الطعم نسبياً، ومساحة صغيرة من نوع فريدوني الحلو ذي الأوراق الصغيرة الذي استورد أصلاً من الزبير. ومن البوابة الشرقية، أو بالأحرى ربما الجنوبية، الشرقية، دربٌ يوجد إلى ضاحية الضليعة التي تقع أمامها تماماً على الجانب الأيمن كتلة بركانية مرتفعة من الصخر الأسود توحي بوجود حديد أو فحم[٢].

بعد تناول الفطور بهدوء في البيت انطلقنا فوراً بعد الظهر لشرب القهوة مع عبدالعزيز ابن قنير، حيث فوجئنا بوصول أخبار سارة من الجبهة وخطابات من ابن سعود للأمير ولي. وقضيت باقي اليوم في إعداد رسائل وبرقيات لتذهب مع ساعي البريد إلى الكويت بأخبار أحدث التطورات، وقد كان في نيتنا مغادرة عنيزة في اليوم التالي. وفي الساعة التي تعرف باسم بين العشروين (أي بين غروب الشمس وصلاة المغرب) مشيت على مهل متجهاً إلى بيت الأمير السابق عبد العزيز لنسلم عليه سلام الوداع، ووجدنا هناك الأمير عبد الله وآخرين من العائلة. وكان هناك فرح في الخارج بأخبار "النصر"، التي جعلتني مرتاباً وأجلت تحقيق آمالي إلى يوم آخر. ولم أدرك كثيراً أن الأصدقاء الذين كانوا شديدي الكرم والذين ودعتهم بحزن حقيقي، لن يسلموا عليّ مرة أخرى إلا بعد أن تتوسع الموجة الصغيرة من النجاح الابتدائي شمالاً وغرباً لتضم الأقاليم الشاسعة من جميع أعداء العاهل الوهابي[٣].

---

(١) يقصد بـ (الخضرة) هنا: أي المنطقة الخضراء والمكسوة بغطاء نباتي أخضر في الأرض المزروعة (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن أماكن التعدين في بلاد نجد وعموم الجزيرة العربية، انظر، الهمداني، كتاب الجوهرتين، ص ٤٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) يقصد بذلك أنه لن يقابل بعض أعيان عنيزة الذين قضى معهم أوقاتاً جميلة أثناء زيارته بلادهم. وربما هذا لن يتم له إلاّ بعد اتساع نفوذ ابن سعود وضم بلاد الحجاز وبلاد الشمال من الجزيرة العربية. للمزيد عن كيفية توحيد المملكة العربية السعودية تحت لواء ابن سعود، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٣٥ وما بعدها (ابن جريس).

فقد قُدّر لنا أن نتقابل في جدة مرة أخرى في يناير ١٩٢٦ الشهر الذي مات فيه خليل ونفس الشهر الذي جلس فيه ابن سعود على العرش في مكة بصفته ملكاً على الحجاز. بحلول ذلك الوقت كانت الجزيرة العربية القديمة التي عرفها داوتي، والتي رأيتها بنفسي، قد زالت وقامت الجزيرة العربية الجديدة من الآن فصاعداً عملاقاً متجدد القوى جارياً في دربه[1]. ومن بين الأوائل الذين جاؤوا إلى هناك ليشاهدوا المعجزة، التي كنا عنها نتحدث أحياناً في عنيزة وجدنا الدليل الخائن لداوتي، إبراهيم السليم، وحفيد صديقه المخلص ذا الحديث العذب، عبدالرحمن بن عبدالعزيز الزامل.

(١) الرحالة الأجانب مثل داوتي وفيلبي وغيرهما يعدون من المصادر الجيدة التي حفظت لنا كثيراً من تراث الجزيرة العربية خلال القرون الماضية، ولا يمكن لأي باحث أن يتجاهل ما أفادونا به من معارف مع تفاوتهم في السلبيات والإيجابيات. للمزيد انظر: روبن بدول، ص ١٥ وما بعدها، جاكلين بيرين، ص ٣٨ وما بعدها. (ابن جريس).

٧ـ أول أزهار التفوق العربي

بين الفينة والأخرى خلال إقامتنا المؤقتة في عنيزة تأتينا الأخبار أو الشائعات تترى عن تقدم حملة ابن سعود العسكرية ضد الأسرة الحاكمة التي تنافسه في الشمال؛ فالحشد الأولي في الطرفية عندما غادر إلى هناك من بريدة، قد تبعه حشد آخر أشد ما يكون شبهاً بالعمل التجاري في القصيباء على الحدود الشمالية للقصيم، وهناك انضمت كتيبة الغطغط التي تأخر وصولها إلى بقية الجيش، الذي يتكون الآن من الحرس الشخصي الملكي من قوات من المدنيين قوامها حوالي ثلاث مئة رجل وسبع كتائب من الإخوان تفصيلها كما يلي:

المسلسل	اسم الكتيبة	القوة بالرجال (راكبين الإبل أو راجلين)	القوة بالخيول
١	الأرطاوية	١٠٠٠	١٠٠
٢	الغطغط	٨٠٠	١٠٠
٣	الداهنه	٧٠٠	٨٠
٤	فريثان	٧٠٠	٧٥
٥	ساجر	٥٠٠	٦٥
٦	مبايض	٥٠٠	٥٨
٧	الضيعة	٣٠٠	٥٠
٨	حرس ابن سعود الشخصي	٣٠٠	٣٠٠
٩	**المجموع**	**٤٨٠٠**	**٨٢٨**

إن قوة قوامها خمسة آلاف رجل كبيرة تقريباً بالقدر الذي يُمكنها أن تظل بصورة ملائمة في الميدان طول الوقت بالصحاري العربية. وهكذا كان ابن سعود قوياً بقدر ما يستطيع ما يتمنى لأي عملية أقل من الهجوم على حصون حائل نفسها. لقد كان هدفه الواضح أن يلقي القبض على ابن رشيد المعروف بغاراته على

قبيلة حرب، في العراء ويضطره للقتال. بهذه النية انطلق من القصيباء قبل أيام قلائل من العيد ومعه مؤن لستة أيام. وسار في اتجاه شمال ـ غرب لمسافة سبعين ميلاً في خط مستقيم حتى وصلوا إلى آبار الأجفر على بُعد خمسين ميلاً إلى الشرق تماماً من حائل، في يوم العيد نفسه (السادس عشر من سبتمبر). وكانت الدوريات (صبور) التي نشرت مبكراً في المقدمة، قد عادت في اليوم نفسه لتعلن أن العرب الذين قيل سابقاً إنهم عند مورد مياه سدر شمال أجفر قد حولوا فجأة معسكرهم إلى العدوة عند أقصى الطرف الشرقي من جبل سلمى «هجوا»[1]، قالها المطيري الذي كان هو نفسه واحداً من الدوريات وأول رسول إلى عنيزة، «وجدنا هجوجهم». ومن الأخبار ذات الأهمية القصوى التي جلبوها أن ابن رشيد نفسه يحتفل بالعيد في السبعان[2] شمال جبل سلمى وغرب العدوة، إنه لمن الواضح استطاعة ابن سعود أن يجبر خصمه على القتال، ولكن لكي يفعل ذلك كان عليه أن يقاتل وظهره إلى حائل حيث يتعرض لخطر قطع انسحابه في حالة الفشل.

في هذه الظروف عقد مجلساً للحرب سعياً منه لنصيحة كبار الرجال في قوته، وكان ابن لامي من مطير أول[3] من تكلم «بكلمات مجنحة». فقال: «لقد خرجنا من أجل شرفك ومن أجل شرف الإخوان، ومن أجل شرف القصيم. ونحن خُدامك. مُرنا ونحن نطيع". ثم وقف وتكلم الدويش: "سوف أرد نيابة عن الإخوان. إننا خرجنا لنهاجم ابن رشيد وأقسمنا ألا نعود إلا بعد أن نفعل ذلك. دعنا نتقدم ونسوي حساباتنا معه". وأجاب ابن سعود قائلاً: "إنني في الحقيقة مسرور تماماً بنصيحتكم

(١) لقد رحلوا ووجدنا (آثار) رحيلهم. (فيلبي).

(٢) قرية السبعان: تقع جنوب شرق مدينة حائل وعلى بعد (٧٥) كم، وهي في سفح جبل سلمى، وقد وصفها الرحالة الفلندي جورج اجست فالن سنة (١٢٦٢هـ/١٨٤٥م)، وذكر أن المياه فيها جارية وتنزل فيها أحياناً عائلات البدو وتقطنها لغرس النخيل وزرع الذرة. أما الرحالة لويس موزل التشيكوسلوفاكي فهو الذي زار تميم، وشيخهم خيرالله التميمي، انظر: العريفي، حائل، ص ٤٦، ٩٥، ٩٦. (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن قبائل مطير وفروعها، انظر: الحقيل كنز الأنساب، ص ١٣٦ وما بعدها. (ابن جريس).

وعواطفكم، ولكن أحذركم إننا ندخل في عمل خطير هذه المرة. أقسموا لي بالله أنكم سوف تتقادوا حيثما أقود ولن تعودوا إلا بعد أن ننته من القتال مع ابن رشيد. فليأت معنا كل من يتوق إلى الشهادة، ويستطيع الباقون أن يعودوا لزوجاتهم". عندئذ رفع الإخوان أصواتهم بالبكاء وأقسموا على الولاء حتى الموت، وهم مستعدون له فوراً بمراسم التحلل المتبادل من جميع الأخطاء التي ارتكبوها وكابدوها. وفي الختام أملى كل رجل وصيته الأخيرة وشهادته، وجمعت الوثائق وأرسلت إلى بيوتهم المختلفة[١].

قام الآن ابن سعود بتشكيل ثلاث مجموعات في الطليعة على التوالي تحت قيادة ابن أخي فهد بن معمر، وابن أخي مشاري بن مسيس من مطير، وابن أخي الفرم شيخ حرب[٢]. ولدى هؤلاء أوامر بإغراء ابن رشيد على الخروج من تحصينات قرية السبعان إما بالتحدي المباشر أو بالتظاهر بالهجوم على حائل نفسها، بينما ابن سعود يتابع القوة الرئيسة في الاحتياط ليستغل أي موقف قد ينشأ. كان رسولنا المطيري وآخرون قد تخلفوا؛ لأن ذلولهم قد انهارت وآخر مرة رأوا فيها القوة الرئيسة بعد انطلاقها في السابع عشر من سبتمبر توحي بأن ابن سعود يهدف إلى الذهاب نحو الشمال من حائل. والأخبار، بقدر ما جاءت، تبعث على الأمل بدرجة كافية، كما يبدو هناك احتمال أكيد أن ابن رشيد سوف يُجبر على القتال في العراء أو يُفصل عن حائل، التي يمكن في هذه الحالة أن يتم فتحها اعتماداً على الخيانة.

في اليوم التالي تقاطرت تفاصيل إضافية، فقد سقى ابن سعود حيواناته من بئر يسمى سدراً، وهاجم ابن رشيد مخيم قبيلة حرب في حميلية دون نجاح كبير في لحظة كانت جميع حيواناتهم في الواقع ترعى بعيداً في النفود. وخسر رجال القبيلة

---

(١) هذا المنهج الذي سلكه ابن سعود مع رجاله قبل الاشتباك مع ابن رشيد عام (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) تدل على حنكته، وسعيه إلى حفز الهمم والمعنويات عند رجاله، وبث روح الشجاعة والاستبسال في نفوسهم كي يصلوا إلى أهدافهم، ومن أهمها القضاء على ابن الرشيد (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن قبائل مطير وحرب وفروعها وشيوخها انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٣٦-١٤٣، ١٥١-١٥٥ (ابن جريس).

حوالي ثمانية أو عشرة رجال قتلى وثلاثين جملاً سلبت في هذه المناوشة، بينما تكبد ابن رشيد خسائر أكبر من ذلك إضافة إلى أنه اضطر إلى الرحيل بأقصى سرعته عندما تلقى أخباراً عن تحركات عدوه في منطقة حائل. وبالتالي كانت قبيلة حرب قادرة على استرداد إبلها المسلوبة. وبالنسبة لنا، المنتظرين على جمر الأمل في عنيزة فإن التطورات المتلاحقة تتجه بسرعة نحو الذروة. وأخيراً، في الثالث والعشرين من سبتمبر انفض واحد من مجالس القهوة المعتادة بقدوم علي الشعيثان ومعه بشرى بأن أخباراً طيبة قد وصلت من الجبهة. واضطررنا إلى أن نتمالك أنفسنا صبراً من أجل التفاصيل حتى نستطيع الوصول إلى بيت الأمير، حيث وجدنا البشير[1]، رشيد الهمزاني من شمر حامل الرسائل للأمير ولي من ابن سعود. تحتوي الخطابات على أخبار النصر ودعوة لي بالانضمام إلى المنتصر في القصيباء حيث يفضل أن يستريح مدة من الزمن مكللاً بأمجاده.

كان ابن رشيد قد نجح في دخوله حائل، وبعدما ترك الكتلة الكبرى من جيشه هناك داخل الأسوار ذهب بنفسه إلى المعقل الرهيب في معويج بقعاء على بُعد حوالي أربع أو خمس ساعات إلى الشمال الشرقي من العاصمة. وبقي ابن شريم مع أعرابه في سبعان، بينما بنو يهرف، هم قبيلة من الرعاة، يتولون بشكل عام مسؤولية قطعان ومواشي ابن رشيد. ولهؤلاء قرابة به مثل ما لفخذ الصخيل من فرع المطارفة من عنزة من قرابة مع غريمه. وكانوا يشغلون المساحة بين هذه النقاط القاصية في شبه دائرة خلف حائل، وتجمعاتهم الرئيسة في الضبعه وعكاش والسويفلة[2] وهذه

(١) الذي يجلب التنبوءات السارة. والكلمة من مبشر أي رسول. (فيلبي). والذي يجلب البشارة أو الأخبار السارة غالباً ما يُعطى بعض الهدايا من المبشرين أو المستفيدين بهذه الأخبار الحسنة، وما زالت هذه العادة سارية في المجتمعات العربية وغير العربية حتى الآن (ابن جريس).

(٢) ضاحية السويفلة: تقع أسفل مدينة حائل، وربما تكون هي الأصل في بداية مدينة حائل، وتستقر في هذه القرية الأسر المعروفة في مدينة حائل منذ تأسيسها، كأسر آل ضمار، وآل ريشان من شمر وغيرها من الأسر العريقة. انظر فهد العريفي، حائل، ص ٤٣ (ابن جريس).

الأخيرة تبعد ميلان فقط من شمال حائل. وبعدما احتفظ ابن سعود بالقوات المدنية وقوة كبرى من الإخوان في الاحتياط، أطلق عنان القسم الرئيس من المذكورين أخيراً على بني يهرف، الذين أخذوا على حين غرة تماماً في صفيلة وتكبدوا خسائر كبيرة. وقد قدرت الغنائم بألفي جمل والغنم لا تحصى. وتباهى الإخوان بالنصر حول أسوار العاصمة نفسها، التي منها أطلق عليهم النار، على الرغم من أنه يبدو أن المدفعية لم تستخدم. والسؤال الآن ماذا بعد ذلك؟ هل ينبغي تعزيز الهجوم على معقل ابن رشيد أم لا. وعُقد مجلس حرب وأعلن فيه المسلمون الفرحون بالغنائم[1] أنهم "ما رأوا ذلك"، أي أنهم لا يحبون مشهد العمل الأكثر تجهماً وصرامة المعروض عليهم الآن. واحتجوا قائلين: «ليس عندنا نزاع مع ابن رشيد شخصياً، وقد حصلنا على ما أردناه، لذا فلنعد إلى بيوتنا». كان هذا قرار المجلس. ووقع الحادث الوحيد الجدير بالإكبار في الحملة العسكرية خلال عملية الانسحاب، عندما صادف ثلاثة رجال من القوة الوهابية، الذين يعملون كقوة استطلاع في مؤخرة الصفوف، قافلة ذخيرة من خمسة أبعرة في طريقها إلى ابن رشيد. وفر الرجال الأربعة المسؤولون عنها عندما رأوهم. وقد جلبت عشرة آلاف طلقة من الذخيرة إلى معسكر ابن سعود في سدر التي قضى فيها ليلة العشرين من سبتمبر.

في اليوم التالي انتقل الجيش إلى الأجفر، وفي الحادي والعشرين ساروا عائدين إلى قصيبة. وكان رشيد، البشير، الذي أعيد ابتعاثه إلى المقدمة ليجلب لنا الأخبار، لم يستطع أن يقول شيئاً عن احتمالات المستقبل باستثناء أنه ما لم يخرج ابن رشيد للقتال من أجل استرداد حيواناته المفقودة وبالتالي يجبر ابن سعود على التوقف أو العودة لمواجهته، فإن الأخير يفكر في الانسحاب أكثر إلى الطرفية ومنها إلى بريدة.

---

(١) إن المتقاتلين من الطرفين يدينون بدين الإسلام، لكن أثناء الحروب يظهر بعض المصطلحات العسكرية والسياسية التي هدفها النيل من الخصوم بأي طريقة ووسيلة ممكنة (ابن جريس).

وهكذا سُلمت المبادرة بصورة وديعة إلى ابن رشيد، وكما برهنت الأحداث بعد ذلك كانت الفرصة العظيمة لاستئصال قوة شمر من نظام الشؤون العربية قد ضاعت، ولن تعود إلا في (١٩٢١هـ)[١]، وكما وقفت الأمور ـ على كل حال ـ كان يبدو من المرجح أن الصراع الذي بدأ بهذا الشكل للقضاء على التحدي سوف يستمر. فلقد قال الإخوان المنتصرون «وطئنا الديرة» أي أننا «وصلنا المدينة نفسها». وكان يبدو من غير المرجح أن ابن رشيد سوف يقعد هادئاً تحت وطأة الإهانة، فهذه أول مرة على الإطلاق تصل فيها أيدي أسرة آل سعود إلى أسوار المدينة منذ أن أصبحت حائل قوة مستقلة. ومن المؤكد أن ابن رشيد سوف يرسل رسلاً ليغري شمر بالقدوم من كل حدب وصوب ليستأنف القتال المتوقف. وفي خضم خيبة أملي من ضآلة النتائج التي تحققت فقد سجلت النتيجة المحزنة من أن حملتي العسكرية كانت بكل المقاييس قد انطلقت بجد وعزيمة حقيقية، ولكنها لم تعد تعتمد في استمرارها على رغبة ابن سعود في الحرب؛ ففي رأيي كان مستقبل الجزيرة العربية كله يعتمد على موضوع هذا الصراع بين نسيجين لا يتوافقان في قلبها نفسه. وإلى أن ينبض هذا القلب بصورة طبيعية وبانسجام تام مع نفسه لن يستطيع أن يأمل في السيطرة على الجنب المشلول وإنعاشه من القارة الكبرى، التي كان الأطباء، أي الأطباء البريطانيون، مشغولين في ترقيعها إلى ما يشبه الجسم الحي بالجبيرة والخياطة.

إن توحيد قسمي نجد كان خطوة جوهرية لتوحيد الجزيرة العربية، وفي هذه الأيام يُعتبر من المثير للضحك والاستهزاء الحديث عن ـ أو حتى مجرد التفكير في ـ وحدة الجزيرة العربية من ناحية الهيمنة الوهابية. ومع ذلك في سبتمبر (١٩٢٠هـ)[٢]، عندما قابلت بعد ذلك ابن سعود في العقير حيث جاء إلى هناك للاجتماع مع السير بيرسي كوكس (Sir Percy Cox)، الذي كان في ذلك الحين في

(١) هذا التاريخ (١٩٢١م) يقابل بالهجري عام (١٣٤٠هـ) (ابن جريس).
(٢) عام (١٩٢٠م) يعادله بالهجري عام (١٣٣٩هـ) (ابن جريس).

طريقه لتولي وظيفة المندوب السامي في العراق، اكتشفت أن حملة حائل قد بقيت حيث وقفت في نهاية سبتمبر (١٩١٨هـ)[١]، والعاهل الوهابي يميل إلى إثارة اعتراضات تافهة على التحيز المفرط وغير الملائم للحكومة البريطانية إلى جانب أسرة الأشراف الحاكمة[٢]، - على الرغم من تربة[٣] - أكثر من ميله إلى وضع يده على العلاج الواضح في حدود متناول يده. وقلت له في ذلك الحين إن الحكومة البريطانية لن تنظر إليك أبداً نظرة الجد إلا بعد أن تستأصل ابن رشيد وأسرة شمر الحاكمة من صورة الجزيرة العربية. فأجاب "سيكون كل شيء على ما تتمنى، إن شاء الله". وسقطت حائل في أغسطس التالي، وفي خلال ثلاثة أعوام كان ابن سعود بصورة عملية سيد الجزيرة العربية كلها[٤].

٨ ـ السير ليلاً إلى بريدة

أكدت لي دعوة ابن سعود رغبتي في مغادرة عنيزة، وتقرر أنه علينا أن ننطلق في الرحلة مبكراً قدر الإمكان في صباح الغد. وقضيت بقية اليوم في تحرير التقارير والرسائل إلى بغداد، ولكن ـ لسبب ما ـ وهو تراخي وكسل العرب الذي يتعذر تفاديه[٥]، لم يُعثر على ساع ليحملها إلى الساحل تلك الليلة، وحيث إنني لم

(١) عام (١٩١٨م) يعادله بالهجري عام (١٣٣٧هـ) (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على العلاقات بين الحكومة البريطانية والأشراف في الحجاز وموقف ابن سعود من تلك العلاقات، وبخاصة في العقد الرابع من القرن الهجري الماضي، انظر: لوريمر، تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج، ص ٥٢٩ وما بعدها، عبدالفتاح أبو علية. دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، ص ٩١، ١٧١، محمود شاكر شبه جزيرة العرب (الحجاز) (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ص ١٥٩ وما بعدها، مديحة درويش، تاريخ الدولة السعودية، ص ٧٨ وما بعدها (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين الأشراف وابن سعود في الحزمة وتربة، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ٢ ١٨١ وما بعدها (ابن جريس).

(٤) استطاع ابن سعود أن يوحد الجزيرة العربية تحت راية واحدة وأن يقضي على جميع القوى المتناحرة في البلاد، للمزيد انظر: إبراهيم عبده، إنسان الجزيرة، ص ٧٧ وما بعدها، عبدالواحد راغب، فجر الرياض، ص ٣٩ وما بعدها، فان درمولين، الملك ابن سعود، ص ٥٥ وما بعدها، إيفبيسون، ابن سعود ملك الصحراء، ص ٦٩ وما بعدها، بدر عادل الفقير، عناصر القوة في توحيد المملكة، ص ٦١ وما بعدها (ابن جريس).

(٥) يتهم فيلبي العرب بالكسل وهذا اتهام يحتاج إلى برهان مع أننا لا نقدر أن ننفي قوله فربما يكون فيه نسبة من الصحة (ابن جريس).

أكن أقدر على الرحيل إلا بعد إرسالها، فقد استيقظت في صباح الرابع والعشرين من سبتمبر وأنا عازماً على تقليد البطء المعوق لأصدقائي وعلى عدم إظهار أية لهفة على الانطلاق. وتبعاً لذلك نهضت من نومي متأخراً لأجد مقبل الكبير وصالح الفضل ينتظراني ليودعاني حيث ضيعت ساعة سارة في آخر حديث معهما.

وعند مغادرتهما ذهبت في نزهة أخيرة على الأقدام بين الحدائق البهيجة مع عبد الله الرشيد، الذي كان عن عمد يتفاداني كل هذه الأيام بسبب حبي للنزهات الطويلة، ولكنه ربما اعتقد أنه قد حان الوقت ليظهر في الصورة في آخر لحظة ليضمن أي هبة أو منحة قد تقدم من أجل الخدمات السالفة. وقادنا سيرنا إلى حديقة معاوية الخنيني، التي دخلناها مجازفة لنجد ثلاثة من أعضاء العائلة، علي وسليمان، وأولاد صالح أخي عبدالله، صديق داوتي، ومحمد بن حمد العبدالله. وقد استقبلونا بترحاب حار وعرضوا علينا الحديقة كلها، التي تمتاز عن جميع الأخريات في الواحة من ناحية أشجار الفاكهة[1]. وبعد مدة طويلة جلسنا لنستريح فترة تحت الغصون المتدلية من شجرة خوخ هائلة، وأفطرنا على الفاكهة بجوار قناة صغيرة من البئر المجاورة، التي شربنا منها ماءً بارداً بأكفنا. إن الخوخ والرمان الذي وضعوه أمامنا كان بالتأكيد أفضل ما ذقت في جزيرة العرب، وختمنا بتمر الصبيحية الذي يقطر منه العسل الحلو. كانت هذه الحديقة حوالي خمسة عشر جريباً في مساحتها، الثلث منها مخصص للنخيل، الذي يبلغ خمس مئة نخلة تقريباً وبلغ عائد إنتاجها هذا العام، باستثناء ما أخذه أصحابها والعاملون فيها لاستخدامهم الخاص، أربعة آلاف ريال، قسمت بالتساوي بين المالك والعاملين. وقسمة مشابهة للأرباح بين المالك والعاملين تنطبق أيضاً على كل إنتاج هذه الحديقة بالذات بسبب كثرة

(١) لمزيد من التفصيلات عن الزراعة في بلاد القصيم وبخاصة عنيزة وبريدة، انظر: محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ٢٧١، ٣٢٩، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣-١٤١. (ابن جريس).

إنتاجيتها غير العادية، على الرغم من أنه في معظم الحدائق كان نصيب العاملين من المنتجات الأخرى غير محصول التمر مرتفعاً بما يصل إلى الثلثين أو حتى الثلاثة أرباع. وهناك نحو مئة شجرة رمان والعدد نفسه تقريباً من أشجار الخوخ، وجميعها من الطائف، بينما كان الملاك قد استوردوا حديثاً وزرعوا ستاً من شتلات المشمش المخصوص من البصرة. بالإضافة إلى ذلك يوجد عدد كبير من أشجار الليمون والتين، والأخيرة تلقي بظلالها الوارفة على خزان مستطيل من الحجر الذي يمر من خلاله ماء البئر المبطنة بعمق تسع قامات، إلى سد صغير والذي ينساب من فوقه في شلال صغير صاف إلى قنوات الري تحته. كانت الحديقة تضج بخرير الماء الجاري وموسيقى الساقية على البئر، متعة بهيجة من جداول الماء والخضرة في كل مكان ظليل. وهناك مشهد النخيل الداكنة فوق محاصيل الذرة الصغيرة من الرقع الغنية بالبرسيم في المساحات الخالية. والملاك مسرورون بحرفتهم اليدوية، ولكن مثل آبائهم من قبلهم في عهد داوتي، ما يزالون يفكرون في أنابيب للبئر ومضخة آلية لتجعلها تصل إلى حد الكمال[1].

في طريق عودتنا مررنا على واحدة من حدائق البسام التي استأجرها الأمير عبد الله على أسس مجزية جداً تقوم على إعطاء ربع الإنتاج للمالك بينما يتكفل المستأجر بكل أعمال الصيانة. وبصرف النظر عن نصيبه المشترك بالوراثة في حديقة قرية الأمير السابق، لم يكن للأمير أية عقارات أو أراض في عنيزة. وبينما كنا نواصل طريقنا نحو البيت صادفنا جماعة عائدة من منافسة رماية في النفود هدفها قطعة من الورق مثبتة على بُعد أربع مئة ياردة. وكان مع أحدهم البندقية العسكرية البريطانية القصيرة، وآخر معه ماوسر (Mauser) الألمانية، وتقدر قيمة

(١) كان أهالي الجزيرة العربية قديماً يعتمدون على السواني في رفع المياه من الآبار لري مزارعهم، لكن منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) صاروا يمتلكون تدريجياً مضخات وآلات متنوعة تستخدم بدلاً من السواني في ري المزارع وتزويد منازلهم بالمياه المطلوبة لاستخدامهم. (ابن جريس).

الأخيرة بأحد عشر أو إثني عشر جنيهاً إسترلينياً، تقريباً ضعف ما يمكن أن تجلبه الأولى في السوق[١].

لقد قضيت باقي الظهيرة ومعظم ما بعد الظهر في قراءة ترجمة عربية لرواية جنسية فرنسية لطيفة، كنت قد وجدتها بين المجلات القليلة التي تشكل مكتبة مضيفي، ثم أعلنت أنني مستعد للانطلاق، ثم حدث التأخير الذي يتعذر تفاديه المصاحب لإحضار الإبل، وقُدّم لنا العشاء عند الساعة الرابعة عصراً، وبعد أن حُمّلت الإبل انطلقنا، دون دليل، عند الساعة السادسة إلا ربعاً.

خلال عشر دقائق كنا قد خرجنا من البوابة الشمالية وسرنا في اتجاه شمالي ـ غربي على طول درب واضح وضوحاً تاماً يمتد بين السويفلة سفيلة الطرف الشمالي من الواحة، وتلال مصابح الرملية الشاهقة على يميننا. والطريق المباشر، الذي أخطأناه نتيجة عدم وجود دليل يقع بصورة أكبر إلى اليمين، ويمتد نحو الشمال تماماً، ولكن دربنا نحو وادي الجناح كان الطريق البديل. وفي فترة قصيرة قد وصلنا إلى قنة النفود، عندئذٍ نزل الدرب بتموجات رقيقة وسط مزارع حمض وأضهر. وعلى يسارنا تقع قرى شعيب الملقاء، بينما خلفنا يوجد الجزء الأعظم لواحة عنيزة مثل زمردة داكنة في اللون، وفي الأمام تظهر أشجار نخيل الوادي. وبعد ميل من خروجنا من البوابة الشمالية مررنا على يميننا بمنخفض الروضان الضحل، وبه مجموعة من أشجار النخيل المتناثرة والأثل، وبئر واحدة وحولها بعض بقع البرسيم إضافة إلى كوخ وحيد. وبعدما سرنا مسافة قليلة إضافية، وعلى يسارنا، يقع منخفض النقرة وفيه أرض مسورة مزروعة بالبرسيم وبعض الأثل تروى من البئر. وهكذا نزلنا المنحدر إلى قاع وادي الرمة على يمين قرية وادي الجناح بحوالي مئتي ياردة.

---

(١) للاطلاع على معلومات أكثر عن الحياة التجارية في بلاد القصيم، انظر: سيد بكر. الملامح الجغرافية، لدروب الحج، ص ١٨ وما بعدها، السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ١٢١، الشريف، منطقة عنيزة، ص ١١١، ١١٣، ٢٢٤، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٤٧-١٤٩ (ابن جريس).

بحلول هذا الوقت أظلمت الدنيا، وسرنا في مسار منحرف عبر الوادي لنصل إلى الجسر حيث كنا سنسلك الطريق الرئيس من هناك، وقد كان من المستحيل التحكم في سيرنا بأي قدر من الدقة. ففي البداية سرنا في درب واضح المعالم تماماً يجري مرة بين بساتين النخيل وأخرى في العراء، ولكن سرعان ما وجدنا أنفسنا في متاهة من قنوات الري بلا مخرج واضح. هنا قررت التوقف فترة لإرسال كشافة للاستطلاع، ولكنهم لم يقطعوا إلا مسافة قصيرة حيث تم اعتراضهم، وفي نفسها اللحظة، لاح رجل بشكل غامض من الظلام ووقف على مسافة قريبة يسألنا من نحن. وصحنا رداً عليه «أصدقاء»، «تعال هنا». فصاح صوت نسائي قريب «لا تذهب يا إبراهيم». ولكنه لم يلتفت إلى زوجته القلقة واقترب منا. في اللحظة نفسها كان كشافتنا قد بثوا الذعر في جزء آخر من القرية؛ لأننا على ما يبدو كنا قد زلت أقدمنا في قرية وادي أبو علي الكبرى، وفي لحظة تحوّل جو الليل الساكن إلى صخب من عويل النساء واعتراضات الرجال الأشد فظاظة. وصرخت النسوة «جاؤونا، جاؤونا»، أي قد انقضوا علينا، ظانين أن عدواً ما، ربما واحدة من دوريات ابن رشيد، تقف على عتبات أبوابهم[1]. في غضون ذلك كان إبراهيم، الذي جاء إلينا، قد صرخ برده عليهم مؤكداً أننا مسافرون غير مؤذين، أخطأنا الطريق المستقيم. ولكن الأمر استغرق بعض الوقت إلى أن هدأ الاضطراب والهيجان، وفي الأثناء نفسها أرشدنا خلال النخيل والقنوات ووضع أقدامنا مرة أخرى على الطريق.

هذه محاذير الحياة اليومية في جزيرة العرب خلال تلك الأيام[2]. وفي الظلام ضللنا الطريق مرة أخرى، ولم يكن من السهل علينا أن نجد الجسر الذي عبرنا فوقه إلى أول جبل في نفود بريدة. وهنا، بعدما قررنا التوقف لانتظار القمر، رقدنا وارتحنا على الرمل الناعم حتى الساعة التاسعة والنصف.

(١) كان الأمن في الماضي مفقوداً، وبالتالي فعموم الأسر والعشائر تجدها مستعدة ببعض الأسلحة والأدوات الدفاعية عما قد يداهم أموالهم وأعراضهم في الليل والنهار. (ابن جريس).

(٢) كان المسافر في الماضي كثيراً ما يتعرض للاعتداء بالسلب والنهب، وأحياناً بالقتل، وسبب ذلك هو فقدان الأمن في الأوطان، وربما الجهل والجوع قد يساعدا في نشر الفوضى والاضطراب في البلاد (ابن جريس).

كان سيرنا بعد ذلك ممتعاً بعد ذلك على درب ممهد فوق قفر رملي بارد تحت ضوء القمر. في البداية تحركنا بخفة ونشاط، نتجاذب أطراف الحديث ونغني لنسيم الليل، ثم، بعدما تقدمت الساعة وتأخر الوقت، هبط علينا الصمت والسكون الذي لا يقطعه إلا حفيف أقدام الإبل. لقد كانت تجربة سعيدة أن نسير بالليل مثلما يُغرم العرب بها، وهي متعة حرصت دائماً عن عمد أن أتحاشاها لكي أرى أكبر قدر ممكن من معالم البلاد. وفي هذه المرة كنا نسير فوق أرض مطروقة بالفعل، واستطعت أن أستسلم للاستمتاع باللحظة دونما تفكير في بوصلة أو قرطاس. كان النجم القطبي يدلنا خلال الليل ونحن نمر على بساتين الخضر المظلمة والحافة السوداء لنخيل الصباخ الذي تظهر صورته في الظلام مقابل الجبل الرملي فيها[1]. وعند منتصف الليل المدينة الطينية الكبيرة نفسها تلوح أمامنا في ضوء القمر. وبعد ذلك بربع ساعة كنا نقف أمام البوابة الشرقية طالبين الدخول. «من أنتم؟». جاءنا سؤال الاعتراض الليلي من الداخل، والذي عليه أجابوا «أصحاب الإنجليزي». وحُملت البوابة للخلف لتسمح لنا بالدخول، وقد أعد الخادم الطيب شلهوب العشاء لنا. وكان علينا أن نستأنف سيرنا قبل الفجر وكم كنت سعيداً، بعدما تأكدت أن كل شيء جاهز، بأن أتمدد على سطح مسكننا لأنام ساعات قليلة[2].

٩ـ شمال القصيم

بعد الرابعة صباحاً مباشرة نهضنا من سباتنا، وبعدها بساعة تحركنا على سهل رملي يقع إلى الشمال ـ الغربي من بريدة بين النفود على اليسار وقفر البطين المكوّن من الحجر الرملي على اليمين. ولمدة نصف ساعة أو أكثر كان مسارنا يشبه ذلك

(١) للاطلاع على أسماء بعض القرى والهجر والمدن في بلاد القصيم انظر محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ٣٩٢-٣٩٣. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن جغرافية وتاريخ مدن القصيم الرئيسة مثل عنيزة، وبريدة، والرس، والبكيرية وغيرها، انظر: علي المقوشي، البكيرية، ص ١٧ وما بعدها، عبدالرزاق المسعود، الزلفي، ص ٢١ وما بعدها، عبدالله العيد، البدائع، ص ١٩ وما بعدها، محمد الربدي، بريدة جزءان، محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٥ وما بعدها (ابن جريس).

الذي سرنا فيه متجهين إلى الخبوب مارين على برج شمس المتهدم وبستان نخيل الغاف ثم انحرفنا عنه في اتجاه شمالي ـ غربي حتى دخلنا الصفراء نفسها. وهي سهل متموج منخفض قابلنا فيه عدداً غفيراً من عبادلة مطير[١] عائدين من «النصر» في حائل بحوالي مئتي جمل تمثل نصيبهم أو ما يعتقدون أنها تمثل نصيبهم من الغنائم ، حيوانات أخذوها بأنفسهم. ومن زعمائهم عليان بن ضمناء، الذي لم نره لكي نتحدث معه، وضيدان بن درويش الذي ثرثرنا معه للحظات قليلة، وكان رجلاً رقيقاً عذب الحديث في حوالي الأربعين من عمره. وقد كان ودوداً على نحو غير متوقع معي، ولم يكن هو ولا أتباعه يُعدّون بعد من الإخوان. وقد اتضح بعد ذلك أن هؤلاء القوم قد أخذوا غنائمهم دون إذن وفي سرعة شديدة من ميدان العمليات ليبعدوها عن التقسيم المعتاد للغنائم الذي تحدده أحكام الشرع. وطبقاً لذلك فإن لخزانة ابن سعود الخمس، على الرغم من حقيقة أن حكمه في مثل هذه الحالات كان بصورة عامة هو بيع نصيبه وتقسيم العوائد بين أفراد حرسه الشخصي الذين لا يتمتعون بفرص ضمان الغنيمة بأنفسهم. وهكذا كان على مطير أن تتخلى في النهاية عن جزء من غنيمتها أكبر مما لو تنازلوا عنه طبقاً للأحكام. والجماعات مثل هذه العائدة من غزوة تعرف باسم مناكف[٢].

تعود هنا الحافة الملتوية من النفود إلى حدود ربع ميل من الصفراء، وعلى مسافة بعيدة إلى اليمين ظهر جرف الوطاة[٣] الرمادي الذي يوجد على جانبه القريب شعيب وديعي الذي يمتد نازلاً نحو سهل بريدة. وهناك قصر وحيد على

(١) بنو عبداللاة (فيلبي للمزيد عن قبيلة مطر وفروعها، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٣٦ وما بعدها (ابن جريس).
(٢) منكف: تعني «أولئك الذين أعيدوا أو عادوا) (فيلبي).
(٣) جرة الوطاة: أو (جال الوطاة) ويعتبر هذا الجرف أكثر المرتفعات الصخرية قرب بريدة (١٥كم) شمال شرق. وهناك من يطلق عليه اسم (جبل الوطاة) أو جبل القويطير، انظر: محمد الربدي، بريدة، ص ٥٢ وما بعدها. (ابن جريس).

حافة النفود قريباً منه وآخر صغير على مسافة أبعد حيث تصل الرمال حتى الطريق. وأمامنا يوجد بستان نخيل الشقة ووراءها جرف يعلوه برج في الصفراء.

بعدما قطعنا سبعة أميال تقريباً من بريدة كنا قد دخلنا في منخفض رملي فيه تقع السويفلة أو القسم السفلي من قرية الشقة، وكان الجرف وبرجاه الصغيران يقعان على يميننا خلف بستان نخيل مسور بمساحة معقولة. وهناك قلة من البساتين الأصغر منه تتناثر في المساحة بين هذه القرية وقرية صغيرة بها حوالي أربع مئة نسمة، منهم العاملون في البساتين النائية، وهي عبارة عن مجموعة غير مسورة من أكواخ الطين الصغيرة، التي توجد في خارجها الكتل البيضاوية من الملح الذي يميل إلى اللون البني، والذي جُلب من ملاحات القرعاء. هذه الأخيرة كانت تتلألأ بلونها الأبيض على بعد مسافة إلى الغرب، ولم تبد لي شاسعة مثل مملحة العوشزية، على الرغم من أن ملحها يعده القصمان أفضل جودة[1].

ترتد النفود للخلف في شبه دائرة واسعة حتى جنوب منخفض السويفلة ـ القرعاء، وبينما كنا نواصل سيرنا نحو الجنوب ـ الغربي والجرف على يميننا، مررنا على مجموعة متناثرة من الأكواخ والقصور بالقرب منها أحواض مزروعة. وفي أحد الأماكن عثرنا على بركة جافة كان من الواضح أنها اصطناعية ولها ضفاف مبطنة بالحجر وقنوات مائية تصل إليها من الجرف العالي، ولا شك أنها خزان لاستخدام السكان وحيواناتهم. وبعد ذلك صعدنا مرتفعاً بسيطا من الأرض لندخل في منخفض الرفيعة أو القرية العلوية[2]، التي تطل عليها ثلاثة أبراج في الجرف. هذا

(١) لمزيد من التفصيلات عن هجر وقرى عنيزة وبريدة وما حولهما، انظر: الهويمل، بريدة، ص ٥١-٥٧، محمد الربدي، بريدة، ج٢، ٢ ٣٩٢-٣٩٣. (ابن جريس).

(٢) قرية الرقيعة: كانت من مزارع بعض أمراء بريدة في السابق مثل: حسن بن مهنا، وقد أشار إليها بعض الرحالة الغربيين، ويمر بها طريق بريدة الرياض القديم، وأصبحت الآن من الأحياء السكنية الحديثة، الهويمل، بريدة، ص ٥٢ (ابن جريس).

المنخفض مثل منخفض السويفلة، يُصرّف ماؤه في أحواض الملح التي لا يوجد مخرج منها. وقرية الرفيعة الرئيسة عبارة عن مجموعة غير مسورة من أكواخ الطين المتواضعة، وتحتوي مع القصور النائية وغيرها على نحو مئتين من السكان. وهناك قرية أخرى أصغر منها في هذا القسم مهدمة ومن الواضح أنها مهجورة، ويوجد عدد من أشجار النخيل المتناثرة على طول سفح الجرف[1].

وآخر بئر من قرية الشقة، التي تنتشر بكاملها فوق مساحة ثلاثة أميال تقريباً، يقع في رقبة واد وعر يهبط بين أجراف الصفراء من الشمال ـ الغربي باتجاه المنخفض. هنا توقفنا مدة لنتزود بالماء ونتشارك في وجبة من التمر. كانت البئر، بعمق حوالي ست قامات، توجد في بقعة مساحتها أربعة فدادين من المليسة (Mulai-sa) والقرع، وكان يجري سحب الماء بالإبل في خزان غير مبطن، ومنه تتفرع القنوات لري المحاصيل. وفي إحدى هذه القنوات كان هناك هبوط صغير ينزل منه الماء صافياً ومحدثاً خريراً ليروي محصول المليساء على مسافة منه. والتربة هنا وفي الوادي الذي مشينا عليه بعد توقفنا القصير، مكونة من الحجر الرملي الناعم ذي اللون الأحمر قليلاً مع وجود الصخر الأسود، الذي يزداد انتشاراً كلما تقدمنا في الوادي. ويبلغ عرض الوادي نحو نصف ميل يفصل بين ضفتيه المستويتين. بعد حوالي ميل في الوادي وصلنا إلى قاع أو حوض طيني مسطح، شققته الشمس وتناثرت فيه شظايا من الصخر الأسود، وهو الأول من سلسلة من مثل هذه الأحواض المسطحة التي تعرف بصورة جماعية باسم قيعان الأبلق. والاسم يعود للمبنى الوحيد المهجور المعروف بقصر الأبلق في الثاني أو الثالث من هذه المنخفضات، وقد كانت هذه في الماضي مكاناً للآبار الزراعية من النوع الصحراوي العربي المعتاد.

(١) للاطلاع على الطبيعة الجغرافية في بريدة وما حولها انظر: محمد الريدي، بريدة، ج١، ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

هذه السلسلة من الأحواض المسطحة ـ التي تتفصل عن بعضها بألسنة من الصفراء والرمل الخفيف ـ تبدو أنها تشكل امتداداً للوادي، الذي دخلناه عند بئر الشقة وكانت ضفافه مستمرة بلا انقطاع على الرغم من بُعدها كثيراً عن بعضها بنحو ستة أو سبعة أميال. وتوجد خمسة أو ستة مسطحات في مجموعها، وأكبرها يبلغ عرضه نحو ربع ميل، وبين الفينة والأخرى كنا نصادف أجزاء مما يبدو بوضوح أنه قاع جدول ماء مستمر. وينتشر الصخر الأسود بشدة، وفي بعض المناطق يبدو مثل كتل كبرى من الصخور البركانية[1]، ولكن لم يكن هناك إلا قليل مما يضفي تنوعاً على رتابة السير إلى أن وصلنا فجأة تماماً وبعد شيء من الدهشة إلى رأس الوادي، حيث وجدنا أنفسنا على حافة محيط صحراوي. فأمامنا امتد قفرٌ هائلٌ، ولا يمكن تخيله، قاحلٌ تماماً وخال من المعالم الأرضية، ومنبسطٌ إلى ما لا نهاية إلا من بعض المرتفعات التي يمكن بالكاد إدراكها. ولقد ظل هذا القفر في ذاكرتي دائماً يمثل المقت الشديد للمكان الكئيب الذي لا حياة فيه، وهو النموذج الأصلي نفسه للصحراء التامة في الخيال البشري، الذي لا يوجد منه، حتى في الجزيرة العربية إلا الشيء القليل. فقد كانت الأرض من الحصباء ذات اللون البني ـ الرمادي مثل الدبدبة التي ينتشر فيها القليل من العرفج والشيح والحشائش الذابلة، وبقع قليلة من المسطحات الطينية. وهنا لم يكن هناك شيء ينبض بالحياة إلا أرواحنا، قفر كئيب موحش يبعث في النفس الأسى. ومن السهل أن يفقد المرء حياته فيه إذا ضل عن الدرب المطروق، لأنه لا يوجد أي معلم أرضي من أي نوع للتوجه نحوه إلا قلة من أكوام الحجارة التي تنصب لتبين أماكن التخييم لقبيلة عنيزة التي تنزل أحياناً إلى هنا، مثلما فعلوا العام الماضي سعياً وراء المرعى. كل هذا القفر يعد جزءاً من البطين ويُعد بصورة عامة من مناطق قبيلة حرب[2].

---

(١) المرجع نفسه. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن الثروة الحيوانية والرعي والمراعي في بريدة وعنيزة، انظر: محمد السلمان، مدينة عنيزة، ص ١٢٣ وما بعدها، محمد الربدي، بريدة، ج١، ص ٩٣ وما بعدها (ابن جريس).

بعد أن سرنا نحو أربعة أميال بين المشهد الكئيب ظهر لنا على مسافة بعيدة إلى الشمال والشمال الشرقي خط ساحلي كما لو كان جزءاً من أرض مرتفعة، بعيداً بعيداً لدرجة أنه بدا بلا معالم واضحة. وهو في الغالب الأعم صفراء القعراء باتجاه الطرفية على الرغم من قول البعض إنها نفود الأسياح. ولقد كان بكل المقاييس دليلاً مفرحاً على الرغم من بُعده حيث واصلنا سيرنا ببطء وكآبة في القفر الذي لا نهاية له. وفي الأخير جئنا إلى نهايته بعد ستة أميال عندما عبرنا منخفضاً ضحلاً معشوشباً يتجه نحو الشمال الشرقي. وبعد نصف ساعة من ذلك، صادفنا مجموعة صغيرة من شجيرات السدر قيل إنها واحدة من مجموعات مماثلة لها تسمى بصورة جماعية روضة الدكمانية. ومن هنا إلى أن وصلنا رأس واد واسع معشوشب يسمى الخناسة بعد أن قطعنا أربعة أميال، كانت الصحراء تضج بالحياة، وتعج بحشود كبيرة من الإبل ترعى، وهي لقبيلة فرم حرب، نوق ولود، وأخرى حلوب مع صغارها التي تمرح بجوارها. وكان الأبيض والأسود هما اللونين السائدين، ولم يسبق لي أن رأيت هذا العدد من الحيوانات البيضاء مجتمعة في مكان واحد، وهذه الحيوانات العظيمة تبدو للعالم مثل الخيام البعيدة.

لقد بدأت الصحراء المنبسطة الآن تصبح أكثر خشونة وأشد تموجاً لتشكّل الخنسة التي دخلناها قرب رأسها، وسرنا نازلين بين ضفافها المنخفضة في الصفراء باتجاه شمال غرب نحو منخفض القصيباء الذي تصب فيه مياه الوادي. وبعد مسافة من نزولنا يضيق الوادي لوجود نتوءات الصفراء والصخر الأسود، التي يمر خلالها شعيب صغير عرضه نحو عشرين ياردة. وبعدما قطعنا ثلاثة أميال نزولاً في الوادي التزمنا ضفته اليسرى حيث ألقينا من قمتها نظرة رائعة على هدفنا، بستان القصيباء التي ترتفع عالياً في الجانب البعيد من السهل الطيني الكبير أمام خلفية من جرف صغير ارتفاعه (١٥٠) إلى (٢٠٠) قدم تقريباً. وعندما نزلنا نحو المنخفض أعدنا عبور قناة الخناسة، وبعدما تركنا البستان عن يسارنا، واصلنا السير طالعين ونازلين فوق الأرض الخشنة عند حافة منخفض في اتجاه قصرين يسميان

عموديات. وبعد ذلك، عندما نزلنا في سهل طيني مالح واصلنا السير لنصف ساعة أخرى حتى قصر المشقوق وبستان النخيل المسور الملحق به، حيث كان المعسكر الحربي لابن سعود ينتشر بين التلال الرملية[١].

لم يكن الوقت قد تجاوز أربعاً وعشرين ساعة إلا بقليل منذ أن غادرنا عنيزة في المساء السابق. وفي غضون ذلك الوقت قطعنا حوالي أربعة وخمسين ميلاً خلال ثلاث ساعات فقط من النوم. والإقامة الطويلة في بريدة وعنيزة قد جعلت عضلات الركوب عندي مرتخية؛ ولذلك كنت متخشباً في كل طرف من أطرافي، والألم يعتصر جسمي كله. بيد أن العادة فرضت زيارة فورية لمضيفي. وأول شخص قابلته عند دخول المعسكر كان أخاه سعوداً، الذي تقدم نحونا بترحاب شديد الود. وابن سعود نفسه يعقد مجلساً في خيمته، وعندما رآنا من خلال النظارات التي كانت دائماً جاهزة إلى جواره، أومأ إلينا بالاقتراب. ولقد حياني بحرارة شديدة، وكان من الواضح أنه في أفضل حالاته المزاجية بسبب نجاحه الأخير. وبعد ذلك بلحظة كان يطفح بالسعادة والحبور. فقد جيء بخطابات فيها أخبار، لا زالت أخباراً بالنسبة له على أننا قد سمعناها من قبل في عنيزة وهي عن هجوم شاكر الأخير على الخرمة وإبادته قوته. "لماذا"، قالها وهو ضاحك، "لماذا لم تطلقوا بنادقكم وأنتم داخلون بمثل هذه الأخبار الطيبة؟ اذهبوا، كذا وكذا وكذا، وقولوا للإخوان أن إخوانهم في الخرمة قد أبادوا جيش الشريف[٢]. وأردف قائلاً: "وقولوا لهم أنها بشارة الصاحب!!" وعلاوة على ذلك كان عندي أخبار طيبة إضافية له عن موافقة حكومتي على صرف ألف بندقية ومائة وخمسين ألف طلقة من الذخيرة وبعض الخيام له[٣].

---

(١) للاطلاع على جغرافية بلدة بريدة المتصلة بمنطقة حائل، انظر: محمد الريدي، بريدة، ج١، ص ٤٥-٥٤، ج٢، ص ٢٧١ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) عن الصراعات بين ابن سعود والشريف في بلاد الخرمة وتربة عام (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٨١-١٨٦. (ابن جريس).

(٣) عن العلاقات السعودية البريطانية أثناء توحيد أطراف المملكة، انظر: لوريمر، ص ٥٢٩-٥٣٧. (ابن جريس).

ولما كان الغروب قد دنا فقد استأذنت منصرفاً، ولأن خيمتي لم تكن قد وصلت بعد فقد تمددت على سجادة حيث بلغ مني التعب والإعياء مبلغاً، لأنام أو أغفو في هواء المساء البارد إلى أن يُؤتى بالعشاء، وقد كانت وجبة سارة من الأرز ولحم الإبل من غنائم الحرب. بعد ذلك رقدت مرة أخرى لأستأنف نعاسي ولكن أوقظت بوصول دفعتين من البريد، واحدة من الكويت والأخرى من البحرين على التوالي، اللتين لابد أنهما لم تجداني في عنيزة. وعلى عجل ألقيت لمحة على الخطابات الرسمية فلربما كان فيها شيء ذو أهمية يجب تبليغه في الحال لابن سعود، وبعدما تركت الباقي للغد، نمت مرة أخرى نوماً عميقاً ومنعشاً.

إن منطقة التلال التي كنا نخيم فيها كانت ذات مساحة عظيمة، وتشكل نتوءاً منفصلاً من الصفراء على الجهة الشرقية من حوض القصيباء، الذي يبلغ عرض الجزء الرئيس منه نحو ميل من الشرق للغرب وأكثر من ضعف ذلك في الطول، ويمتد جنوب ـ شرق مع شمال ـ غرب. ويوجد بين التلال والصفراء الغربية جرف حاد الانحدار شاهق الارتفاع، خلف واحة القصيباء نفسها، ولكنه يصبح أقل ارتفاعاً كلما امتد نحو الشمال، كما يوجد نتوء ثانوي متوسط الارتفاع نسبياً من الحوض الرئيس في اتجاه شمال ـ شمالي ـ غربي حتى نقطة على بُعد ميلين تقريباً من المشقوق، حيث ينتصب القصر وجبل السوال، بينما عند نقطة على بُعد نصف ميل جنوب ـ شرق هذا القصر يجري وادي في اتجاه شمال ـ غرب في الصفراء بين منحدرات منخفضة نحو الساقية على مسافة عدة أميال. ويبدو أنها هي الأخرى قصر تحيط به حقول زراعية. وسطح المنخفض الذي ينحدر برفق إلى الغرب والجنوب، يشبه تماماً سطح قاع في هذه المناطق مع ميل شديد إلى الملوحة، كما أنه متشقق كثيراً في بعض أجزائه بفعل مياه الفيضان.

وعلى بُعد ميلين تقريباً جنوب شرق المشقوق يوجد قصرا عموديات اللذان ذُكرا من قبل عند حديثنا عن سيرنا إلى المشقوق، التي كان قصرها الوحيد من طراز

معماري غريب وجذاب. وسبب وجوده حماية بستان مساحته ثلاثة أفدنة عند حافة منطقة التلال.[١] والبستان يُروى من عين في التلال، كما تؤخذ أيضاً إلى القصر بواسطة الكارز (Kariz) تحت الأرض فيه فتحات متتالية مغطاة بألواح من الصخر.

على بعد ميلين من المشقوق عبر السهل الطيني تقع واحة القصيباء الضئيلة المحمية من الهجمات المفاجئة من الغرب بخط من خمسة أبراج مراقبة صغيرة على طول قمة الجرف العالي خلفها. وتمتد الواحة لنحو ميل من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي مع بستان ناء وبقعة من الأثل على مسافة في الاتجاه الأخير، ولكنه هزيل بصورة مخيبة للآمال، حيث يتكون من خط ضئيل جداً ومتناثر من النخيل وليس فيه إلا قليل من البقع الكثيفة. إن موقعها عند سفح جرف شاهق يضفي بالتأكيد روعة شديدة على منظرها، وتأثير الوعورة يزداد جمالاً بالطبيعة ذات الصخور الكثيرة المتحدرة في وجه الجرف الذي تتدلى منه أغطية من فتات الصخور حتى حافة حزام النخيل. وتنعم الواحة بالعيون الكثيرة التي يتدفق منها الماء محدثاً خريراً عند مستوى سطح الأرض لينشئ جداول جارية تسقي النخيل، بينما في بعض الحالات، حيثما يكون سطح الأرض مرتفعاً أو سطح الماء منخفضاً، كانوا يلجؤون إلى الري برفع الماء. ويتراوح عمق الماء بين ثلاثة وستة أقدام[٢].

على مسافات فاصلة بين سفح الجرف وحزام النخيل توجد ثلاث قرى في الواحة الوسطى منها مدمرة تماماً، وأكبرها هي الجنوبية بينما مجموع السكان جميعاً في الواحة لا يمكن أن يتعدى خمس مئة نسمة معظمهم من العبيد أو العبيد

(١) بناء الحصون والقصور قريباً من المزارع والبساتين تكاد تكون منتشرة في عموم الجزيرة العربية بهدف استخدام مثل هذه المرافق للسكن وحماية المزارع مما قد يداهمها من بشر وحيوانات وغيرها. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن الزراعة، وطرق الري، وأنواع المزروعات في بلاد القصيم، انظر: عبدالرحمن السويداء، نجد في الأمس القريب، ص ٣٣، ٢٤٦، ٢٤٧، جاكلين بيرين، اكتشاف، ص ٣١٠، عبدالرحمن الشريف، منطقة عنيزة، ص ٩٠ (ابن جريس).

المحررين[١]. والطراز المعماري الطريف لبعض القصور مع الجرف العظيم الذي يعلوها في أحد الجوانب والنخيل على الجانب الآخر، يترك أثراً بهيجاً في النفس، ولكن ما أثّر في نفسي أكثر هو عدد القبور، فجميع الفجوات تقريباً الاثنتي عشرة أو أكثر بين الأغطية المتدلية من فتات الصخور كانت تشغلها مقابر، التي بدت أنها تفوق بجميع النسب أعداد السكان الأحياء. إن القصيباء تشتهر حقاً بعدم ملاءمتها للصحة. فقد قال أحد رفاقي: "بإذن الله، سوف ينزل عليهم المرض ويموتون عن بكرة أبيهم". ربما يعلل هذا حقيقة أن العبيد وحدهم هم الذين يقطنون المكان فيما يبدو. وقد أعارني ابن سعود حصاناً صغيراً مع سرج عربي ولجام ولكن بلا ركاب لكي أمتطيه لزيارة المكان. وتمتعنا بركوب ممتع، ولكن كان هناك شيء ما في جو القصيباء يجعل المرء سعيداً بالفرار منه. وعلى الرغم من أنني ندمت على عدم إتاحة وقت لزيارة أبراج الجبل ورؤية ما يقع خلفها، إلا أنني شعرت بالراحة الحقيقية من عبء ثقيل عندما زاد حصاني الصغير ـ بركضه نحو مقرنا ـ المسافة بيني وبين المجتمع البائس النتن حتى الموت من أجل محصول نخلات قليلة. هذه هي القصيباء، أبعد نقطة شمالية من القصيم، والحد الشمالي لجولاتي وأسفاري في الجزيرة العربية في هذا الوقت. وبعد مضي سنوات قُدّر لي أن أرى الجوف والصحراء حولها، آتياً من الشمال، ولكن حتى هذا اليوم لم يتعطف عليّ القدر بلمحة من «أرض الميعاد[٢]» في جبل شمر، وهي المنطقة التي تنصب عليها كل أفكاري وطاقاتي خلال السنة الأولى من إقامتي في الجزيرة العربية. لقد رأيت كل شيء تقريباً من أقاليم ابن سعود، كما كانت في ذلك الوقت من وادي الدواسر حتى القصيبة، ومن الشرق للغرب، بيد أن ترحالي إلى الشمال قد ترك عندي ندماً واحداً شديداً، فقد كانت العيون بعيدة عن

(١) العبد المحرر يطلق عليه أيضاً اسم (مولى) وبخاصة إذا كان من أصل غير عربي، وكتب السنن وغيرها من كتب التراث الإسلامي فصلت الحديث في الحقوق والواجبات على العبيد والموالي والأحرار. (ابن جريس).

(٢) المعلوم أن أراضي (الميعاد) في بلاد الشام ولا ندري ما هو المقصود عند فيلبي بذكر هذا المصطلح، وهويتكم عن بلاد شمر وبخاصة أرض حائل. (ابن جريس).

الدرب ولم يكن رفاقي يجازفون بالانحراف عن هذا الاتجاه خشية أن يكون محاربو ابن رشيد على درب الحرب استعداداً للقتال.

تُعدّ القوة المخيمة في المشقوق بما يتراوح بين خمسة وستة آلاف رجل، يضمون مختلف عناصر الإخوان الزيجرت[١] الخاص لابن سعود. وهو الآن قد أصدر أوامر للتجنيد العام لجميع عناصر المواطنين في وسط نجد ليواصلوا العمل الطيب الذي بدأه. وفي الأثناء نفسها خلال اليومين اللذين قضيتهما في المعسكر كان هناك نشاط كبير في جمع، واستعراض وتقسيم الغنائم التي ـ بالإضافة إلى الأغنام المذبوحة في ميدان القتال لتؤكل فوراً ـ كانت تتكون تقريباً من تسع مئة جمل موجودة فعلاً في القصيباء ونحو ثلاث مئة أخذت خلسة من قبل آسريها ليتفادوا إدراجها في المجموع العام، إضافة إلى ثلاث مئة حيوان صغير في السن. وقد خصص جمل واحد ليذبح طعاماً لكل مئة رجل؛ لأن المؤونة العامة خلاف ذلك مقصورة على التمر حيث كان الأرز للقلة فقط. وقد سقط نصف درزنة[٢] من الخيول في أيدي المنتصرين علاوة على قافلة الذخيرة المشار إليها آنفاً. والخيام، والسروج والمواد الأخرى المستولى عليها من بني يهرف قد بلغت أربعة آلاف ريال في مزاد، ونحو أربع مئة جنيه استرليني أو خمس مئة إسترليني أخذت نقداً. ولقد جاء واحدٌ من الإخوان إلى ابن سعود ومعه مائتا جنيه إسترليني في يده ليضيفها إلى المجموع العام. وسأله غير مصدق لمثل هذه الأمانة «من رآك تأخذها» فأجاب «لا أحد غير ربي»[٣].

---

(١) الزيجرات: الحراس الخاصين لابن سعود. (ابن جريس).

(٢) نصف درزن: أي ما يساوي عدده ستة، لأن الدرزن يساوي اثني عشر. (ابن جريس).

(٣) هذا التصرف يدل على إيمان صادق في قلب هذا الرجل الذي أعاد ما وجد إلى المال العام، وربما كان في جيش ابن سعود كثيرون أمثال هذا الرجل. وهذا السلوك يوحي بأن الإيمان بدأ يترسخ في قلوب الناس نتيجة لتلك الدعوة المباركة التي بدأها محمد بن عبدالوهاب في أوائل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). للمزيد عن تلك الدعوة وأهدافها، وما كانت تنادي به، انظر: محمد السكاكر، الإمام محمد بن عبدالوهاب، ص ٢٣ وما بعدها، حمد آل أبو طامي، الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ٣٤ وما بعدها (ابن جريس).

لقد قيل، في بداية هجوم الوهابيين، إن بني يهرف يظنون أن ابن رشيد هو الذي خرج عليهم لمعاقبتهم على جريمة ما. فقد صرخت امرأة عجوز من القبيلة قائلة "لماذا جئت أنت، إذاً، هكذا؟ إذا كنت قد خرجت لتعاقب، فما عليك إلا أن تعلن الحكم ونحن نسلم لكم، أنت يا ابن رشيد!؟. فقال واحدٌ من الوهابيين "ولكننا لم نأت منه، لقد جئنا باسم ابن سعود". فزعقت الشمطاء "ابن سعود!!، أه يا محمد بن رشيد!! أين، أين أنت، لترى أن حائل قد وصلت لهذا الحد!!". إن الكثير من النساء قد عثر عليهن وهن يجلسن صامتات في خيامهن. فقال لهن المنتصرون "قمن، على ماذا تجلسن؟". وقد أخذ معظم النقد بهذه الطريقة؛ لأن النساء قد دفنّ المال وقعدن عليه أملاً في إنقاذه. وكانت أكياس من الأرز عليها علامة «الكويت» قد وجدت في المعسكر، وهذا دليل دامغ ضد سالم، كما أن التمور كانت من خيبر. إن الغنائم كلها، بعد تنازل ابن سعود عن نصيبه[1]، قد قُسّمت بين الجيش، والإخوان والحضر على السواء.

خلال هذه الأيام كنت بالطبع أرى ابن سعود كثيراً في لحظات فراغه. وفي أحد هذه المرات كان لتوه يقضي في قضية عندما دخلت، ولاحظت أن المدعي، وهو واحد من الإخوان، يخاطب سيده بلا اكتراث بكلمة "يا الإمام" أو "يا أخي" ببساطة. والقضية تتعلق باسترداد مبلغ اثنين وستين دولاراً من ستة عشر مدعى عليهم مجتمعين، وقد تنازل المدعي عن مطالبة اثني عشر منهم على أساس أنهم مثله من الإخوان. ومن الأربعة الآخرين في القائمة واحد قد قضى نحبه. فقال القاضي: «أنت تقول إثنان وستون دولاراً وستة عشر مديناً». ثم قال بعد تأنٍ وتفكير: «حسناً، هذا يجعل ثلاثة دولارات على كل رجل واثنا عشر، تقول، من الإخوان، وهذا يُبقي أربعة». وقاطعه واحد من المدعى عليهم قائلاً «ولكن واحداً مات». «نعم، ولكن

(١) يتضح أن ابن سعود لم يكن هدفه الرئيس هو جمع المال، وانما كان يسعى إلى توحيد البلاد تحت راية واحدة، هي راية (لا اله إلا الله، محمد رسول الله) وقد وفته الله لهذا الهدف السامي، حتى استطاع أن يجمع شتات القبائل والبلاد تحت كلمة واحدة، وهو ما نشاهده اليوم تحت علم (المملكة العربية السعودية). (ابن جريس).

جماعتك مسؤولون عن دينه. ولكن، دعني أرى، النصيب ليس ثلاثة ولكنه أربعة دولارات ناقصاً كسراً، وأربع أربعات يساوي ستة عشر، اطرح اثنين مقابل الكسر أربع مرات. وهكذا يبقى أربعة عشر؛ لذلك ادفعوا أربعة عشر دولاراً وانتهى الأمر». وفي أحد المراحل كان هناك جدال عما إذا كان غير الإخوان أربعة فقط أو أكثر. فقال ابن سعود: «أنت قلت كانوا أربعة فقط». وردّ المدعى عليه «هم أربعة فقط؛ فواصل القاضي كلامه قائلاً: «قل: أقسم بالله أربعة فقط». فقال المدعى عليه: «أقسم بالله أربعة فقط»، وهكذا حُسمت هذه النقطة[1].

وحكى له واحدٌ من الإخوان حلماً حلم به، فقد رأى خمسة أقمار معاً في السماء، اثنان منها في الغرب لهما ضوء خافت جداً ويقتربان من الأفول وهذان هما الشريف والأتراك. وآخر كان منخفضاً وأفل تقريباً، على الرغم من أنه كان أشد بريقاً من الآخرين، في الأفق الشمالي وذلك ابن رشيد. والرابع كان يلمع ببريق شديد في السماء عند منتصف النهار، ويلقي بريقه على الأرض كلها، والقمر الخامس أيضاً واحدٌ ذو لمعان كبير يطلع بسرعة من الشرق، وهذان القمران عقدا اتفاقية صداقة لمدة مئتي عام وساد على الأرض السلام والرخاء. وقد حكى لي عن حلم آخر رآه هو نفسه. فقد رأى نفسه في السوق بعنيزة، وقد خرج ثعبان كبير ليهاجمه، والتفت ليذبحه وعندئذٍ ناداه رجل بصوت عال: "اترك الكبير وشأنه، إنه غير مؤذ، ولكن انظر إلى ذلك الصغير، اقتله أولاً، لأنه خطير ولدغته قاتلة" لذلك التفت مرة أخرى وذبح الثعبان الصغير، ثم تعامل مع الحية الكبرى على مهله. وفسر ذلك قائلاً: «ابن رشيد، هو الخطر الحقيقي، ولست أحتاج للخوف من الشريف».

وعلى الرغم من ذلك نبهني بجد إلى هذه النقطة فقال: «الشريف مجنون وسوف يجد سبباً للندم على سلوكه تجاه أهل الخرمة، لاحظ كلامي، سيكونون في الطائف منذ

(١) لمزيد من التفصيلات عن القضاء في المملكة العربية السعودية، انظر: عبدالله الزهراني، تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي (عدة مجلدات) (ابن جريس).

زمن طويل، وإذا أراد الله سوف يضعون نهاية للشريف نفسه. وبالنسبة لشاكر، إذا أمسكوا به هذه المرة فلن يفلت منهم بالتأكيد، وقد قيل إن شاكراً في هذه المرة معه مدفعان ورشاشان، اللذان على ما يظهر استولى الإخوان عليهما. وقد أكد ابن سعود أيضاً بكل قوة أن هناك تفاهماً سرياً بين الشريف وابن رشيد، فقد كان الأخير متشجعاً على مقاومة الهجوم الوهابي الذي انطلق بموافقة إيجابية من الحكومة البريطانية، وبوعود بهجوم الشريف على جناح ابن سعود. مثل هذه الاتفاقية لم تكن غير مستبعدة تماماً على الرغم من أنه في هذه اللحظة لا يوجد دليل ملموس عليها. بيد أنه من المؤكد أن العلاقات مع حلفينا العربيين الاثنين تقترب بصورة خطيرة من نقطة الانهيار، وبغض النظر عن نفور ابن سعود الأكيد والطبيعي جداً من قبول أي سلطان للشريف عليه بأي صورة من الصور، فإنني لم أستطع أن أرى أي سبب لتحميله أي مسؤولية عن تردي الأوضاع بشدة. فلم يكن المعتدي بأي حال من الأحوال، ولا يمكن أن يكون هناك شك معقول مهما كان في أن حسيناً يحاول عن عمد إثارة بعض الأعمال ـ التي في ظل الظروف المصاحبة ـ سوف تجبر الحكومة البريطانية على التدخل نيابة عنه[1]. لقد كنت في المشقوق حقاً بين جيش الرب، محاطاً بالإخوان في كل اتجاه، حتى طامي[2]، الذي كان من بين الزيجرت، قد تجنب صحبتي، وأولئك الذين أوقعهم حظهم العاثر في الالتحاق بخدمتي كان المتقون ينظرون إليهم شزراً، فلا يلقون عليهم التحية ولا يردون

(١) لمزيد من التفصيلات عن الأوضاع العسكرية في الجزيرة العربية خلال العقد الرابع من القرن الهجري الماضي، وكيف كانت الصلات السياسية بين ابن سعود في الرياض والقصيم، وابن رشيد في حائل، والشريف في الحجاز، ثم ما هو دور بريطانيا من تلك الأحداث. انظر: مديحة درويش، ص ١٩ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٦١ وما بعدها، أيف بيسون، ابن سعود، ص ٦٩ وما بعدها، إبراهيم عبده، إنسان الجزيرة، ص ٦٧ وما بعدها، لوريمر ص ٥٢٩-٥٣٧. (ابن جريس).

(٢) في الحقيقة كان طامي في حالة خزي ويخضع لحكم الفصل من خدمة ابن سعود، الذي ربما يعلل سبب تفاديه لي. وخلال العمليات الأخيرة كان يُرسل للخارج للاستطلاع ومراقبة قافلة الذخيرة من الإبل الخمسة (التي ألقي عليها القبض بعد ذلك) في طريقها إلى ابن رشيد، وبعدما فقد صوابه، أسرع عائداً إلى المعسكر وحذر ابن سعود من أن العدو قد استولى عليه بالقوة. وعندما أصبحت طبيعة التحذير معروفة ضربه ابن سعود حتى استغاث طلباً للرحمة ثم صرفه من الخدمة. هكذا اختفى طامي عن العيون في عار وشنار، ليموت بعد ذلك بسنة أو سنتين في خدمة الشريف بالمدينة. (فيلبي).

تحيتهم، وأحياناً كانوا يأتون يستكشفون حول خيامهم على أمل أن يمسكوهم وهم يدخنون[١].

وفي إحدى المرات سار اثنان من الإخوان طويلاً حيثما كان يجلس منوّر. وقال أحدهما للآخر: «هل سنلقي عليه التحية؟». فأجاب الآخر: «لا، حوّل وجهك إلى الاتجاه الآخر، إنه من جماعة الأنجريز[٢]، وهذا ليس خيراً". وهكذا مروا عليه دون أن ينظروا إليه. وفي مرة أخرى، عندما كان منوّر يمر على خيمة من خيام الإخوان، نظر داخلها وطلب جرعة من ماء. فأجابوا "لا، أنت كافر وخادم لكافر"[٣]. ورد عليهم "لم آت لأتحدث عن ذلك، إنني طلبت جرعة ماء، أعطوني أشرب". وصبوا له الماء، وبعدما شرب قال لهم: "انظروا لقد شربت من هذه السلطانية وقد جئت الآن لتوي من غمس يدي في نفس طبق الأرز الذي أكل منه الأنجريز[٤]، فمن الأفضل لكم أن تكسروا هذه السلطانية، لأنها نجسة". وقد صبوا عليه جام لعناتهم عندما مشى مبتعداً عنهم وهو يضحك بين نفسه على مزحته الصغيرة.

بالنسبة لي لم يكن عندي أي شيء أشتكي منه، وتركت وشأني في خيمتي أدخن وأنغمس في أي معصية حسب رغبتي[٥].

قرر ابن سعود، بعدما أرسل طلباته للتجنيد الجديد في القوة، أن ينتظر تعزيزاته في بريدة. وطبقاً لهذه الخطة قوض المعسكر بمشقوق وكنا نسير على الطريق مرتحلين قبل شروق شمس الثامن والعشرين من سبتمبر. وعندما سرنا جنوب شرق في منطقة من التلال المتموجة برفق تجاوزنا قصري عموديات على

(١) مضايقة الإخوان لمن كان يرافق فيلبي، كونه نصرانياً، يدل على التعصب الأعمى الذي يجعلهم ينظرون إليهم بازدراء واحتقار، مع أن الملك عبدالعزيز كان يملك إدراكاً واسعاً وثاقباً فلا يتورع من الجلوس مع النصارى والنقاش معهم، كما شاهدنا مجالسه لفيلبي في مواقع عديدة من هذا الكتاب. (ابن جريس).

(٢، ٣، ٤) يقصد بـ (الانجريزي) أو (الكافر) أي فيلبي نفسه (ابن جريس).

(٥) كان فيلبي في جميع رحلاته يتمتع بالحرية في جميع تحركاته، لأنه كان تحت حماية ورعاية ابن سعود. (ابن جريس).

يميننا وصعدنا منحدراً مطرداً مع تلال منخفضة تتقارب من كلتا الجهتين نحو فجوة في الصفراء الشرقية.

توجد حول القصرين نحو أربع مئة إلى خمس مئة خيمة تابعة لقبيلة الفرم التي بدت أنها تتناثر كيفما اتفق دون أي محاولة للنظام والتنسيق، على الرغم من أن مرور جيشنا الكبير ربما قد أدى إلى زيادة أثر الانتشار الجزافي. ولأبعد مسافة وصل إليها بصري كانت أغنامهم كلها سوداء.

إن قبيلة الفرم فرع من بني علي[١] ، الذين ينتمي إليهم أيضاً القوم من ابن شريان الذين كانوا يخيمون في ثلاث مئة خيمة تحت جبل سوال الصغير. وكانت جماعة أخرى من قبيلة حرب، من فخذ ابن سعدة من الوهوب[٢]، تتجمع أيضاً في منطقة القصيباء، ربما في ثلاث مئة خيمة في مجموعها وذلك كانت حرب ـ التي لا تعد من الجيش ـ لا تقل عن ألف خيمة، ملتزمين التزاماً تاماً بقضية ابن سعود، ويُرجّح من موقعهم الجغرافي أنهم أول من يشعر بالوطأة العظمى لأي تحرك من تحركات ابن رشيد[٣].

بعد ساعة بالضبط من مغادرتنا المعسكر وبعد تجاوزنا مباشرة تلاً مخروطي الشكل منخفضاً على المنحدر الرملي الذي يبلغ اتساعه من جرف إلى جرف نحو نصف ميل، تسلقنا بسرعة منحدراً وعراً شديد الانحدار حتى شفة قفر الصفراء، كلها ما تزال من البطين، وهو سهل رملي هائل هنا مغطى بالحصباء الوعرة وفتات الصخور.

---

(١) من بطن الكراشيف (فيلبي). بنو علي من الفروع الرئيسة لقبيلة حرب الخولانية، ومنهم فرع الجبور الذي ينتسب إليهم الكراشيف، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٥١. (ابن جريس).

(٢) الوهوب فخذ رئيس آخر من قبيلة حرب، وأغلبهم يسكنون نجد، ومن فروع هذا الفخذ، المضيخ، والخلصاء، والشراذين. للمزيد عن قبيلة حرب وفروعها ومواطنها وأصولها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٥١-١٥٥ (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين ابن الرشيد وابن سعود خلال العقد الرابع من القرن الهجري الماضي انظر: إيف بيسون، ص ١٨٥، وما بعدها، إبراهيم عبده، إنسان الجزيرة، ص ٦٧-٧٧. (ابن جريس).

إن القوم رسموا هنا صورة زاهية وهم يسيرون في جبهة لا تقل عن ميلين، والبيرق على اليسار وقليلاً في المقدمة، وابن سعود نفسه مع الزيجرت[١] في كتلة صلبة في الوسط، وجموع الإخوان على اليمين. وكان منصور بن رميح المشهور مع إخوانه في الجزيرة العربية كلها بمعرفته بالإبل، قد تبادل التحية معي في أثناء مروره. وقد قدّر قيمة الإبل التي أخذت في حائل بمبلغ ستين ألف ريال، وبهذا المبلغ انتقلت ملكيتهم إلى ابن سعود، الذي قام بتوزيع المبلغ نقداً على أفراد جيشه. وكان سعد اليميني وهو يسابق خطاه للانضمام إلى الحرس الشخصي قد أتيح له بعض الوقت خلال مروره ليحكي لي عن أعماله البطولية الفذة من البسالة في القتال الأخير، حكايته عن قتل أربعة رجال والاستيلاء على بعض الغنائم. ثم جاء الأمير الصغير، سعود[٢]، الولد الثاني للحاكم الوهابي، الذي استطعت تزويده في مخيمنا، ببعض الذخيرة لبندقية رياضية من نوع مانلشر (Mannlicher)، كانت قد نفدت منه. وأخيراً أرسل ابن سعود نفسه فهيداً للوراء ليدعوني إلى الانضمام إليه، وركبت معه في مقدمة جيشه طوال ما بقي من السير حتى توقفنا للفطور[٣].

عند الفطور احتشد الجيش في السهل المستوي مثل الجراد، ويحكى عمل مائة موقد للنيران القصة السعيدة لصنع القهوة. كانت وجبتنا من لحم الإبل البارد، والأرز والتمر. من بين الجماعة محمد آل خليفة من فرع من الأسرة الحاكمة بالبحرين والذي خلعه البريطانيون منذ زمن طويل عندما نصّبوا عيسى، الذي بدوره قُدّر له أن يكابد إهانة الخلع على أيدي الحكومة البريطانية مكافأة له على ما يزيد عن خمسين سنة من الخدمة المخلصة.

---

(١) الزيجرات: من الحراس الخاصين للملك عبدالعزيز (ابن جريس).

(٢) الآن ولي للعهد لملك الحجاز ونجد وملحقاتها. (فيلبي).

(٣) لمزيد من الإيضاح عن حملة ابن سعود ضد ابن الرشيد عام ١٣٣٦هـ/١٩١٨م). انظر: إيف بيسون ص ١٨٥ وما بعدها، إبراهيم عبده، ص ٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

إن التاريخ الحديث للبحرين لا يشكل جزءاً من موضوعي، ولكن من الصعب أن نذكر اسم حاكمها القديم دون أن نوضح أن أحداثاً قليلة في تاريخنا الاستعماري قد أعطتنا سبباً كافياً للخجل. والجزيرة العربية، وهي ترى وتفهم، لا تتعجب من خجلنا ولكن من أخطائنا الفاضحة[١]. وكان جاسم بن رواف المشتبه بخرقه للحصار، وصديقي ببريدة عباس الفلجي من بين الحاضرين، ومنصور بن رميح المذكور آنفاً، والمحارب الرهيب الحاكم لبريدة فهد بن معمر، وفيصل بن رشيد، وهو يتأمل بارتياح خبيث في الهزيمة الأخيرة لأسرة حاكمه، التي كانت امتيازاتها قد استغلها فخذه هو نفسه لمدة قصيرة منذ عقد أو ما يقرب من الزمان، وسعود آل عرفة، الذي بحكم الميلاد كان أكبر عضو في أسرة العرافة، وآخرين، ليس آخرهم المتعصب فيصل الدويش[٢].

عند انتهاء الفطور استأنف السير، وكنت قد انطلقت قبلهم لأترك لمضيفي حريته. وعندما تجاوزوني بعد ذلك بفترة قصيرة سمعت واعظ المخيم العقيري يخطب في الناس ببعض الأحاديث ليرفع روحهم المعنوية[٣]. لقد مشينا على السهل الكئيب وما به من جذور ذابلة لنباتات العرفج والشيح والعوشز، وعلى مسافة بعيدة نحو الشمال الشرقي، ربما على بُعد سبعة أميال، قطع جبل القعراء رتابة الاستواء. وخلال الربيع الماضي، كما قالوا، كانت الأمطار مواتية حيث امتلأت كل هذه المنطقة بالعشب الأخضر، والآن جف كل شيء ومات عشب سما الذي يشبه الشعير. ويُسمى الطرف الشمالي من القعراء مُدرّج.

---

(١) للاطلاع على علاقات بريطانيا مع دول الخليج العربي، انظر: ديكسون، الكويت وجاراتها، ص ٤٣ وما بعدها، الخترش، ص ٦٥ وما بعدها، محمد علي الداود. محاضرات عن الخليج العربي والعلاقات الدولية (١٨٩٠-١٩١٤م) (القاهرة، ١٩٦١م) ص ٥٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على معلومات أكثر عن حملات ابن سعود على ابن الرشيد، انظر: العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٢١، ١٤٥ (ابن جريس).

(٣) كان الوعاظ والفقهاء ورجال العلم يصاحبون جميع حملات الملك عبدالعزيز أثناء توحيد المملكة، وذلك بهدف إرشاد الجيوش، وإقامتهم الصلاة، والفصل في قضاياهم الشرعية والعرفية. (ابن جريس)..

لم يكن هناك غير تموجات قليلة في السهل الشاسع، ولم نأت بعد الإفطار على معلم أرضي واضح إلا بعد أن مشينا خمسة أميال تقريباً، ومن ذلك نقرة أو منخفض يسمى نغبج، يمتد شمالاً وجنوباً لمسافة أربعة أميال، ويحتوي على بئر واحدة. بعدما سرنا طوال هذا صعدنا مرة أخرى إلى القفر، وبعد ذلك مباشرة توقفنا للراحة وقت الظهر في منخفض مجهول ولا يمكن تمييزه إلا بالكاد، حيث ينتشر فيه بعض العرفج اليابس الذي ترعى منه الإبل.

قبل أن نصل هنا مباشرة وعندما أصبحت مقدمة الجيش ضيقة لكي تمر من خلال منخفض النغبج، حدثت حادثة بسيطة تستحق الذكر. فقد كنت راكباً في طريقي مع أربعة أو خمسة من رجال جماعتي وتصادف أن تجاوزنا مجموعة صغيرة من الإخوان على بُعد مائة ياردة تقريباً عندئذ، ودون أي نوع من الاستفزاز ما عدا منظري، صاح قائلاً: "أشهد الله على كرهي لكم"[1]. هذه الملاحظة المهينة هي الأولى التي أسمعها حقيقة خلال إقامتي المؤقتة كلها في البلد، وهي على الأرجح موجهة لرفاقي بسبب وجودي وليس لكي تسمعها آذاني. وقد قبلوا بكل المقاييس التحدي فوراً وبدؤوا يصرخون بالإهانات والشتائم رداً عليهم عندما قاطعتهم قائلاً: "اتركوهم لحالهم. هل ستردون على كل كلب ينبح عليكم؟". بيد أن العربي، لاسيما الأسود الزنجي بشكل عام، لا يمكن كبح جماحه عندما يرزح تحت الشعور بالضيم والجور، وسرعان ما لاحظت أن منوّر قد تخلف قليلاً ليفتح نار السباب على الإخوان.

وواصلت سيري متجاهلاً إياه وعزمت على التخلص من واحد لا يملك إلا القليل من ضبط النفس خشية أن تؤدي صحبته وأي نزاع ينتج عنها إلى رفض ابن سعود أن يلحقني به في الحملة العسكرية التي على وشك أن تبدأ. وكان عضو آخر من جماعتي، العنزي، حمد بن هذال، قد استأذن منا قبل أن نترك المشقوق، حيث كان

(١) أي (أشهد الله على بغضكم) (فيلبي). ربما قال القائل هذه الكلمة عندما رأى فيلبي، لأنه ما زال على دين النصرانية، ويضعونه في منزلة الكافر. (ابن جريس).

قريباً نسبياً من الوصول إلى مراعي موطنه في الصحراء الشمالية. وقد ثبت أنه أقل فائدة مما كنت آمل منه، وهو أحياناً مضجر وثقيل بشكل فظيع؛ ولذلك لم أشعر بالأسف على التخلص منه، وقد فشل في أن ينال بالتملق مزيداً من العطايا النقدية وبندقيتي من طراز مانليشر (Mannlicher) التي كان يستخدمها مؤقتاً. وفي الحقيقة تركناه هناك بلا مطية أو سرج أو أسلحة وبلا شيء ما عدا علبة من الكبريت، وغليون بغطاء معدني وما تبقى له من عطية مقدارها خمسون دولاراً أعطيتها إياه في عنيزة.

قبل الساعة الثانية ظهراً بقليل كنت أفكر في حط الرحال لنوم القيلولة، فقد بلغت درجة الحرارة في خيمتي مائة وثماني درجة فهرنهايت، وهذا اليوم يمثل أعلى درجات القيظ بالتأكيد. حينذاك انطلق أمر بأن يُنشر البيرق لاستئناف السير. ولذلك اضطررت إلى أن أحذو حذوهم، وأنا أتعجب من الجنون والسخف الغريب في طرائق العرب. فإذا كان السير طويلاً هو هدف هذه المناورة لكان ذلك معقولاً ومقبولاً، ولكن في الحقيقة لم نمش في ذلك العصر إلا ما يزيد قليلاً عن ساعة واحدة قبل أن نخيم للمبيت. لا ريب أن ابن سعود لم يستطع النوم وأصابه الملل فجأة من الجلوس ساكناً، مجرد نزوة جعلت كل شخص غير مرتاح بلا داعي لمدة ساعة ولم تزد شيئاً يذكر في إجمالي تقدم السير ذلك اليوم.

خلال تلك الساعة أو بعدها بقليل قطعنا أربعة أميال تقريباً فوق سهل متموج أكثر عن ذي قبل، فيه رواب وآكام من الأرض الصخرية المتغيرة ببعض البقع من الأرض الجرداء. وهنا وهناك تمتد قنوات رملية صغيرة بها بعض النباتات، وعلى مسافة بعيدة جهة اليسار سد جبل قعرا مجال الرؤية عنا، باقترابه ببطء وثبات من مسارنا حتى ـ على مسافة قصيرة منه ـ نصبنا خيامنا في منخفض ضحل شاسع يسمى البيد[1] الذي تكثر فيه أشجار العرفج المناسبة للإبل.

(١) ربما يكون اسمه عُبيّد (فيلبي).

خلال اليوم كانت الجبهة الممتدة للجيش الزاحف تجعل عدداً كبيراً من الأرانب البرية تخرج من مكامنها حيث تم صيد الكثير منها تماماً بعد استعراضات للمهارة والطاقة التي كانت جديرة بالإعجاب حقاً. وقد رأيت أربعة يُقبض عليها كلها بأم عيني، بواسطة العرب الحفاة الذين يطاردون الحيوانات ويوجهونها من واحد للآخر إلى أن تجلس مرهتة وتستسلم بكل بساطة للاصطياد. وخلاف ذلك كانت الحياة بغيضة لعدم وجودها على الرغم من أنه في مخيمنا على التلال الرملية بالمشقوق كانت الجرابيع كثيرة بغزارة لدرجة أنها تدخل خيمتي أثناء الليل، بعدما جذبها نور المصباح، وقد شعرت بالراحة والرضا من قتل عقرب كان يبدو أنه يبحث عن قدمي.

لقد كان إبراهيم الجميعة، الذي منعته عينه المريضة من المشاركة النشطة في القتال الأخير، من بين أوائل زواري هذا المساء، على الرغم من أنه بدا لا يملك إلا قليلاً مما يقوله وربما قد صده الاستقبال البارد كثيراً. وبعد ذلك اجتمعت مع سعد اليميني ورشيد لقضاء وقت المساء في ثرثرة فارغة. والظروف قد جعلت الحديث يدور حول موضوع التبغ. فقال رشيد في إحدى المرات خلال السنة الماضية أن ابن سعود على وشك أن ينطلق في غزوة. وقبل الساعة المحددة مباشرة استدعى دون أي إنذار ستة أشخاص ليتخلفوا معه، وأصدر الأمر لباقي القوم أن يسيروا إلى زحفهم. وقال لهؤلاء الستة "استمعوا لي، ليس عندي سبب يجعلني أشتكي منكم أو أكرهكم، ولكن تدخنون، هذه ذلولكم وسيوفكم، وبنادقكم، والآن، الله معكم، خذوها وارحلوا عن بلدي". فأعلن الستة بصوت واحد، إذا كان الدخان هو حقاً ذنبهم الوحيد الذي يأخذه عليهم، فإنهم سوف يقسمون على نبذه أفضل من أن يهجروا بلده[1].

(١) من صفات الملك عبدالعزيز أن يعلم رجاله الاتزان والاتصاف بالفضائل والابتعاد عن الرذائل، ولهذا فهو أراد أن يؤدب الذين يشربون الدخان بالطرد من الخدمة العسكرية. وهذا نوع من العقوبة الجيدة التي جعلتهم يعطونه وعودهم بترك الدخان تماماً على شرط أن لا يتم طردهم. لمزيد من سلوكيات الملك عبدالعزيز في تعليم رجاله دروساً في الأخلاق والاحترام والأدب وما شابه ذلك. للمزيد انظر: كمال الكيلاني، عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامي المعاصر، ص ٥٩ وما بعدها، إبراهيم السماري، الملك عبدالعزيز: الشخصية والقيادة، ص ٣٨ وما بعدها، عبدالله التركي، الملك عبدالعزيز آل سعود: أمة في رجل، ص ٥٦ ومابعدها. (ابن جريس).

وبهذا القسم أخرجوا غليوناتهم وتبغهم وحطموها أمامه، وسحب حكم الطرد بشرف، والتزم أربعة من الستة بأمانة بقسمهم منذ ذلك الحين. أما الاثنان الباقيان فقد استمرا في طريقهما الشريرة دونما أدنى اكتراث. وقد حاولوا أن ينتزعوا مني معلومات عن الخطط المقبلة لابن سعود ، وأخبروني بالشائعة المنتشرة، المبنية على استراق السمع لجزء من حديثي معه، أن القوة سوف تنحل الآن وتعود إلى أوطانها استعداداً للتجنيد العام للجهاد المعتاد. فقال سعد بصراحته المعهودة: «ما من أحد هنا سواك عنده أدنى رغبة في الاستيلاء على حائل أو يهتم بأي شكل بمصيرها». لقد كان ذلك حقاً على ما يبدو[١]، بالنسبة للغالبية العظمى من القوة المخيمة حولنا وبدا أن مزيداً من التأخير الطويل في العمليات سيكون حتمياً إذا سادت فكرة حل القوة. ولقد حدث في الحقيقة التجنيد العام في وقت لاحق من السنة نفسها في ظل ظروف شديدة الاختلاف عن تلك التي كانت سائدة في وقت هذا الحديث. وكان هدفه في ذلك الحين ليس ابن رشيد ولكن الشريف، وكان نتيجته تربة وقد وقعت هذه المعركة في مايو من العام التالي، وكانت واحدة من أشد المعارك الحاسمة التي وقعت على الإطلاق في الجزيرة العربية[٢].

وقد سمع سعد خلال النهار اثنين من الإخوان يتحدثان عني، فقد سأل واحد من الذين لم يروني أبداً رفيقه الذي رآني قائلاً: "أين الرجل؟ إنني لم أر أحداً حولنا هنا يرتدي كبوس"[٣]. فرد عليه الآخر"لا، إنه يرتدي ملابس مثل أي عربي".

بينما كنا نتحدث دوت طلقة من بندقية في جو الليل الهادئ وتبعتها أخرى ثم أخرى، إنها أخبار لا ريب من الخرمة وقد كانت فعلاً. فقد جاء قحطاني من الذين

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن حملة ابن سعود على حائل ومحاولة السيطرة عليها انظر: إيف بيسون، ص ٢٠٣-٢٠٩. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفضيلات عن أسباب وأحداث معركة تربة بين الشريف وابن سعود عام (١٣٣٧هـ/١٩١٨م)، انظر: إيف بيسون، ص ١٨٥، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٨٣-١٨٦. (ابن جريس).

(٣) كبوس: أي (قبعة) (فيلبي).

شاركوا في المناوشة الأخيرة حاملاً بشرى النصر الكبير للمسلمين، الذين استولوا على أربع بنادق وخمسة رشاشات. ولم يأت تأكيد رسمي بالانتصار بعد، ولكن لا يمكن أن يوجد بعد ذلك أي شك في صحة الأخبار. هل هناك إهانة أشد من ذلك لواحد يزعم أنه ملك العرب يتلقى ثلاث هزائم متتالية في وضح النهار، مع خسائر فادحة في الرجال وخسارة ثمانية مدافع وعشرة رشاشات، على يد قرية صغيرة مثل الخرمة؟[1]

كانت الساعة بالكاد الثانية صباحاً عندما أيقظوني في الصباح، بيد أن ابن سعود، والبيرق والقوة كلها قد ارتحلوا منذ زمن طويل قبل أن نتمكن من تجهيز أنفسنا. وبناءً على ذلك، سرنا في إثرهم على مهل، نمشي على ضوء القمر بين مشهد رتيب وكئيب مثل ما كان في الأيام السابقة. وقبل الفجر مباشرة توقف رفاقي للصلاة عند نقطة كان عندها جبل القعراء، القادم من اليسار، يبدو أنه يتلاشى منتهياً في السهل، المنبسط مثل الخط الضئيل لنفود الطرفية من ورائه، بينما امتد السهل الذي عن يميننا حتى جبل منخفض غير واضح المعالم. ويقع بين هذا الجبل وبين النفود ممر عرضه في البداية خمسة أميال، ولكنه يضيق بسرعة إلى نصف ميل فقط، ويمتد مسارنا خلال هذا الممر الطبيعي.

وكلما تغلب ضوء الصباح تدريجياً على الضوء الخافت للقمر وجدنا أنفسنا بصورة مستمرة نتجاوز القوم، ثم تجاوزنا جماعة ابن سعود، التي ـ بعدما مالت جانباً لصلاة الصبح ـ فضلت أن تنعم بلحظات قليلة من النوم. وفي أثناء مرورنا عليهم بدؤوا يتحركون مرة أخرى، ولكن لم يسيروا إلا قليلاً ليتوقفوا مرة أخرى للفطور، في حين واصلنا نحن طريقنا عازمين على الوصول إلى الطرفية عند أول وجبة لنا. وعندما مررنا قريباً من جماعة مرتحلة من الإخوان صاح واحد من

(١) لمزيد من الإيضاح عن الصراعات بين الأشراف وأهل الخرمة وتربة وموقف ابن سعود من ذلك الصراع، انظر: إيف بيسون، ص ١٨٥ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ١٨٣-١٨٧. (ابن جريس).

المزارعين الأجلاف بصوت عال هائجاً وقال بعصبية: "لماذا تأتون بهذا الكافر قريباً منا؟"[١]، فرد عليه سعد اليميني، الذي ركب معنا من البداية وتصادف أن يكون أقربنا إلى الرجل الآثم قائلاً: "اذكر الله!!"، فأجاب الرجل "لا إله إلا الله".

بحلول هذا الوقت كنا قد ابتعدنا ولم نستطع أن نسمع المزيد، ولكن متورك ومروج وعايض أظهروا علامات على رد الإهانة بمثلها، واضطررت إلى التذمر منهم ليظلوا صامتين[٢]. في ظل هذه الظروف كانت هناك طريقة واحدة محتملة من طريقتين، إما أن نتجاهل تماماً التبجحات التافهة للمتعصبين الجاهلين أو نثير جلبة وضجيجاً كبيراً بإبلاغ الأمر إلى ابن سعود، ولقد كان عندي من الأسباب القوية ما يمنعني من تبني الطريقة الأخيرة. وبعدما سرنا لمسافة إضافية أنزلوني من المطية لكي يعيدوا تعديل سرجي، وفي أثناء ذلك مر علينا رجلان قريباً منا يُحتمل أنهما كانا يتحدثان عني، وخلال مرورهما قام أحدهما بحركات مخيفة برفع البندقية إلى كتفه، والتصويب وشد الزناد ثلاث أو أربع مرات علينا. وبينما سعد مشغول بسرجي، فقد ثبّت عينيّ بصورة مستمرة على هذا المهرج، الذي أدار ظهره مبتعداً في خجل وارتباك مثل طفل سيء السلوك.

وهكذا واصلنا سيرنا نازلين في الوادي، ذي السطح الرملي مع بقع من الطمي الصلب، ويبلغ عرضه بين ميل وربع ميل كلما تقدمت النفود وارتدت. وفي وسطه يوجد جبل منخفض من الحجر الرملي المتفتت، وبه جرف منخفض ولكنه واضح في

---

(١) (لماذا تأتون بهذا الكافر قريباً منا) أي ليش تجيب ها الكافر يمّنا؟ (فيلبي +ابن جريس). كان فيلبي يعرف ويدرك أن هناك شريحة كبيرة في المجتمع لا ترغب أن تراه ولا تجلس ولا تأكل معه لأجل أنه غير مسلم (ابن جريس).

(٢) كان فيلبي يسعى إلى عدم الاصطدام بمن يوجه له إهانة أو سباباً أو شتيمة، وكذلك ينصح رفاقه الخاصين أن يتجنبوا الاحتكاك بمن يعاديهم بسبب مصاحبتهم له، كونه نصرانياً. وهذا التصرف من فيلبي يعد حكمة ليصل إلى أهدافه العلمية والسياسية التي جاء من أجلها. وعموم الرحالة الغربيين الذين جاؤوا إلى جزيرة العرب خلال القرون الماضية كانوا يقابلون مشكلات مع السكان، ويتفاوتون في التعامل مع تلك المشكلات. للمزيد عن الرحالة الذين قدموا إلى جزيرة العرب خلال القرون المتأخرة الماضية، انظر: جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ص ٢٦ وما بعدها، روبن يدول، الرحالة الغربيون، ص ١٨ وما بعدها، (ابن جريس).

طور التحلل ليصبح رملاً، وبعد مدة طويلة صعدنا إلى الصفراء، التي تلقي عنا لساناً بارزاً من الصخر إلى ما يقرب من مائة ياردة من النفود. وبعد عبورها دخلنا مرة أخرى في الوادي، الذي يجري جنوباً نحو الطرفية، وقد أشار سعد لي على بُعد ميل جهة الشرق إلى مكان معركة كبرى، تعرف عادة باسم الصريف التي نشبت في (١٣١٨هـ)[١]. فقد كان ابن رشيد، عبد العزيز بن متعب، خليفة محمد الكبير، يقيم في خيامه بالصريف، على بُعد مسافة ما في النفود، مع قبيلته شمر وعناصر مخلصة له من بريدة الذين ثاروا عليه وأغلق أبوابها. ويقيم مبارك بن الصباح في الطرفية مع حلفائه سعدون من قبيلة المنتفق الكبرى بالعراق[٢]، وعبد الرحمن، والد الحاكم الوهابي الحالي، مع عناصر نجدية أخرى من بريدة.

وأرسل ابن رشيد دورية فرسان صغيرة لاستطلاع العدو وقد فتحت عليها النار سريعاً قوة مماثلة تعمل من الطرفية. عند سماع أصوات الطلقات أصدر ابن رشيد الأمر بالتقدم، وفعل ابن صباح الشيء نفسه، ووقعت المعركة على أول منحدر في النفود وجزء من سهل الطرفية. وقد هزم ابن الصباح هزيمة نكراء واحتل العدو معسكره، بينما هو وحلفاؤه أطلقوا أرجلهم للريح فراراً ولم ينقذهم من عيون الجماعات التي بثها المنتصر لمطاردتهم إلا سقوط المطر بغزارة وفي الوقت الملائم. لقد كانت المذبحة كبيرة خلال المواجهة نفسها لدرجة أن الفيضان، كما قالوا، انساب بلون الدم الأحمر، حاملاً أمامه جثث القتلى ورصها في صفوف على حافة منخفض سبخة عريضة تمتد على طول الجهة الشرقية من حوض الطرفية. وكان عبد العزيز ابن سعود، الذي لازال صبيا، قد فرض في الوقت نفسه حصاراً على الرياض، ولكنه

(١) (١٣١٨هـ) يقابل هذا العام بالميلادي (١٩٠٠م)، للمزيد من التفصيلات عن معركة الصريف بين ابن الرشيد وابن الصباح، انظر: السعدون، ص ٥٢-٦٢، سعود بن هذلون، ملوك آل سعود، ص ٥٥، خزعل، ج٢، ص ٥٠، ١٥٦، الخترش، ص ٥٨ عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، ١٦١ وما بعدها (ابن جريس)..

(٢) لمزيد من الإيضاح عن قبيلة المنتفق، انظر: الحقيل، كنز الأنساب، ص ١٨٨. (ابن جريس).

رفعه فور ورود أنباء الهزيمة وانسحب للكويت. في هذه الأثناء هرب ابن الصباح عن طريق الزلفي، وطُورد النجديون بوحشية لمسافة بعيدة حتى حدود العارض وتعرضت قرى كثيرة للسلب والحرق على يد المطاردين. وزحف ابن رشيد نفسه على بريدة التي كانت أبوابها مفتوحة له بالخيانة، ولقن أهلها درساً عن التبعات الوخيمة للتمرد بإعدام مائة وثمانين من مواطنيها، وانتزاع غرامات مالية باهظة من البقية، فالعائلات مثل الربدي والشريدة قد تحملت بغباء عشرة آلاف ريال لكل منها. بيد أن المعاملة القاسية والانتقامية من المنتصر للمغلوبين قد جعلت اسم عبدالعزيز بن رشيد مكروهاً في نجد كلها، وكان عبد الرحمن ـ بعدما وصل سالماً إلى الكويت ـ قد تنبأ بأن نجداً سوف تعود سريعاً إلى حكامها الشرعيين، وهي نبوءة بدأ تحقيقها في العام التالي على أيدي ولده، الذي يخبأ القدر له كثيراً في جعبته[1].

عندما وصلنا قمة المرتفع وجدنا أنفسنا على حافة حوض الطرفية الكبير المستقل بذاته والمحاط من أحد الجوانب بالصفراء ومن الجانب الآخر بالنفود ويبلغ قطره ميلين تقريباً. وفي الجهة الشرقية من الحوض توجد السبخة المذكورة آنفاً، التي ينحدر نحوها السطح الرملي في بقية المنخفض برفق من الصفراء. وخلال لحظات قليلة كنا قد نصبنا خيامنا قريباً من قصر في وسط الحوض، وفيه عدد قليل من أشجار النخيل والأثل من حوله. والقصر هذا واحد من نحو خمسة عشر منزلاً مماثلاً تأوي مئة شخصاً تقريباً من فرع التواجر من عنزة الذين أتوا إلى هنا أصلاً من المجمعة[2]. وهناك رقعتان أخريان من الأثل أكملت حالة القفر البادية الآن على هذه القرية التي يبدو أنها كانت ذات يوم أشد ازدهاراً.

---

(١) للاطلاع على الأحداث التي سبقت فتح الرياض عام (١٣١٩هـ/١٩٠١م) وموقف ابن الرشيد وابن الصباح منها، انظر: السعدون، ص ٣٢ وما بعدها، ديكسون، ص ١٣٠، الخترش، ص ٣٣ وما بعدها، صلاح الدين المختار. تاريخ المملكة العربية السعودية (بيروت، ١٩٥٧م) ج٢، ص٢٤. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن التواجر، انظر: الحقيل، كنز، ص ٨٣. (ابن جريس).

بعد وصولنا مباشرة تبعنا ابن سعود في الدخول للمخيم راكبين، ووراءه الكتيبة القوية من حرسه المرافق. وتعقبته فوراً إلى خيمته للاجتماع به، وقد ثبت أن هذا الاجتماع شديد الكآبة؛ لأنه كان نعساناً مثلي تماماً. وجاء الأميران الصغيران، فيصل وفهد، اللذان قد تركا في المخيم هنا خلال الغزوة، فوراً بقبلة الترحيب بوالدهما على كلتا جهتي الأنف وفوقه، ثم أخذا مكانهما في خيمة الاستقبال بوقار جذاب. بعد ذلك سألهما ابن سعود عن صحتهما بطريقة رسمية كما لو كانا غريبين محترمين وليسا أطفاله هو نفسه اللذين لم يبلغا بعد سن المراهقة. لاشك أن هذا جزءاً من الروتين التعليمي المصمم لتعليمهم الأخلاق والسلوك بالممارسة العملية بدلاً من المفاهيم النظرية. وقد تركتهم على عجل بعد ذلك لكي أعود إلى خيمتي أملاً في ساعة أو ساعتين من النوم تعوضان استيقاظي المبكر، ولكني اضطررت إلى استقبال ضيف غير متوقع هو سلطان بن عبدالعزيز آل حسن، الذي جلس يثرثر ويدخن لمدة نصف ساعة، وفي وقت لاحق بعد الظهر جاء مرة أخرى مع أخيه، حسن. ولم يبد أن أياً منهما لديه موضوع ذو أهمية ليناقشه معي، وربما كان حافزهم هو الشعور بالزمالة في المنفى بقفار الجزيرة العربية والفرص الواضحة للتدخين بهدوء التي جعلتهما يسعيان في طلبي.

لقد برزت الطرفية مرة أخرى في التاريخ عام (١٣٣٦هـ)[1]، عندما نشبت معركة عند الطرف الجنوبي لمنطقة السبخة بين ابن سعود وسلطان بن رشيد، الذي كان معه فرع الدويش من مطير وأهل بريدة. في الفترة الممتدة بين معركة الصريف و (١٩٠٦م) كان عبد العزيز بن سعود قد حقق قدراً كبيراً من نبوءة والده باسترداد الرياض، وجميع المناطق جنوب القصيم. في هذه السنة المذكورة كان عبد العزيز بن رشيد يرقد في روضة آل مهنا بعد سير طويل، عندئذٍ حذره الدويش وآخرون

(١) (١٣٢٦هـ) أي ما يعادل عام (١٩٠٨م) (فيلبي + ابن جريس).

ليحترس من هجوم وشيك. وقد تجاهل تحذيرهم، وفي اليوم التالي عند الفجر انقض عليه ابن سعود ونشب قتال شرس، وفيه قام رشيد الذي صاحب ابن رشيد في معركة الصريف والفرسان الذين يعمل معهم بالاستيلاء على كل ما كان أمامهم في قطاعهم من القتال، بينما دار اليوم ضد قوة حائل ككل حيث قتل عبد العزيز نفسه. وقد خلف الأخير ابنه متعباً، على العرش، ولكن سرعان ما اندلعت الاضطرابات والقلاقل في عاصمة شمر، حيث اغتصب فرع عبيد من الأسرة الحاكمة مهام الطفل الحاكم. ومن هذا الفرع يأتي سلطان الذي واجه ابن سعود في الطرفية بعد ذلك بسنتين، وقد أصيب الأخير بجرح في كتفه، وقد أحرز نصراً حاسماً. وفرّ سلطان، تاركاً أخاه غير الشقيق، فيصل بن رشيد، الذي رافقنا في هذا المسير، ليحكم بريدة، التي هاجمها ابن سعود بغير نجاح، وعانى من هزيمة قرب الصباخ (صبخ)[1].

وبسبب بعض المعاملات التي كان على ابن سعود أن ينهيها في هذا المخيم، القاعدة، فقد مكثنا في الطرفية طول اليوم الأخير من سبتمبر، يوم كامل من الفراغ التام بقدر ما كان الأمر يهمني. ففي الساعات الباكرة من الصباح جلست في خيمتي أرقب قوات الإخوان تمر، والكثير منهم يختلسون النظر عابسين بخبث في اتجاه مسكن الكافر، إلى مستودع المؤن القريب، حيث يسحبون تباعاً مؤونة شهر من الأرز، والقهوة، والضروريات الأخرى. وبعضهم يحمل الأكياس المخصصة لهم على رؤوسهم، بينما جاء آخرون بإبلهم معهم ليحملوا عليها الأحمال الثقيلة. وفي وقت لاحق لم يقطع رتابة الصباح إلا ظهور امرأة عجوز من الصلبة، عندما جلست عند باب خيمة رفاقي تعرض عليهم للبيع لحم غزال مجفف، وظلت تثرثر في مزاح مرح من البذاءة والفحش مع رشيد، الذي يكون دائماً في محيطه الملائم بين حثالة المجتمع. وقد

(١) لمزيد من التفصيلات عن الصراعات بين ابن سعود وابن الرشيد في الثلث الأول من القرن الهجري الماضي، انظر: إيف بيسون، ص ٢٠٣ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ٦٣١، ١٢١، ١٤٥. (ابن جريس).

وجدت من الصعوبة الشديدة أن أضم معاً كلمات الحديث الذرب لهذه العجوز الشمطاء التي تقتبس أبياتاً كثيرة من الشعر بل وشاركت حتى في أغنية مألوفة. وفي النهاية اشتريت منها زوجاً من قرون الغزلان وكيساً لحفظ الدراهم مزيناً بشُرّابة مصنوع من حلق غزال، وبه رسم زخرفي بسيط باللون الأسود.

كان واحد من الإخوان عند مروره غافلاً بجوار الخيمة التي يجلس عبد الله فيها وحده في ذلك الوقت، قد نظر داخلها ودلف فيها محيياً مضيفه المذهول، الذي على كل حال ردد كلمات الترحيب واستضافه بحديث لدقائق قليلة كما لو كان شيء غير عادي قد حدث. وبعد مدة طويلة وربما بسبب خيبة أمله من عدم وجود قهوة نهض لينصرف، وبعد مسافة قليلة دنا منه زميل له من الإخوان، الذي رآه يخرج من الخيمة، وبادره بأسئلة عن سبب زيارته لخيام الإنجليزي، وبما أنه قد أصابه الهلع من جريمته غير الحكيمة فقد استدار نحونا وفعل كفارة علنية بالبصق في اتجاهنا. وكان غازي، دليلنا الحربي في رحلة الجنوب والآن في خدمتي مرة أخرى، قد أخذ تقريباً الإجراء ليصبح أخو، ولكنه انسحب قبل الدخول الفعلي، على الرغم من أنه دائماً يلبس غطاء الرأس المميز لهم. وقال لي: إن ابن عم له أخبره في معسكر الأرطاوية أن الإخوان قد أقسموا أن يعاملوه بشر على خطيئته في البقاء معي، إذا ظهر بينهم. وقال لي رشيد إن أخو، الذي تبادل معه الحديث في يوم أمس، قد عاتبه بشكل خطير على الطول الزائد في سرواله، الذي طبقاً للأحكام لا ينبغي أن ينزل أكثر من نصف الساق. وقد وعده بطريقة رزينة أن يكون أكثر التزاماً في المستقبل، وانصرف الرجل سعيداً باعتقاده أنه أسدى خدمة لزميل آدمي[1].

(١) يظهر في هذا الموقع وغيره من صفحات هذا الكتاب، أن الإخوان كانوا مندفعين أحياناً في دعوتهم وتوجههم، وربما ذلك ناتج عن عدم الفهم الحقيقي لتعاليم الدين. بل إن الملك عبدالعزيز كان يعاني أحياناً من سوء تصرفاتهم، ويعمل جاهداً على تحمل أخطائهم، وإرشادهم وتوجيههم، وأحياناً معاقبة بعضهم. (ابن جريس).

وقد شرفني إبراهيم الجمعية بزيارتين، واحدة في الصباح والأخرى في المساء، عندما تحدثنا بسرور كاف عن المعارك الكبرى في الماضي. وأمضيت جزءاً من فترة العصر في تصفح ترجمة عربية باللهجة المصرية لرواية رخيصة من روايات العنف والجريمة تسمى "فتاة النهلستية" التي تكوّن مع عدد من الكتب المماثلة القسم الأكبر من مكتبة محمد السليمان بعنيزة. وبعد مقابلة خالية من الأحداث مع ابن سعود تناولنا عشاء من الأرز ولحم الضأن، تغيير سار من غذاءنا الأخير على لحم الإبل عسير المضغ. والماء في الطرفية غزير وعذب وخاصة في بئرين، أما الباقي ففيه معادن خفيفة أو يميل إلى الملوحة.

عندما انطلقنا في الصباح التالي كنت قد عزمت على التزام الطريق المباشر لبريدة، على أن الدكتور عبد الله ورشيد، اللذين وعداني بالحصول على دليل كفء لهذا السير، قد فشلا في ذلك، وأظهرت ضيقي بالانطلاق فجأة على درب كنت أعلمه جيداً إلى الشرق من الطريق الصحيح. وقال رشيد بضعف: إن الطريق المباشر كان إلى اليمين بشكل أكبر، ولكني لم أعره اهتماماً، ورددت قائلاً: إنه ما دام ليس معنا دليل فإنني لا أستطيع أن أثق في كلمته، وواصلت السير في طريقي. عندئذٍ، بعدما أصابه القلق كثيراً من احتمال السير طويلاً، انطلق متعجلاً إلى قصر بحثاً عن دليل، وبعدما عثر عليه دون صعوبة، مثلما أن باستطاعته أن يفعل من قبل لو بذل جهده، فصاح قائلاً: «تعال هنا، لقد وجدت دليلاً».

وواصلت السير في طريقي وفي النهاية لحقني رشيد والدليل. وقال: «هذا هو الدليل، وذلك طريقنا هناك». فتوجهت إلى الدليل متسائلاً: «إلى أين يؤدي هذا الدرب؟ فأجاب ببراءة وصدق: «إلى روضة الربيعية»[1]. عندئذٍ، وللكرب الواضح

(١) بلدة الربيعية تقع في شرق منطقة القصيم وشرق مدينة بريدة عاصمة المنطقة، وتبعد عنها بحوالي (٢٥كم). للمزيد انظر: عبدالعزيز السنيدي. الربيعية (الرياض: مطبوعات الرئاسة العامة لرعاية الشباب)، ص ١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

لدى الجماعة كلها، قلت: «حسناً جداً، هذا سوف يعود علينا بالنفع الكثير الآن؛ لأننا قد قطعنا كل تلك المسافة».

وتصادف أن كان اليوم واحداً من أشد الأيام حراً في الآونة الأخيرة، فلقد التهبت النفود مثل فرن ولم تكن هناك رياح. وكان عبد الله شديد الغضب من العالم كله بصورة عامة، ومني بصورة خاصة، بينما رشيد على الرغم من الصداع الذي يشق رأسه، قد أصلح خطيئته السابقة بلعب دور الشخص الوحيد المسرور في الجماعة طول اليوم بالإضافة لي. وانتهزت كل فرصة بمباركة الصدفة التي جعلتني أرى مناطق أكثر مما كنت أتوقع. وأردفت قائلاً: "وأقترح أن تفعل مثل ما فعلنا اليوم عندما لا نجد دليلاً كفؤاً يوجهنا". وفي الحقيقة كان رفيقنا، رجلاً طاعناً في الثمانين من عمره يُدعى سليمان، يتمتع بكفاءة فائقة على نحو فذ ومسل، فقد أمتعنا بقصص عن الحروب والمعارك القديمة، واستشهد بنتف من الشعر ليضيّع الوقت. وفي نهاية اليوم استنزل عليّ كل بركات ونعم الله القوي مقابل عطاء نقدي تجاوز أقصى ما يطمح إليه خياله الجامح.

انطلقنا من المخيم بعد السادسة صباحاً مباشرة، وفوراً أتينا تقريباً على بستان مسوّر فيه خمسون نخلة تقريباً، وبعض الأثل وقصر يقابل ويسد تماماً شعيب الطرفية الذي يمتد نازلاً من الصفراء إلى الشبخة. وعلى طول الشعيب تتناثر هنا وهناك قصور متفرقة وآبار يتراوح عمق الماء فيها بين أربع إلى خمس قامات. وبعد مرورنا بجوار قصر آخر وبستان نخيل صغير وأشجار الأثل على يسارنا، دخلنا في منطقة شاسعة من حقول الذرة، بها قصور متناثرة وآبار، وأخيراً على مسافة ميل من نقطة انطلاقنا أتينا على أكبر هذه القصور، وهو في الحقيقة قرية صغيرة محاطة بسور هائل عليه أبراج وبوابة وحيدة بقدر ما استطعت أن أرى على الجهة الشمالية. وراءها، وبعد المرور على بعض أنقاض من قرية قديمة على الجرف الذي يشكل الضفة اليسرى من الشعيب دخلنا ثم عبرنا قطاع السبخة التي ربما تمتد لميل على جانبينا في اتجاه الشمال والجنوب.

تمتد النفود، التي خرجنا منها على الجهة الأخرى، عند هذه النقطة نحو الشمال والجنوب تماماً تقريباً، وفي النهاية تنحني ملتفة حول الطرف الجنوبي من الصفراء التي تبتعد عن النظر نحو الجنوب الغربي. ولمسافة ميل ونصف كنا نكابد النفود طالعين ونازلين وهي تتناثر فيها على مسافات متقطعة منخفضات ضحلة فيها نباتات غزيرة من الطرفاء (في التجاويف) والغضا، والأرطي ونباتات أخرى معتادة حتى وصلنا بئراً تسمى عسيلان، عمقها قامة واحدة ومياهها مالحة بصورة شديدة، وفي تجويف ومعها شجيرة حش واحدة. بعد هذا كانت جبال النفود حادة الانحدار، وعالية، وجرداء بصورة عامة من النباتات. ومررنا على بئر أخرى هي الحيسية مالحة المياه ضحلة مثل سابقتها، وتوجد في منخفض على هيئة حدوة الحصان تقريباً، مثل حُفر الفلج التي يقولون عنها في النفود الشمالية الكبرى، على الرغم من أنني لم أسمع أبداً هذه الكلمة تستخدم لوصف مثل هذه المنخفضات، التي تشتهر بصورة عامة باسم النقرة.

بعدما وصلنا الآن إلى مرتفع كبير من الرمل نظرنا إلى الخلف على سبخة الطرفية التي ظهرت تلمع مرة أخرى مثل بحيرة من الزئبق. ووراء الجبل تقع قناة بها شجيرات الطرفاء، وبعد الجبل التالي وراء محيط حقيقي من أمواج الرمل ظهر جبل روضة الربيعية ذو الصخر الرملي. وعلى مدى الساعة التالية كافحنا بضراوة طالعين وهابطين على الموجات المنحدرة في النفود، حتى وجدنا أنفسنا فجأة في قناة وادي الرمة[1] وهي جرداء ذات قاع طيني يتراوح عرضه بين عشرين وخمسين ياردة، تتلوى وسط متاهة من التلال الرملية من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ولا يمكن تمييزها إلا لمسافة ميل أو نحوه على كلا جانبي خط عبورنا.

(١) وادي الرمة يخترق بلدة الربيعية أثناء مروره بمنطقة القصيم، ولمرور هذا الوادي بها دور في إكسابها أهمية عظيمة من الناحية الزراعية والاقتصادية. (ابن جريس).

وبعد الوادي استمر التتابع نفسه من الجبال الرملية، ومن إحداها ألقينا نظرة واضحة على القناة الثعبانية الممتدة في البداية شمال ـ شرق ثم شمال ـ شمال ـ شرق حتى ضاعت معالمها مرة أخرى في الرمال. وبعد ميل تقريباً وراء الوادي، اضطررنا إلى التغلب على منحدر رملي شديد الارتفاع حاد الانحدار الذي نظرنا من قمته إلى أسفل لنطل على بستان روضة الربيعية وخلفها خندق الجبل الذي رأيناه آنفاً على بُعد. وفي غضون ربع ساعة كنا قد وصلنا قرية صغيرة غير مسورة تحت الخندق تماماً، الذي يوجد على قمته برج للحراسة[١].

وإلى الشمال من هذه النقطة تقع مجموعة من بساتين النخيل المسورة الممتدة مسافة ربع ميل، بينما كان الجزء الرئيس من الواحة المكون من نحو درزن من البساتين تمتد نحو الجنوب مسافة ميل تقريباً على طول قاعدة الخندق، التي تمتد نفسها شمالاً لنحو ثلاثة أميال حتى قناة الوادي، وجنوباً لعشرة أميال تقريباً نحو الشماسية، وهي قرية مشابهة في موقعها للمذكورة آنفاً نحو الشرق تمتد الصفراء نحو عشرة أو اثني عشر ميلاً، حتى رمال نفود الثويرات تجاه الزلفي، وتشكل كما بدت جزيرة من الصخر محاطة تماماً ببحر من الرمال.

يبلغ متوسط عرض المجرى الذي تقع فيه الواحة نصف ميل بين الخندق والنفود. وفيه على بُعد ميل تقريباً نحو الشمال يقع قصر واحد وبستان نخيل روضة أو رويضة الزايدي[٢]، التي سميت باسم صاحبها إبراهيم الزايدي وهو مواطن من بريدة على

(١) لمزيد من التفصيلات عن جغرافية وتضاريس بلدة الربيعية، انظر: محمد العبدوي، معجم بلاد القصيم (طبعة مطابع الفرزدق، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ج٣، ص ٨٤٦، ج٤، ١٦٠٢، ج٦، ٢٤٢٢، محمد محمود محمدين «أودية نجد وسدودها» مجلة كلية الآداب جامعة الرياض سابقاً (الملك سعود حالياً) ١٩٧٧-١٩٧٨م)، ص ٢٤، محمود شاكر. شبه جزيرة العرب، نجد (بيروت؛ المكتب الإسلامي، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) ص ٦٣، ٦٦، حسين حمزة بندقجي. جغرافية المملكة العربية السعودية (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص ٧١. (ابن جريس).

(٢) رويضة الزايدي: تسمى أيضاً روضة ابن صالح، وهي أبعد الأحياء شمالاً في بلدة الربيعية، وهي قديمة العمران، انظر: السنبدي، الربيعية، ص ١٠١. (ابن جريس).

الرغم من أنه ذو أصل دوسري[١]. وكان هناك برج حراسة ثان على الخندق على بُعد ميل تقريباً جنوب الأول وعدد من القصور المتناثرة في بساتين النخيل وكلها مسورة، لتكمّل صورة القرية الفاتنة المدفونة بعيداً عن العالم. كان أكبر القصور في واحد من أكبر البساتين قرب الطرف الجنوبي من الواحة يخص الأمير المحلي، عبدالله بن البازعي وهو من أصل شمري يحكم كل سكانها البالغ عددهم أربع مئة نسمة تقريباً من أصل تميمي[٢]. وتشمل بساتين النخيل، مثل أي مكان آخر، على عدد معقول من أشجار الأثل ومساحات واسعة من البرسيم. صعدت برج الحراسة الشمالي لألقي نظرة على المنطقة المحيطة ولم يكن هناك شيء يُرى إلا النفود والخط الأشد قتامة لصفراء العوشزية.

عند العودة إلى حيث تركت إبلنا وبقية الجماعة وجدت أننا قد دعينا على القهوة من أحد القرويين، وبناءً على ذلك دخلنا مجلسه، الذي كانت جدرانه الكالحة بالدخان تحمل شكلاً منمقاً من الزخرفة بالدهان الأبيض، كما كان الدولاب الطيني بجوار الموقد مزخرفاً من أعلاه إلى أسفله بطراز بارز على هيئة سن سمك القرش. وسرعان ما اجتمع عدد من السكان في المجلس ليسمعوا آخر أخبار الغزوة الأخيرة، ولكنها كانت على العموم استضافة كئيبة مملة، خالية من الحيوية؛ لذا كنا مسرورين بالفرار فور انتهاء دوران القهوة علينا. ومن سخائهم بمحصولهم قدموا لنا تمراً أشبع جوعنا، ولكنه كان أسوأ وأجف تمراً تذوقته على الإطلاق. ومن الحكايات والإشاعات المحلية لم يكن هناك شيء، على الرغم من أنه لسبب ما تحوّل الحديث إلى الساعات، وقيل: إنه لا توجد ساعة واحدة من أي نوع كان في القرية كلها[٣].

(١، ٢) لمزيد من الإضافات عن قبائل الدواسر وبني تميم ومواطنها وفروعها، انظر: الحقيل، كنز، ص ١٥٥-١٦٦، ١٩٢-١٩٧. (ابن جريس).

(٣) لمزيد من التفصيلات عن الحياتين الاجتماعية والاقتصادية في بلدة الربيعية، انظر: السنيدي، الربيعية، ص ١١٢-١٤٠. (ابن جريس).

عندما استأنفنا سيرنا بعد الظهر مباشرة مشينا جنوباً على طول حافة الواحة حتى حديقة ابن البازعي[١] عند النهاية، ومنها استدرنا نحو الجنوب الغربي ودخلنا في خليج من النفود، وفيه توجد حقول الذرة الخاصة بالمواطنين. وبعدما دخلنا الرمال وجدنا أنفسنا على درب بريدة الواضح المعالم الذي يتغلب على النفود عند مستوى أكثر سهولة وانخفاضاً مما كابدناه باكراً في النهار. وعلى بُعد ميل تقريباً من حديقة ابن بازي صعدنا جبلاً منخفضاً لنجد أنفسنا مرة أخرى نواجه قناة وادي الرمة، التي تبدو هنا منبسطة في سهل طيني هائل دائري يُعرف باسم الدهورة محاطاً بالكامل تقريباً بمرتفعات رملية. ربما يكون قطر الدائرة نحو ميلين، وسطح أرضها القاسي كان يتنوع هنا وهناك ببقع رملية مع الرمث والنباتات الأخرى التي يبدو أنها تبين تقريباً المجرى العام لقناة الفيضان الرئيسة. نحو الجنوب الغربي كلما تقدمنا يوجد درزينة أو أكثر من قصور الطومية (التومية) المهجورة، وخلفها خط صفراء العوشزية وامتداده في شريط نفود الطعمية والخط الرئيس للقناة يبدو أنه يأتي من الجنوب الغربي ماراً بهذه النقطة، والمسافة التي قطعناها بشكل منحرف أو قطري من النقطة التي دخلنا عندها الدهورة حتى النقطة التي صعدنا عندها أول منحدر من نفود بريدة كانت سبعة أميال في مجموعها تقريباً. وبعد ثلاثة أميال من السير فوق جبال وتجاويف النفود وصلنا إلى خب القبر[٢] الذي تنتشر فيه أشجار النخيل مع الأكواخ القليلة، وهو يمتد على يسارنا لنحو نصف ميل على طول المرتفع الرملي، بينما القصر الوحيد ورقعتا نخيل نقر الثنا على بُعد نصف ميل إلى يميننا.

بعد مرورنا على برج حراسة فوق الجبل التالي أتينا عندئذ إلى قصر كبير وقرية تسمى الرفيعة التي كانت قبل ثلاثين سنة مضت واحة مزدهرة عندما كان

(١) ابن البازعي: ذكره فيلبي باسم (ابن بازي)، والصحيح ما أوردناه، انظر: السنيدي، الربيعية، ص ٩٢. (ابن جريس).
(٢) خب القبر: مجموعة مزارع في بريدة بين الضاحي وخضيراء، وكانت أرض سبخة زحف عليها العمران من كل الجهات. الهويمل، بريدة، ص ٥٢. (ابن جريس).

محمد بن رشيد يخيّم فيها لمدة طويلة بعد انتصاره في المليدا. وعلى مسافة ميلين نحو الشمال ـ الشمال ـ الغرب تقع نخيل وقصر العودة بين النفود والصفراء، بينما على يسارنا مباشرة تقع العجوزة وهي مجموعة مماثلة. بعد ذلك شاهدنا خضير والصوير على يسارنا وعكيرشة وهي واحدة من أكبر خبوب بريدة، على يميننا. وهكذا في النهاية، بعد يوم شاق وتجاوزنا يمين وهطان تماماً وصلنا إلى الصدّة وآبار الصقعة الواقعة بينها وبين زاوية المدينة الكبرى التي دخلناها من البوابة الشرقية[1].

كان فهد آل معمر يعقد مجلسه عندما وصلنا، في المكان المعتاد خارج مسكننا، جلست مدة معه على المصطبة الطينية الممتدة على طول الجدار، نشرب القهوة ونتحدث عن القتال الأخير، الذي أبلى فيه بكل المقاييس بلاءً حسناً حيث قتل تسعة رجال في المعركة راكباً وهو أعور بعين واحدة. وبعدما أويت للراحة فترة سرعان ما استدعاني فهد لأنضم إليه على العشاء، ولأننا كنا جوعى، فقد التهمنا الوجبة الشهية من الأرز ولحم الضأن التهاماً، وقد وضعت أمامنا، على طبق كبير مرتفع لم أر مثله بهذا الارتفاع إطلاقاً. وعندما انتهى العشاء[2]، أويت إلى سطح المنزل البارد لأستريح وأقرأ حتى يحين وقت النوم.

(١) لمزيد من التفصيلات عن أسماء أحياء وقرى وهجر بريدة، انظر: محمد الربدي، بريدة، ج٢، ص ٣٩٢-٣٩٣، الهويمل، بريدة، ص ٥١-٥٧. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن الحياة الاجتماعية في بريدة، انظر: الهويمل، بريدة، ص ١٢٩ وما بعدها. (ابن جريس).